

اللغة والنحو

دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة

تأليف

الدكتور حسن عون

الأستاذ المساعد بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٢م

اللغة والنحو

دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة

تأليف

الدكتور حسين عون

الأستاذ المساعد بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٢م

فهرس محتويات الكتاب

١ مقدمة

٧ اللغة

نشأة اللغة ٧ ، رأى أفلاطون في اللغة ٩ ، تقدم العقل على حساب الأديان —
نظرة بنية علماء الغرب إلى اللغة ١٠ ، فارون واللغة ١٣ ، كاتيليان واللغة ١٤ ، نظرة
علماء الشرق إلى اللغة ١٥ ، منشأ القول بمسكرة التوقيف عند المشرقيين ٢٤ ، المذهب
الروماني في الشرق ٢٥ ، تدليل الغربيين للمذهب الروحي ٢٧ ، لامتني للقول بتوقيف
اللغة ٢٨ ، اللغة في نظر علماء التفسير ٢٩ ، مراحل نمو اللغة عند المنطقيين ٣٠ : أشهر
اللغات ٣٦ ، أسبق اللغات — رأى صاحب الفهرست في أسبق اللغات ٣٧ ، رأى
هيرودوت في أسبق اللغات ٣٨ ؛ لغة الاسبرانتو ٣٩ ماضي اللغة العربية ٤٢ ؛ مثل
كانت هناك لهجة تسمى لهجة قریش ٤٣ ؛ النحو العربي أسس على لهجة قریش ٤٤
حاجتنا إلى معرفة اللهجات العربية الأخرى ٤٤ ؛ ما عمله اليونانيون في لغتهم ٤٥ ؛
دراسة اللغة اللاتينية ٤٦ ؛ فساد الفكرة القائلة بضعف اللهجات العربية الأخرى ٤٨ ؛

٥٠ اللغة والنحو

النحو بالنسبة للغة — لا ينشأ النحو مع اللغة ٥٢ ؛ العقل متأخر في الوجود عن
الحس ٥٤ ، نشأة اللغة اليونانية واللغة اللاتينية — القول كلور واللغة ٥٣ ؛ مبدأ
عمل العقل في اللغة — الرسوم الهيروغليفية والسومرية ٥٤ ؛ أطوار اللغة ٥٥ ،
سبب بقاء الرواسب القديمة في اللغة ٥٨ ؛ مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات ٦٥ ،
الإعراب بالحركات أسبق في الضبط من الإعراب بالحروف ٧١ ؛ نشأة التطرق
المختلفة في التعبير ٧٢ .

٧٨ نشأة النحو العربي

النحو بمعناه الفني ٧٨ ؛ أسبقية الفنون للعلوم — نشأة النحو الفني ٧٩ ، الفرق
بين تاريخ الفن وتاريخ العلم — ليس من السهل تأريخ النحو بمعناه الفني ٨٠ ؛ ظواهر
النحو الفني ٨١ ؛ الإعراب بالحركات أسبق من الإعراب بالحروف ٨٢ ؛ الأدلة على
سبق الإعراب بالحركات ٨٣ ؛ حروف الإعراب لم توجد كلها دفعة واحدة — وجه
الشبه بين الإعراب بالحروف في العربية واللاتينية — الأدلة على عدم وجود حروف
الإعراب دفعة واحدة ٨٥ ؛ أوائل النحاة وفهمهم للغة العرب ٨٧ ؛ موقف النحاة
من قواعدهم ٩١ ؛ فساد فهم النحاة لبعض الآيات ٩٢ ؛ مثل من تعليقات النحاة
٩٦ ؛ ملاحظات على البحث في النحو الفني ١٠٠ ؛ أثر النحاة اللاتينيين في اللغة
اللاتينية ومقارنة ذلك بنحاة العرب ١٠٦ ؛ صعوبة معرفة تطور اللغة العربية —

مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية يمدنا لفهم شيء عن تطورها ١٠٨ ، أطوار اللغة اللاتينية ١٠٩ ؛ نتائج المقارنة بين اللغة اللاتينية واللغة العربية ١١٩ ؛ أطوار اللغة العربية ١٢٦ ؛ تطور استعمال اللغة ١٢٨ ؛ نتيجة البحث في النحو بمعناه الفني ١٣٩ .

١٤٩ النحو بمعناه العلمي

سبب وضع النحو عند الشرقيين ١٤٩ ، سبب وضع النحو عند الغربيين ١٥٠ ؛ الشرق محدود في تفكيره معنى روحى ١٥١ ، المراحل الدينية في الشرق ١٥٢ ، الغرب يسوده معنى مادى — ينبغى القضاء على روح النشأوم ١٥٢ ؛ العلوم الإسلامية نشأت لخدمة القرآن ١٥٥ ؛ البيئة العربية مآوى للمهاجرين وطلاب الكسب من الأمم الأخرى ١٥٦ ؛ كان اللحن يجرى في البيئة العربية قبل الإسلام ١٥٨ ، ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تمثيلاً صحيحاً ١٥٩ ؛ مكة وما كان فيها من بيوت تجارية وسفراء ١٦٠ ؛ ظاهرة الفتيات الأجنبية في الجزيرة العربية ١٦١ ، عدم خطورة اللحن في صدر الإسلام ؛ دور اللحن الخطير ١٦٢

١٦٣ تاريخ اللحن في العربية

أنواع اللحن ١٦٤ ؛ تعريف اللحن ١٦٧ ؛ أخطر أنواع اللحن ١٧٧ ؛ ما يجرى عند علماء القراءات هو نفس ما يجرى عند علماء اللغة اليونانية واللاتينية ٢٧٩ ؛ الفرق بين تأريخ اللحن وتأريخ النحو ١٨١ ؛ أولية اللحن ١٨٢ ؛ اللحن في العصر الجاهلى — اللحن في صدر الإسلام ١٨٥ ، اللحن بعد الفتوح الإسلامية ١٨٦ ؛ اللحن في المخطوطات المنققة ؛ لحن الفقهاء ١٨٨ ، لحن القراء ١٨٩ ؛ لحن الشعراء ورجال الأدب ١٩١ ؛ ظاهرة تنقية اللغة ١٩٤ .

١٩٨ نشأة النحو العربى والأسباب التى دعت إليه

نشأة العلوم الإسلامية الأولى ٢٠١ ؛ علم القراءات ٢٠٢ ؛ علم التفسير ٢٠٥ ، علم الحديث ٢٠٦ ؛ علم الفقه ٢٠٧ ؛ الضرورة في وضع النحو كانت أشد إلحاحاً من الضرورة في وضع العلوم الإسلامية الأخرى — موضوع علم النحو ٢٠٨ ، السبب في وضع النحو ٢٠٩ .

٢١٢ من هو الواضع الأول للنحو العربى

صنيع العرب بلغتهم وصنيع الروم بلغة اليونانيين ٢١٢ ؛ الفرق بين العرب والروم من ناحية التتوح — ترجمة الدواوين إلى البرية ٢١٣ ، كلمة نحو وما براد منها ٢١٤ ، أصل كلمة نحو وتطور معناها ٢١٧ ، المنهج في معرفة الواضع الأول للنحو ٢١٩ ، ما هو اللحن الأول في بناء النحو العربى ٢٢٨ ، مناقشة الروايات التى تنسب وضع النحو إلى أبى الأسود ٢٤٣ ، اتصال أبى الأسود باللغة السريانية وبعلمائها ٢٥٠ المراجع . التصويب .

سبح الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ عام ونصف عام تقريباً ظهرت الطبعة الاولى من كتابنا عن العراق وتاريخ حضارته : ولم يكن ذلك في الواقع سوى خطوة أولى ، ولكنها ضرورية جداً لدراسة الحضارة الإسلامية ؛ يراى أن بيئة العراق تعتبر أهم بيئة بالنسبة لهذه الحضارة فقد احتضنتها منذ أيامها الأولى وغذتها بثمار حضارات تركت فيها منذ آلاف السنين ؛ وبقيت تمددنا بنتائج عقليات أجنبية تفد إليها من الشرق طوراً ومن الغرب طوراً آخر ؛ وليس هناك من سبيل لدراسة الحضارة الإسلامية دراسة عميقة ، وفهمها فهماً صحيحاً إلا إذا درست أصولها وبيئاتها وعرفت مصادرها ومدى ما يمكن أن يتصور من تبادل وامتزاج بين العقلية العربية والعقليات الأجنبية .

واقدر قنا بهذه الخطوة في ذلك الكتاب الذي أشرنا إليه بمنسذ سطور وحرصنا على أن نبين فيه أكثر من مرة أن هدفنا من تأليفه إنما هو التمهيد لدراسة الحضارة الإسلامية في مختلف مظاهرها على أسس علمية صحيحة وفق مناهج البحث الحديث ، فينبغى منذ الآن ألا يكتفى بعرض تلك الحضارة الإسلامية عرضاً عاماً أو وصفها وصفاً شاملاً ، حينئذ العلماء والمؤلفين في الشرق ، سواء منهم القدماء والمحدثون ؛ وإنما ينبغى أن تدرس تلك الحضارة دراسة جديدة فتحلل عناصرها ، ويرد ما يمكن أن يرد منها إلى أصوله القديمة ومنابعه الأولى ؛ وعلى ضوء هذه الاعتبارات ينبغى

أن تتجه دراساتنا للحضارة الإسلامية وجهة تمكثنا من فهم — لم كانت الحضارة الإسلامية هكذا ؟ — بعد أن فهمنا — كيف كانت ؟ ومدى ما وصلت إليه من نمو واتساع — .

ولما كانت هذه الأسس هي رائدنا ، فقد اعتزمنا ، بمؤلفنا اليوم ، أن نتبع أثبتنه الأولى في هذا البناء الشاخ وأن نرسي إحدى قواعد بعد أن مبدئنا له يبحثنا عن العراق وحضارته . وهذه هي مرحلة ضرورية لدراسة الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها ؛ فحضارة الشعوب تتكون ثم تمضي عليها قرون والناس منكبون عليها يقتفون آثارها ، وأخيراً يأتي عهد يبذل فيه العلماء وأصحاب الفكر يحللون تلك الحضارة ويفهمونها مع تعليل مظاهرها وبحث أصولها ومقارنة مسائلها بغيرها مما سبقها أو عاصرهما من حضارات ، وبهذا النظام قد درست الحضارة اليونانية ومن بعدها الحضارة اللاتينية .

وقد يتساءل القراء عن السبب الذي جعلنا نتخير البحر من بين سائر العلوم الإسلامية الأولى ليكون موضوعاً للدرس ، بينما غيره لم يكن أبسط منه شأنًا ولا أقل منه خطراً ؛ ولكم سيجدون الجواب عن ذلك مفصلاً في ثنايا أبواب هذا الكتاب وفصوله ؛ ومع ذلك فإنا نستطيع أن نلخصها فيما يلي حرصاً على مصلحة القراء وشاقة أن تتوزع أفكارهم قبل أن يسعفهم الوقت وتواتيهم الفرصة لفهم كل مسألة تعرض لهم دون إهمال ولا إبطاء .

معروف أن العلوم الإسلامية الأولى عديدة ؛ منها علم الفقه ، وعلم الحديث وعلم الرواية ، وعلم اللغة ، وعلم التفسير وعلم القراءات ، وعلم النحو ؛ ومعروف كذلك أن الظروف التي نشأت فيها تلك العلوم تكاد تكون واحدة . والأسباب التي دعت إلى نشأتها لا تكاد تختلف بالنسبة لعلم عنها بالنسبة لعلم آخر . ولكن النحو يمتاز عن غيره من العلوم الإسلامية

الأخرى بأشياء ، منها نضوجه المبكر ووصوله سريعاً إلى مرحلة النكاح . بما
لفت نظر العلماء حديثاً وجعلهم يفيضون في القول بشأنه ؛ ومنها الأثر
الإجنبي الواضح فيه منذ الفشاة والذي لازمه في عمر نضوجه وإكتماله
ملازمة كادت تخرج به عن موضوعه وتتجاوز حدوده ورسومه ؛ ولولا
هائشاً حوله من علوم استمل كل منها بميدان من ميادين الأبحاث اللغوية
المختلفة . كعلم المعاني ، والبيان ، والبديع ، وكعلم فقه اللغة بمعناه القديم ،
نقول لولا نشأة هذه العلوم بجانب النحو العربي . وتخفيفها بعض العبء عنه ،
ولولا ما اتصفت به عقلية المؤلفين القدماء من إجلال أساتذتهم السابقين ،
واحترام تراثهم العلمي نشأت ، فيما نعتقد ، ضوابط النحو وقواعده ،
ولضاعت معالمه أو كادت تضيع في ثنايا هذه المعارف اللغوية الواسعة التي
تآزر على جمعها وتدوينها نخبة من رواة اللغة ، وعدد غفير من علماءها ،
ولا أصبح النحو العربي موسوعة ضخمة تضم بين مجلداتها كثيراً من الآثار
اللغوية ، والدينية ، والعلمية ، والأدبية ؛ ولم يكن ذلك ، فيما نظن ، سوى
نتيجة لآثر العقلية الأجنبية ، وعمادياً من جانب علماء العربية في تتبع هذا
الآثر واستغلاله إلى حد بعيد وليس كتاب سيبويه الذي هو بين أيدينا الآن
والذي هو صورة مصغرة من تلك الموسوعة الضخمة إلا إيذاناً بهذا
الاتجاه . كل هذا جعلنا نوجه ههنا أول مانوجه إلى دراسة النحو العربي
دراسة تحليلية على ضوء ما قدمناه من دراسة لبيئة العراق وما توالى عليها
من حضارات . هذا وهناك عامل آخر قد حفزنا إلى الإسراع بهذا المؤلف
وإن لم يكن داخلياً في طبيعة البحث ولا مرتباً عليه أحد الأسباب المنطقية
في تأليفه ، ذلك هو ما قدمه لنا معهد الدراسات العليا من فرص مواتية وما
لمسناه في طلابه من شوق إلى المعرفة ورغبة في الاستزادة منها ، فلقد
درسنا معهم هذا الموضوع في خلال العام الدراسي الحالي ونشهد الله أن

ما عهدناه فيهم من سماع للقول ، وقبول للفهم ، واستجابة روحية وعقلية لما
كنا نبديه من آراء ، ونعرضه من نظريات كانت من أهم الدوافع على أن
نمضي قدما في التأليف دون تردد ولا إبطاء .

وموضوع درس الحضارة الإسلامية ، كما يرى القراء ، واسع طويل ،
وهو في حاجة إلى تضافر في القوي وتعاون في التفكير وتأزر في الإنتاج ؛
وليس من السهل أن ينهض بهذا العبء شخص وحده ، وإذن فليس لنا
أن نزعم الاستئثار به بالرغم من هذا التمهيد الذي قمنا به في دراسة بيئة
العراق وكلفنا من الاطلاع والبحث والعناء جهداً لا يكاد يطاق والله نسأل
أن يلمنا الرشيد في القول والسداد في العمل والتوفيق في الأداء .

حسن عونه

الإسكندرية في ٣١/٧/١٩٥٢م

اللغة

النقط الاساسية

ما هي؟ كيف تنشأ؟ أشهر اللغات، أسبق

اللغات، ما هي اللغة العربية؟

اللغة

هي أداة من أدوات التعبير والتفاهم في المجتمعات الإنسانية ، بل هي أهم تلك الأدوات على الإطلاق ، يمكن بواسطتها أن نشرح حاجياتنا ، ونعبر عن رغباتنا ، ونبين للآخرين إحساننا وشعورنا . واللغة بهذا المعنى ضرورة اجتماعية ، فلا يمكن لمجتمع ما أن يكون له وحدة وكيان بدون هذه الأداة تربط وحدته وتؤلف بين أفرادها ، وتجمع بشتات أغراضه وأهدافه .

نشأة اللغة

واللغة أياً كان نوعها تنشأ مع المجتمع الإنساني ، فهي عنصر أساسي من عناصر تكوينه ، وأداة فعالة من أدوات تطوره ونموه ورفاهيه .

وفي كل طور من أطوار هذا المجتمع تعتبر اللغة مرآة صافية تنعكس عليها حياة ذلك المجتمع ، ليرى من خلالها عقليته وإحسانه وتفكيره ودرجته من الثقافة والتدين . ولهذا فقد اتجه في العصور الحديثة مجهود كثير من العلماء في الغرب أولاً ، وفي الشرق أخيراً إلى دراسة اللغات المختلفة في مهدها وفي عصور نموها ، ليتفهموا على ضوءها حالة الشعوب في طفولتها ويدركوا منها حركة التطور العقلي في تلك الشعوب ، بل هي دراسة لتاريخ الشعوب إن أعوز المؤرخين وجود الوثائق التاريخية .

وليس هذه المحاولات التي نراها من وقت لآخر بين كثير من العلماء الذين يذهبون الى الشعوب البدائية في أفريقيا وفي آسيا وفي أمريكا الجنوبية لملاحظة لغات هذه الشعوب وما تشتمل عليه من مقاطع وأصوات وما تدل عليه من معاني وأغراض ، ثم لمعرفة مبلغ ما هنالك من تطابق بين هذه اللغات والبيئات التي نشأت فيها ، نقول ان هذه المحاولات ليست إلا نوعاً من تلك الدراسات اللغوية الواسعة . والكلام على نشأة اللغة يحتاج إلى فصل طويل فقد شغل المفكرين قديماً وكان موضع نقاش وجدل يختلفان باختلاف العصور شدة وعنفاً ، ولا نزال نجد حول هذا الموضوع في العصور الحديثة وعلى ضوء العلوم التجريبية والملاحظات النفسية نظريات عدة . ولسنا نستطيع في هذا البحث أن نستعرض بالتفصيل ما اتجه إليه تفكير القدماء ولا ما اهدت اليه تجارب المحدثين ، فإن ذلك يخرج بنا عن الموضوع الذي رسمنا له الخطة ، وما نظن أن بحثنا في حاجة إلى مثل هذه الإفاضة وإنما يكفي منا أن نعرض لرموس المسائل ونبين أهم الأفكار والآراء حتى يكون القارئ لبحثنا هذا على بينة من الأسس العامة التي تستلزمها طبيعة الكلام عن النحو ونشأته وتحليله ومقارنته ، تاركين التفصيل

فى ذلك لعلماء الأبحاث اللغوية الخالصة ولمراجعها المتعددة الواسعة . وعلى
هذا فلتتحدث أولاً عن وجهة نظر القدماء بالنسبة لنظرية اللغة ونشأتها ؛
ثانياً عن وجهة نظر المحدثين .

لم نجد فيما قرأنا من أبحاث الغربيين عن اللغات ونشأتها وتطورها من
زعم أن اللغة توقيفية ، أى تنزل من السماء أو يوحى بها الله سوى
أفلاطون (١)

ولهذا الاتجاه من ذلك الفيلسوف ما يبرره ، فإن يئته التى نشأ فيها ،
ودراساته التى اهتم بها ، وأساتذته الذين سموا به إلى كثير من المعاني
الروحية ، وعصره الذى امتاز باحترام العقيدة والأوامر الدينية ، كل ذلك

(١) أفلاطون هو ذلك الفيلسوف اليونانى الكبير ذو العقيلة الجبارة والمؤلفات
المديدة الهامة . ولد فى سنة ٤٢٩ ، مات فى سنة ٣٤٧ ق.م ، أى أنه عاش
نحو من اثنين وثمانين سنة . كان وهو فى سن العشرين تقريباً تلميذاً لسقراط ولم
يتلمذ به بعد هذا السن على أستاذ سواه وصار أستاذاً لأرسطو . وتمايز مؤلفاته
بمطريقتها التى تكتب بها : إذ كانت تكتب على شكل حوار ، والتحدث فيها سقراط .
أهم تلك المؤلفات : كريتون *Criton* ، فيدوت *Phédon* ، فيدز *Phédre* ،
جورجياس *Gorgias* ، بانكيه (الوليمة) *lo Banquet* ، الجمهورية *la République*
والقوانين *les lois* . وليس من السهل أن نمضى فى تعداد مؤلفاته كلها ولا فى تحليل
هذه المؤلفات ؛ وحسبنا أن نعلم أن عدد ما ألّفه من المحاورات قد بلغ ٤٣ ثلاثة
وأربعين حواراً ؛ وله بعد ذلك نحو من ثلاث عشرة رسالة على شكل خطابات ؛
وله فوق هذا العتد: الضخم مجموعة من الأفكار مدونة بلا نظام ولا ترتيب ؛ وفيما
يختص بهذه الأفكار وبذلك الرسائل فلم يثبت بصفة قاطعة أنها له ؛ وقد استطاع
النقاد المحدثون أن يثبتوا له فقط من هذه المحاورات ما يقرب من ثلاثين محاوره.

كان حافزاً لتفكير إفلاطون ومهداً لطريقته في مواجهة المسائل الفكرية وحل ما يمكن أن يعترضه من النظريات العالية . كانت الديانة والآلهة تحتل المكان الأسمى ، وكان ميدان التفكير الإنساني ذا أفق محدود ، ودائرة تجاربه العلمية لا تكاد تتجاوز البيئة التي يعيش فيها ، ولذا فكان سهلاً على الإنسان مهما كانت مكانته العلمية ودرجته في سمو العقل وسعة التفكير إذ ذاك أن يعزو مالا يجد وسيلة لفهمه أو ما يسمو فوق مداركه إلى الطبيعة ، إلى القوة الخالقة ، إلى الآلهة . هذا والدارس لتاريخ الأديان والملم بطبيعة المجتمعات التي نشأت فيها تلك الأديان المختلفة يستطيع أن يلبس تماماً أن تقدم العقل البشري كان في كثير من الأحيان على حساب الأديان ، بمعنى أن العقل البشري كلما اتسعت آفاقه فأدرك بوسائله الخاصة وبتجاربه المختلفة حقيقة من الحقائق التي كانت عسيرة الفهم غامضة الإدراك فيما مضى ، نقول كلما أدرك حقيقة من هذا النوع من الحقائق فإنها تخرج من حظيرة الدين ولا تصبح سرّاً من أسرارهِ ، ولا معجزة من معجزاته وتقع في محيط المدركات العقلية ، وهكذا دواليك يضيق أفق العوالم الإلهية كلما اتسعت ميادين الإدراكات العقلية . أما بقية علماء الغرب فهم بمجموعهم فيما نعتقد على أنها وضعية أي من وضع الإنسان ، ومن وحي البيئة ، ومستلزمات الظروف . ونظرة الغربيين في هذا نظرة واقعية كنظرتهم إلى أغلب المسائل العلمية والظواهر الاجتماعية . ولذا فقد غلبت عليهم النظرة المادية .

ونحکم فیہم وسادہ بینہم المذہب المادی . وقد قال بذلك شبشرون^(١)

« شبشرون : هو أكبر خطيب روماني بلا منازع ، ولد في مدينة أرينوم واسمها الآن أرينو . وذلك في سنة ١٠٦ قبل الميلاد . برع منذ شبابه في صناعة القول فاستطاع أن يلفت إليه الانظار ، وتقلب في مناصب الدولة حتى وصل إلى أخطرها ، وهو منصب القنصل . وقد لعب أدواراً هامة في سياسة روما ، فقد عرف بميله إلى نظام الحكم الجمهوري ولذا فإنه أنقذ الجمهورية من مؤامرة ديكتاتورية خطيرة قام بها كاتيلينا ، وذلك بعد أن كشف شبشرون أمرها واستطاع أن يقدم للحكمة أنصار ذلك الديكتاتور فيحكم بإعدامه . وبعد ذلك استحق شبشرون من الشعب الروماني لقب (أبو الوطن) .

وقد ناصر شبشرون قيصر ما دام يحكم على النظام الجمهوري ، وأظهر شيئاً من التراخي حينما ظهر قيصر بمظهر الديكتاتور . وبعد قيصر عمل على معاونة أوكتافيوس ، ولكن الخصومة بينه وبين أنطونيوس قد أوردته موارد الهلاك : فبعد ما تخرجت الأمور السياسية في روما ، وبالرغم من اعتزاله السياسة فقد هرب شبشرون من روما ليختبئ في القرى . ولكن أنطونيوس وهو المحقق منه ومن لسانه بعث إليه من أدركوه في الطريق وقتلوه غيلة في سنة ٤٣ ق.م .

كان شبشرون إذن خطيباً بارعاً ، ومحامياً ماهراً ، وسياسياً مخفكاً وفوق ذلك فقد كان عالماً كبيراً ومؤلفاً عظيماً : ترجم بعض الكتب عن اليونانية ، وألف في الخطابة ، وفي اللغة ، وفي الدين ، وفي الفلسفة . وما هي مؤلفاته لا تزال معتبرة من أهم المراجع في هذه الميادين العلمية . وينبغي أن نقرر هنا أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه

= د تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٤٦ ج ١ هو الذى يروى عنه هذا الرأى فى نظرية اللغة ولكنه كدأبه لا يذكر نصاً ولا مرجعاً وبالرغم من اطلاعتنا الكثير على ما كتبه شيشرون فإننا لم نجد نصاً صريحاً ومع ذلك فإن اتجاهه فى مجموع الآراء ، وروحه فى التأليف ، ومنزعه فى فهم اللغة يؤيد ما نسبته اليه الرافعى .

(١) دوديور الصقلي : هو مؤرخ يونانى كبير عاش فى عصر الامبراطور

أغسطس

ربما كان أكثر دقة من هيرودوت ، وهو لا يقل عنه شهرة . والذى عرف عنه هو كتابه التاريخى العظيم الذى يعتبر سجلاً لتاريخ العالم القديم حتى سنة ٦٠ ق م .

وينقسم كتابه فى التاريخ إلى ثلاثة أقسام مرتبة على حسب الاحداث التاريخية : القسم الأول يتناول تاريخ الشعوب المعروفة قبل حرب طروادة التى تنفى بها هوميروس فى إلياذته ؛ وهذا القسم يشتمل على ستة كتب عشر منها على خمسة فقط ؛ ثلاثة من هذه الكتب الستة تقص تاريخ اليونان فى خلال تلك العصور السابقة على حرب طرواده ، وثلاثة أخرى تتناول سائر الشعوب . القسم الثانى يتناول تاريخ الشعوب منذ حرب طرواده حتى وفاة الإسكندر الأكبر ؛ وهذا القسم يحتوى على أحد عشر كتاباً لم يهتد الباحثون إلا على سبعة كتب منها . أما القسم الثالث فهو يتناول أحداث العالم التاريخية منذ وفاة الاسكندر حتى غزو قيصر لبلاد الغال ؛ وهذا القسم يشتمل على ثلاثة وعشرين كتاباً لم يوجد منها سوى ثلاثة كتب فقط . =

ومنذ ذلك الحين لم نسمع ولم نقرأ فيما قرأناه ، رأياً يخالف رأى
هذين العالمين فكأنهما بذلك قد قضيا على فكرة التوقف بالنسبة لما كان
معروفاً عن اللغة . ومهدا السبيل للبحث الدأى المبني على ملاحظات نفسية
وتجريبية ، فتمد وجدنا من بعد ذلك علماء تصدوا للأبحاث اللغوية وأفاضوا
في الكلام عنها ، ولمكنهم لم يشيروا ، ولم يفهم عنهم ، ولو من
طريق خفي ، أنهم من ذئابة نظرية التوقف أو من التقاتلين بها ؛ نذكر
من هؤلاء العلماء فارون Farron ^(١) العالم اللاتيني الغزير المادة والواسع

== وتذكر دنا أيضاً ما ذكرناه منذ قليل من أننا لم نقف بأنفسنا على
نص صريح لديونور في توقيف اللغة ولكن الذى ينسب إليه هذا الرأى
إنما هو الاستاذ الرافعى في نفس الكتاب المتقدم ؛ ومع هذا فإن
روحه في التأليف وتفكيره في مواجهة المسائل تجعلنا نطمئن إلى ما نسب
إليه .

(١) كان فارون دائرة معارف عصره ، عرف بالأدب والمثابة ؛ واشتهر
بالبحث الواسع والاطلاع الغزير إلى درجة لا يتصور وقد مات بعد اغتيال
شيثرون ستة عشر عاماً كانت الجمهورية الرومانية في طريقها إلى الانقلاب
والحكم الامبراطورى في سبيل التأسيس . ولقد استغل هذا العالم اللاتيني
معارفه الواسعة واطلاعه الكثير خلف وراءه ثروة طائلة من المؤلفات ،
وصلت إلى أربعة وسبعين مؤلفاً ؛ ولسوء الحظ لم يوجد من هذه الثروة
العلية حتى الآن سوى مؤلفين ؛ أحدهما د عن اللغة اللاتينية . ؛ وحتى
هذا المؤلف قد وصل مبتوراً ؛ إذ لم يكتشف منه غير ستة كتب ، وهى من ==

الاطلاع . توفي هذا العالم في سنة ٢٧ قبل الميلاد ، وكان بما تركه كتاب
عن اللغة اللاتينية ، قد كتب إهداءؤه إلى شيشرون ؛ وفيما كتبه عن اللغة
في هذا الكتاب يفهم منه أن اللغة كائن اجتماعي يتطور بتطور المجتمع ،
ولا دخل لأي قوة خفية في نشأته أو تنميته

ونذكر كذلك من هؤلاء العلماء - كاتيليان - *Quintilian*
الذي عاش قطعاً إلى ما بعد سنة ٩٦ بعد الميلاد وامتاز دون معاصريه

الكتاب الخامس إلى الكتاب العاشر بينا المؤلف كله مكان يحتوي على
خمس وعشرين كتاباً ؛ والآخرة عن الزراعة ، . والذي يعنينا بالذات هنا
هو مؤلفه الأول ، وعلى الأخص البحث الذي كتبه عن أصل الكلمات
في اللغة اللاتينية ؛ في هذا البحث تناول فارون ما تناول من مفردات
اللغة بطريقة طبيعية معقولة لا دخل لمسألة التوقيف فيها .

« كاتيليان *Quintilian* : هو من الإسبانيين الذين امتزجوا بالدولة الرومانية
عقلاً وروحاً ولغة وتفكيراً . ولد في مدينة إسبانية اسمها كالاجوريس
Calagurris فيما بين سنة ٣٠ و ٣٥ بعد الميلاد ؛ ثم جاء إلى روما
شأن كثير من الإسبانيين الذين يدرسون في روما ؛ وكانت أهم الدراسة
إذ ذاك هي دراسة اللغة والفلسفة ، بدأ مبكراً في ميدان المحاماة ولكنه
لم يستمر فيها طويلاً فاعتزلها وأنشأ مدرسة لغوية غايتها الكبرى تخرج
الخطيب الكامل ، وقد اتخذ مثله الأعلى شيشرون ، ولهذا فقد بذل عنايته
في تدريس اللغة بما فيها من أساليب وبيان ، وهو في تدريسه ، وفي
تأليفه يتحدث عن اللغة كظاهرة اجتماعية تخضع لظروف المجتمع إلى حد
بعيد ، ولم يؤثر عنه مطلقاً أن اللغة مصدرها وحى أو توقيف .

بدراساته اللغوية وأبحاثه في أساليبها ، وتعليقه لمظاهر رقيها وقوتها ولما ظهر
ضعفها وانحطاطها ؛ وهو في خلال ذلك كله يفهم اللغة ويصورها كما صورها
من قبله شيشرون وفارون .

وهكذا تغيرت نظرة علماء الغرب إلى اللغة واستمروا يفهمونها كظاهرة
اجتماعية تنشأ مع المجتمع وتشاركه في حياته رقياً وضعفاً ؛ واستمرت هذه
النظرة سائدة خلال العصور الوسطى بالرغم مما اكتسبته اللغة اللاتينية
القديمة على يد الكنيسة المسيحية ورجالها من معنى القداسة ومظاهر الإجلال .
وإذا ما وصلنا إلى العصور الحديثة فإنا نجد القوى تنضاف في الغرب
وملكات العلماء تتآزر على تحليل اللغة كظاهرة اجتماعية ودراستها عند
الأطفال ، وفي البيئات البدائية ، ثم تحليل نشأتها وتطورها وما يلابس ذلك
كله من ظواهر ونتائج . وسنرجى الكلام قليلاً عن هذه النظرة الحديثة
لكي نلم أولاً بوجهة نظر العلماء الشرقيين بالنسبة لنشأة اللغة .

أما في الشرق فإنا نجد أنفسنا أمام فريتين من العلماء : فريق يوافق
الغرب في وجهة نظره ومنهم أبو علي الفارسي (١) ،

(١) هكذا يذكر الرافعي في كتابه (تاريخ أداب اللغة العربية) ج ١
صفحة ٤٦ . ولكن ابن سيده في كتابه المختص ج ١ صفحة ٤ يذكر أن
أبا علي الحسن ابن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي يراها
من عند الله ؛ وكان محتج بذلك بقوله تعالى ووعلم آدم الاسماء كلها = .

وتليذه ابن جني^(١) وبعض المعتزلة . والفريق الآخر يرى أن اللغة توقيفية من خلق الله ، ولا إرادة للإنسان فيها ، ويستدل هؤلاء على رأيهم بما فهموه من بعض النصوص الدينية . ولعل أصرحها في ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبّحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

== والفارسي هذا هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي ؛ يذكر ابن النديم في كتابه - الفهرست - صفحة ٩٥ طبعة سنة ١٣٤٨ هـ بالمطبعة الرحمانية بمصر ، أن أبا علي الفارس قد توفي قبل السبعين وثلاثمائة ، وأن له من الكتب - كتاب الحجة ، كتاب التذكرة ، كتاب أبيات الأعراب ، كتاب شرح أبيات الأيضاح ، كتاب مختصر عوامل الأعراب ، المسائل المصلحة يروىها عن الزجاج وتعرف بالإغفال . ويروى أنه توفي سنة ٣٧٧ . وقد اعتمد هذه الرواية الاستاذ مصطفى الرافعي ج ١ صفحة ٢٢٦

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جني ؛ كان مولده بالموصل قبل عام ٣٠٠ هـ وهو من أصل رومي ، إذ أن والده كان مملوكا روميا لسليمان بن قنذ بن أحمد الأزدي . كان من أشهر تلاميذ أبي علي الفارس ومن أكثرهم مصاحبة له . إذ أنه بقي في صحبته أربعين عاما ؛ ويروى ياقوت أنه ولي منصب كاتب الإنشاء في عضد الدولة وفي بلاط خلفه ؛ وفي أثناء قيامه بهذا العيشل كان ينتقل ما بين حلب وفارس ، مما سهل عليه التعرف بالمتنبي ومصادقته ؛ ولهذا فقد كان يناظره في النحو ويناقشه في الأديب ؛ ولعل من نتيجة ذلك أيضاً أنه كتب شرحاً لديوان المتنبي . وقد عمر ابن جني ==

قال يا آدم أنبتهم بأسمائهم ، فلبس أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني
أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، ^(١)

== طويلاً حتى أشرف على المائة وربما يكون قد تجاوزها ، إذ أن وفاته
كانت في سنة ٢٩٢ هـ . واشتهر ابن جني بمعرفة بالنحو وبكل ما يتعلق
بالصرف حتى أصبح في ذلك حجة وثقة . ولم يعرف لابن جني تحت
لأحدى المدرستين النجويتين ، مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، شأن غيره
من العلماء المعاصرين ، بل على العكس من ذلك كان واضح الشيعية
العلية فكان يتخير لنفسه مذهباً وسطاً بين المدرستين . وأهم مؤلفاته كتابان :
أحدهما (سر الصناعة وأسرار البلاغة) والآخر (كتاب الخصائص) في
علم أصول العربية . والآخر منهما يعزينا بالذات ؛ إذ انه يلقي ضوءاً غليظاً
رأي صاحبه في نظرية التوقيف في اللغة . وهو وان لم يبد رأيه بصراحة
في أن اللغة وضعية إلا أن المطلع على ما ذكره في أول الكتاب لا يتردد
في فهم موقفه من هذه النظرية فهو يميل بوضوح إلى القول بوضعها . . .
^(٢) إن كتب التفسير لهذه الآية تلقى ضوءاً على نظرية اللغة التي نحن
بصددها فهي تذكر المذهبين وتناقش آراء كل فريق ، ولعل أهم هذه الكتب
هو تفسير الفخر الرازي . وهاهنا نص ما يذكروه صاحب هذا التفسير ج ١
ص ٢٥٧ وما يليها

((المسألة الأولى ، : قال الأشعري والجبائي . والكوفي . اللغات كلها
توقيفية بمعنى أن الله تعالى خلق علمها ضرورياً بتلك الألفاظ وتلك المعاني
وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني واحتجوا عليه بقوله تعالى (وعلم
آدم الأسماء كلها) والكلام على التمسك بهذه الآية سؤالاً وجواباً ذكرناه في
أصول الفقه وقال أبو هاشم إنه لا بد من تقدم لغة اصطلاحية واحتج على ==

== أنه لابد وأن يكون الوضع مسبقاً بالاصطلاح بأمور (أحدها) أنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع هذه اللفظة لهذا المعنى لكان ذلك العلم إما أن يحصل للعاقل أو لغير العاقل ؛ لا جائز أن يحصل للعاقل لأنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى لصار صفة الله تعالى معلومة بالضرورة مع أن ذاته معلومة بالاستدلال وذلك محال ؛ ولا جائز أن يحصل لغير العاقل لأنه يبعد في العقول أن يحصل العلم بهذه اللغات مع ما فيها من الحكم العجيبة لغير العاقل . فثبت أن القول بالترقيف فاسد .

(وثانيها) أنه تعالى خاطب الملائكة ؛ وذلك يوجب تقدم لغة على ذلك التكلم .

(وثالثها) أن قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » يقتضي إضافة التعليم إلى الأسماء ؛ وذلك يقتضي في تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم .

(ورابعها) أن آدم عليه السلام لما تحدى الملائكة بعلم الأسماء ، فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقاً في تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات ، وإلا لم يحصل العلم بصدقه . وذلك يقتضي أن يكون وضع تلك الأسماء لتلك المسميات متقدماً على ذلك التعليم .

والجواب عن الأول : لم لا يجوز أن يقال يخلق العلم الضروري بأن واضعاً وضع هذه الأسماء لهذه المسميات من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله تعالى أو الناس . وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة ==

== بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل ، سلبنا أنه تعالى ما خفى بهذا العلم في العاقل ، فلم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه في غير العاقل ، والتعويل على الاستبعاد في هذا المقام مستبعد .

وعن الثاني : لم لا يجوز أن يقال خاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة وغيرها .

وعن الثالث : لا شك أن إرادة الله تعالى وضع تلك الانفاظ لتلك المعاني سابقة على التعليم ، فكفى ذلك في إضافة التعليم إلى الأسماء .

وعن الرابع : ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى - والله تعالى أعلم .

ثم يمضى صاحب هذا التفسير في مناقشة بقية الآراء حتى يتسول :
(القول الثاني) وهو المشهور ، أن المراد أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التي يتكلم بها ولد آدم اليوم من العربية والفارسية والرومية وغيرها . وكان ولد آدم عليه السلام يتكلمون بهذه اللغات ، فلما مات آدم وتفرق ولده في نواحي العالم تكلم كل واحد منهم بلغة معينة من تلك اللغات ، فقلب عليه ذلك اللسان . فلما طالت المدة ، ومات منهم قرن بعد قرن نسوا سائر اللغات . فهذا هو السبب في تغير الألسنة في ولد آدم عليه السلام . قال أهل المعاني قوله : وعلم آدم الأسماء ، لابد فيه من إضمار فيجتمل أن يكون المراد بعلم آدم أسماء المسميات ، ويحتمل أن يكون المراد بعلم آدم مسميات الأسماء . قالوا : ليكن الأول أولى لقوله : أنبئوني بأسماء هؤلاء ، وقوله : فبما أنبأهم بأسمائهم ، ولم يقل أنبئوني هؤلاء ، وأنبأهم بهم . فان قيل فدا عليه الله تعالى لأنواع جميع ==

== المسميات ، وكان في المسميات مالا يكون عاقلا فلم قال عرضهم ؟ ولم يقل عرضها ؟ قلنا لأنه لما كان في جملتها الملائكة والإنس والجن وهم العقلاء ، فذاب الأكل ، لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص .
كلما غلبوا)) .

لقد حاولنا في نقل هذا النص الطويل بما فيه من فلسفة كلامية ، وجدل على أن نقدم للقارئ صورة عن مبلغ مالمدي علماء الإسلام من بخلاف في مسألة وضع اللغة ، وتوقيفها ؛ ثم لنرى كيف تشعبت أفكارهم حول مسألة اللغة ، وكيف استمرت فكرة التوقيف معروفة عندهم ولها أنصارها ومشايروها حتى أواخر العصور الوسطى ، بل إننا نجد من يتميل إلينا ويؤيدها ولو من طريق غير مباشر في العصور الحديثة ؛ من ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه ، تاريخ آداب اللغة العربية ؛ فإنه يعزو في كثير من مواقفه جمال اللغة العربية ، وحن تزيكها ، وبلاغة تعبيرها ؛ وسمو أساليبها إلى صفات مستمدة من قوة فوق مستوى البشر ؛ إذ أنه لا يترف بوجود لغة إنسانية أخرى تسمو إلى مكانة اللغة العربية في هذه المزايا ؛ فهي في نظره معجزة اللغات لينزل بأسلوبها القرآن معجز البشر ؛ وليست هذه الفكرة عند الأستاذ الرافعي إلا من تراث القدماء ، ومن كثرة ما ذكره في ذلك . . .

وشبهه بصنيع المفسرين ما ذكره السيوطي في كتابه المزهر ؛ فإنه لخص آراء القائلين بتوقيف اللغة ؛ وكذلك آراء القائلين بوضعها ؛ ثم ناقش إلى جد ما هذه الآراء ، ولكنه — شأنه في أغلب المسائل العلمية — لم يتخذ لنفسه موقفاً معيناً . =

== وجدير بالذكر هنا ، وقد أتينا على كثير من علماء العربية في نظرية توقيف اللغة ؛ أن نشير بكلمة إلى رأى عالم واسع الإطلاع : وحجة بحقق ، ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست الذى يعتبر أجل دائرة معارف عربية قديمة قد وصلت إلينا .

لايتعرض ابن النديم صراحة إلى نظرية التوقيف والوضع في اللغة ؛ ولكنه يتناول بالبخط أصل اللغة العربية ؛ فيروى آراء من سبقه من العلماء في هذه المسألة ويشهد لذلك بما سمعه أو رآه من آثار ؛ ثم في أثناء هذا البحث الطريف يذكر كلاما يطعن هو نفسه اليه ويفهم القارىء منه أنه يرى أن اللغة وضعية ، وأنها ظاهرة اجتماعية تحيا بحياة المجتمع وتتطور بتطوره وتشكل بشكل البيئة التي هي فيها ؛ وهو رأى جدير بالنظر حتماً إذا عرف الزمن الذى قبل قومه ؛ إذ أنه يتفق إلى حد كبير مع أحدث الآراء التي تقال في اللغة وفي أصلها وفي تطورها . وكل ما يمكن أن يلاحظ على ابن النديم فيما ذكره هو ماقاله من أن اللغة العربية قد استمرت في نموها وريقها حتى نزل القرآن فوقفت عند هذا الحد ولم تتسع ؛ وهذا هو نص ابن النديم نضجه أمام أعين القراء ليروا بأنفسهم إلى أى حد يتمشى مع المحدثين من علماء اللغات :

يقول ابن النديم في كتابه الفهرست ص ٧ بعد ذكر كثير من الآراء في أصل الكتابة العربية : . . . ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض . . . ويصنعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات . وظهورها . فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح في العدنانية . . . وكثر هذا بعد معد بن عدنان ، ولكل قبيلة من قبائل . . .

= العرب لغة تنفرد بها وتتخذ عنها وقد اشتركوا في الأصل . قال : وإن
الزيادة في اللغة امتنع العرب منها بعد بعث النبي ﷺ لأجل القرآن ،

وهذه الملاحظة التي أشرنا إليها منذ قليل ، بالنسبة لرأى ابن النديم
في توقف اللغة عن الزيادة بعد بعث النبي ﷺ ، تدل على أن صاحب
الفهرست قد نظر إلى اللغة العربية نظرة ضيقة ؛ إذ أن اللغة لم تتوقف
في حقيقة الأمر إلا من ناحية أنها عملت على جمع القبائل العربية على تلك
اللهجة التي نزل بها القرآن ؛ أما فيما عدا هذا فإننا لا نستطيع أن نسايره
فيما يقول ؛ وكنا يعرف مبلغ ما أصابته اللغة العربية بعد الفتوح
الإسلامية من توسع وزيادة في مفرداتها ، وفي تراكيبها ، وفي أفكارها ،
وفي أخيلتها ، وفي صورها ، وفي أساليبها ؛ بل إن نموها ، بعد أن
اتسعت رقعة البلاد الناطقة بها ، في كل هذه النواحي كان أعمق أثراً ،
وأبعد مدبى من نموها قبل أن يبعث الرسول ﷺ

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ؛
اشتهر في اللغة وفي النحو ؛ وهو أحد تلاميذ مدرسة الكوفة النحوية ؛
توفي سنة ٣٩٥ هـ . وكان كثير الدأب لا يمل البحث ولا الدرس ؛ يدل
على ذلك كثرة تنقله بين المدن الكبيرة لهذا الغرض ؛ فقد أقام في قزوين ،
وفي مكة ، وفي بغداد ، وفي همدان ، وفي الري ؛ وقد ملأت شهرته
اللغوية والحلفية آفاق الدولة الإسلامية فاستدعاه نخر الدولة بن بويه إلى =

والاشعري^(١) ومن تبعه من علماء العرب ؛ ثم نجد صدى ذلك
أيضاً عند ابن سيدة صاحب المختصر^(٢)

== الرى ووكلي إليه تأديب ولده مجد الدولة أبي طالب .

كان شافعي المذهب ولكنه تحول عنه إلى المالكية أخيراً وكان شديد
التعصب للعرب ضد الفرس ؛ وقد بلغ من سمو خلقه ، وكرم طبعه ،
وسماحة نفسه أن وهب ما عليه من اللباس إلى الفقراء أكثر من
مرة ؛ ومن أشهر تلاميذه بديع الزمان ، والصاحب بن عباد .

ولابن فارس مؤلفات عديدة أهمها بالنسبة لموضوع بحثنا هذا هو
كتابه — الصحاح في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها — وقد طبع
في القاهرة سنة ١٩١٠ م .

^(١) ينقل هذا الرأى عن الاشعري الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في
كتابه — تاريخ آداب العرب — ج ١ . ص ٤٥ — ٤٦ .

^(٢) يقرض أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الاندلسي
المعروف بابن سيدة والمتوفى سنة ٤٥٩ هـ نظرية نشأة اللغة وما جاء فيها
من خلاف بين أصحاب مذهب التوقيف ، ومذهب الوضع ، ثم يناقش
أدلة كل فريق مناقشة هادئة منطقية ؛ وأخيراً يبدى رأيه صريحاً في أنه
يؤيد القائلين بالتوقيف :

يقول ابن سيدة في ص ٣ وما بعدها من الجزء الأول من كتابه ==

... ونحن لو تصورنا موقف هذا الفريق من العلماء ؛ وأبعنا النظر في رأيهم ؛ ثم تركنا جانباً ظواهر الأشياء ؛ ونفذنا إلى بواطنها ، وحللناها تحليلاً فلسفياً عميقاً ، لوجدنا أنهم لم يدينوا بهذا الرأي ويعتقدوا ذلك المذهب القائل بتوقيف اللغة ، بناء على هذه النصوص الدينية فقط ولكن لأن في نفوسهم ميلاً ونزوعاً إلى فكرة التوقيف بأوسع مظاهرها . فحشيت فيهم تبعاً لذلك فكرة الاستسلام ، ونما عندهم مذهب التواكل . وقد استطاعوا بذلك ، أو توهموا أنهم استطاعوا أن يتخلصوا من بعض المسائل العقلية الصعبة ، وأن يحلوا كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة .

== المخصص الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ييولاق سنة ١٣١٦ هـ :

« وقد اختلفوا في اللغة امتواطاً عليها أم ملهم إليها وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحى ولا توقيف ، إلا أن أبا علي الحسن بن أحمد ابن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي قال هي من عند الله واجتج بقوله سبحانه : « وعلم آدم الأسماء كلها » وهذا ليس باحتجاج قاطع وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم ... »

ثم ينقضي المؤلف في مناقشة هذا الرأي حتى يقول في ص ٦ : « ... »

وانضاف الى ذلك وارد الاخبار الماثورة بأنها من عند الله تبارك وتعالى

فقوى في أنفسنا اعتقاد كونها توقيفاً من الله تعالى وأنها وحى ،

ونتيجة كل هذا أن وجد في الشرق المذهب الروحي ، ونما عند الشرقيين كل ماله مباس بالمعاني الروحية .

والدارس لتاريخ الشرق ، والمتتبع لأنظمة المجتمع في الشعوب السامية على الخصوص يستطيع أن يلمح فيهم هذه النزعة الروحية ، وذلك الميل إلى الالتجاء إلى القوى الخفية ، إلى السماء ، إلى الآلهة ، في كل ما يعز عليهم إدراكه أو ما يحار العقل في فهمه . فكثير من أخلاقهم ، وعاداتهم ، بل وقوانينهم كان متأثراً إلى حد بعيد بهذه القوى المدبرة ، الخالقة ، وبذلك العوالم الخفية المجهولة ؛ وليس نظام التحكم الإلهي بصورة العنيدة إلا أثراً من آثار ذلك النزوع الروحي ، والاستسلام العقلي إلى ما تكشفه السماء ، ويصدر عن الآلهة ^(١) . وقد انتقل هذا النظام من الدولة البابلية إلى الدولة الآشورية وامتدت آثاره إلى سكان شبه الجزيرة العربية ؛ ولا يزال الآن نرى صوراً مختلفة منه في قبائل الببدو الضاريين في الصحراء الشرقية من أرض مصر . وتبع ذلك أيضاً ما كان معروفاً عند شعوب الشرق منذ القدم من إلقاء زمام كثير من

(١) لقد فصلنا الكلام عن نظرية التحكم الإلهي في كتابنا - العراق وما توالى عليه من حضارات - الطبعة الأولى ص ١٧ . وانظر أيضاً : قصة الحضارة - تأليف ول ديورانت - وترجمة الأستاذ محمد بدراش - الجزء الثاني - الشرق الأدنى - ص ٢٠٧ وما بعدها .

الأُمُور في نظام المجتمع إلى المعابد ورجال الدين ؛ فكان منهم الأطباء ، وكان منهم القضاة ، وكان منهم المدرسون ؛ وكان منهم العلماء ، وكان منهم المنجمون ؛ ولم يكن يرد لهم في أغلب الأحيان رأى ، بل لقد وصل من مكانتهم في المجتمع أن كانوا يملكون إرادتهم على رجال السلطنة الدنيوية ؛ فكانوا هم الذين يولون الملوك . كانت هذه الظواهر الاجتماعية من أهم ما لفت نظر الإغريق عند ما جاءوا يدرسون العلم والحكمة في الشرق ، ثم يدرسون تاريخه ، وأخلاقه ، وعاداته .

وكما تغافل الإغريق في معرفتهم بالشرق ، وزاد اختلاطهم بالشرقيين ، كانت تزداد دهشتهم من سمو السلطان الروحي واستثنائه بنفوذ أوسع ، وبسلطة أكبر إذا ما قورن بالسلطان المادي .

ولعل أقرب صيغة في مصطلحات الشعوب الحديثة لتصوير ذلك عند المجتمعات القديمة في الشرق هي : الدين مصدر السلطات ؛ كما يقال الآن الأمة مصدر السلطات ؛ بل إن ذلك الاصطلاح كان يحمل معنى أوسع وادق مما يحمله هذا الاصطلاح الحديث .

ولم تنقطع دهشة الإغريق ؛ بل انتقلت إلى الرومان فأتخذوا يدرسون الشرق على ضوء المعارف الإغريقية ؛ ثم اتصلوا مباشرة بالشرقيين وبدروا يفهمون ويحللون هذه المظاهر الروحية فكتبوا عن ذلك معجبين

--ورث الغرب الحديث عن أسلافه من اليونانيين والرومانيين هذه المعارف : ولاحظ بنفسه وجود أثر المبنى الروحي عند الشرقيين : فبدأ علماءه وباحثوه يفهمون نفسية الشرق ونزعتهم بالنسبة للأنظمة الاجتماعية ، واحكمهم اتجهوا في تعليمهم لكل ما يقفون عليه وجهة تخالف وجهة علماء اليونان وعلماء الروم .

وقد علل علماء الغرب هذه الظاهرة الاجتماعية في العالم الشرق بأن الشرق أرض الأديان ، ومهبط الوحي ومبعث الرسل والأنبياء .

وإن بينة هذا شأنها لخلق بها أن تكون مصبوغة بالصبغة الدينية ومتأثرة بالنزعات الدينية ؛ وقائمة على الأسس الدينية ؛ والذي عهد في كل الأديان ، وثنيها وسماويها ، هو الاهتمام العظيم بتربية الروح ، وغرس بذور الخضوع في صورة الاحترام والتقديس لكل ما هو خفي

(١) لقد تناول الكلام عن الديانة والآلهة وأثر ذلك في الأنظمة الاجتماعية في الشرق وبصفة خاصة في مصر كثير من الكتاب اللاتينيين مثل تاسيتوس ، وفيرجيليوس ، وجوفينال ؛ ولعل أهم من أفاض في ذلك هو شيشرون في مؤلفه -- عن طبيعة الآلهة -- الكتاب الأول -- الفصل السادس عشر والرابع والعشرين ، والسادس والثلاثين .

وبعيد عن العقل البشرى إدراكه .

: ومن شأن الاحترام والتقدير: في هذه الصورة. أن يقيدا العقل إلى حمد ما ، ويخلقنا حوله. جواً ليس من السهل تجاوز حدوده ؛ ولا اختراق آفاقه. بحثاً عما يكون وراءه من أسرار ، وطلباً لفهم ما يمكن أن يوجد من مجهولات . وقد تناول شيشرون قديماً هذا المعنى في كثير من موافقه ؛ ولعل أهم من بحث هذا الموضوع وأفاض فيه من المحدثين هو الأستاذ امدي ديكسنل *Amédée Duquesnel* في كتابه : تاريخ الآداب *Histoire des Littres* ، المطبوع في سنة

١٨٤٥ .

وأظننا الآن لانجد معنى للقول بأن اللغة توقيفية ، فانشاهده بأنفسنا في اللغات المختلفة ، وما نراه من تكيف كل لغة بتكيف الشعب الذي ينطق بها والبيئة التي تنمو فيها لا يترك مجالاً للشك في أن اللغوية ظاهرة اجتماعية يخلقها المجتمع الإنساني ، ويتجه بها حينما توحى إليه ظروف البيئة التي يعيش فيها : ومن هنا كانت اللغة يغلب عليها الاتجاه الروحي ، وتسود فيها المعاني الروحية ، وتنتشر فيها الألفاظ التي تعبر عن تلك المعاني ، إذا كانت في بيئة دينية روحانية . ويغلب عليها الاتجاه المادى ، وتنتشر فيها أسماء الآلات والصناعات والمكتشفات. إذا كانت في بيئة مادية صناعية . وهكذا إذا تتبعنا اللغات المختلفة في البيئات المختلفة :

والآن بعد أن استعرضنا آراء القدماء شرقاً وغرباً بالنسبة لنشأة اللغة .
وما قيل فيها من توقف ووضع نحب أن نلم سريعاً برأى المحدثين لكي تتم
لدينا صورة واضحة عن طبيعة اللغة وكيف كانت تفهم قديماً ؛ وكيف يمكن
أن تفهم الآن .

لقد خلطت الدراسة اللغوية في العصور الحديثة خبايا سريعة ، وتناولها
كثير من العلماء باعتبار أنها أهم مظهر من مظاهر رقي المجتمع وأعظم سجل
لتاريخ المجتمعات ؛ ولم يقتصر أمر هذا البحث على علماء النفس والاجتماع ،
ولا على رجال اللغة والأدب ، ولكنه تعدى كل هذه الطبقات ، وشغل
جزءاً هاماً من علم التشريح فسخر الأطباء جانباً من مجهودهم لتحليل هذه
الظاهرة الاجتماعية وإزالة ما علق بها من غموض . ونحن نؤثر بالذكر رأى
هذه الطبقة في نشأة اللغة لما لهم من نظرة ثاقبة ، وتجربة دقيقة ، وخبرة
تامة بالنفس الإنسانية وبوظيفة أعضائها : —

يشير علماء التشريح أن أول ظاهرة من ظواهر اللغة الإنسانية إنما هي
صراخ الطفل . بعد ولادته ؛ إذ أن هذا الصراخ ليس في الواقع سوى نتيجة
للإحساس بشيء يؤلمه ؛ وليس من سبيل لتحديد هذا الإحساس ولا تنوع
الآلم الذي صدر عنه . ذلك الإحساس ؛ وكل ما يمكن أن يقال بشأنه إنما
هو إحساس عام ؛ والذي يحدث في مثل هذه الحالة هو أن تسرع الأُم
أو من يشرفنا على شأن الطفل ببذل شيء لإسكاته ومراضاته . وهذا بالإنسانية

تهدئها ، أو بأنشودة تنفثها . أو بشئ تقدمه لارضاعه ، أو بشئ لذيقه تعطيه لإطعامه ، أو بضمة رحيمة إلى صدرها . أو بهزة لطيفة بين يديها ؛ وقد يكون الطفل راغباً عن كل ذلك ، وقد يكون صراخه ناتجاً عن إحساسه بالألم ، ولكنه سرعان ما يزول عنه مصدر ذلك الإحساس ، ويدرك بحسه لا بعقله أن ذلك الصراخ قد منحه شيئاً حلوا وأعقبته مراضاة لذيقه ؛ ومن ذلك يبدأ الطفل في استعمال الصراخ لا ليعبر به عن ألم يحسه ، ولكن ليشرح به حاجة يطلبها ، ورغبة يتمناها ؛ ومن هنا يكون الصراخ أول مرحلة من مراحل اللغة ، وأسبق تمبير من تعبيراتها . والمرحلة التالية من مراحل اللغة هي الإشارة ؛ حيث يبدأ الطفل في التوفيق بين إشاراته وبين الاصطلاحات الخارجية التي تحيط به ، ثم يأتي بعد ذلك مباشرة دور التوفيق بين هذه الاصطلاحات الخارجية وبين إشاراته هو بالنظر أو بالرأس أو باليد ؛ ومما أثبتته التجارب أن إدراك الطفل لما تتأوى عليه الإشارة باليد أو بالنظر أو الإشارة المتعلقة بالذوق العام أسرع من إدراكه لما تنطوي عليه الإشارة المتعلقة بالسمع . والطفل ، بالرغم من تأخره في إدراك المسموعات ، يأخذ مبكراً في محاكاة تلك المسموعات فيخرج أصواتاً لا يفهمها إلا خبرون ولا تؤدي في نظرهم أى معنى ، ولكنها تعبر عن إدراكات لديه ، ورغبات عنده . وفي أثناء ذلك يتكون الجهاز الصوتي عنده ويبدأ بممارسة وظائفه ، فينتقل الطفل بهذا الجهاز إلى مرحلة ثالثة من مراحل

اللغة فيخرج أصواتاً تدل على معاني ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يحدد صلة بين هذه الالفاظ وبين موضوعاتها . وذلك مثل كلمة « بابا » وكلمة « ماما » .

المرحلة الرابعة هي التي يبدأ الطفل فيها فيحدد الصلة بين الالفاظ وبين موضوعاتها ، وهنا يبدو تقدمه في اللغة بواسطة الكمية التي يعيها من الأسماء ؛ وقد لوحظ في هذه المرحلة أيضاً أن إدراك الأسماء أسبق من إدراك الصفات ، وأن إدراك الصفات المتعلقة بالذوق أسبق من إدراك الصفات المتعلقة بالإحساسات الأخرى . هذا فيما يختص بالأسماء والصفات التي لا صلة لها بالزمن ؛ أما الصيغ المعبرة عن الأحداث والمنصلة بالزمن فلنشأتها وتطورها نظام آخر : لوحظ أن الصيغ الزمنية الأولى التي يلجأ إليها الطفل للتعبير عما يدرسه من أحداث إنما هي صيغ الحاضر ؛ إذ إنه لا يعرف الأمس ولا مايتعاق به ، ولا الغد ولا ما سيكون فيه . ثم ينمو إدراكه بالأحداث الزمنية ويتجاوز الحاضر إلى الماضي فيبدأ يذكر ما حصل له ، وما أحس به ، ولكنه يستمر فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر وهو بعيد عن إدراك المستقبل الذي يحتاج إلى شيء غير يسير من الجهد والتفكير إذ أنه من السهل على الطفل أن يقارن بين الصور التي يراها ويحسها في الحاضر ، وبين صور أخرى تشبهها قد لمسها وأحس بها في الماضي ؛ أما عالم يكن رآه ولا أحس به عما هو متصل بالمستقبل فإنه يصعب عليه إدراكه وتصويره . وهذه الصعوبة التي تجول

يلته وبين إدراكه للمستقبل تشبه الى حد كبير نفس الصعوبة التي تحول
بينه وبين إدراكه لمعنى — أنا — فهو لا يستطيع بعد أن ينطوى على نفسه ،
ولا أن يوجه إدراكه وإحساسه إليها بدل أن يصرفها إلى ما يحيط به من
عالم خارجي ؛ ولذا فهو لا يتحدث عن نفسه ؛ ولكنه يتحدث عن
الغير ؛ وإن يكون في مقدوره إدراك نفسه ، والإلام يعمض آفاقها إلا
بعد أن تتكون لديه مجموعة كبيرة من الصور ، وطائفة غير يسيرة
من المذكرات ؛ وحتى في هذه الحالة عندما يبدأ يدرك نفسه لا يتحدث
عنها بصيغة — أنا — وإنما يتحدث عنها بصيغة الشخص الثالث ، أي
بصيغة الغائب ؛ إذ أن حديثه عن الآخرين يدخل ضمن القصص
والوصف ؛ والتعبير الطبيعي لذين النوعين من الكلام إنما هو التعبير بصيغة
الحاضر والماضي ؛ وقد ظهر فيما مضى أن إدراك صور الماضي والحاضر
أسرع بكثير من إدراك صور المستقبل . أما الحديث عن النفس فإنه
يدخل في نطاق الإنشاء ، والإنشاء مرحلة لا تأتي إلا بعد إعداد .

وفي كل هذه المراحل التدريجية التي مر بها الطفل منذ إدراكه لبعض
الصور حتى استطاع أن يعبر عما يدركه بالصيغ الزمنية الرئيسية الثلاث
ينبغي ألا يغيب من حسابنا أن إدراكه للحسوسات أسرع من إدراكه
للمعنويات ، فهو يرى ويسمع قبل أن يتخيل ويفهم .

ولعلنا نتصل بموضوع اللغة ونشأتها أيضاً فيما يذكره علماء

التشريح من أولية الكتابة والقراءة ، فإنهم يقررون أن الكتابة تسبق القراءة إذ أن الكتابة وليدة الحس بينما القراءة وليدة الإدراك ؛ وكما : أن الإشارة باليد تسبق النطق باللسان فإن الرسم يسبق الكتابة ؛ وإذن فزاحل اللغة من ناحية التسجيل ؛ لا من ناحية النطق ، هي : الرسم ، ثم الكتابة ، ثم القراءة .

ونحن لو استعرضنا تاريخ اللغات الكتابية لوجدنا أنها كانت في أول أمرها رسوماً ، ثم أنها قد أخذت في التطور حسب مقتضيات الظروف والأحوال حتى آل أمرها إلى رموز صوتية يدل أن كانت رسوماً لأمور حية . وليس لنا الآن أن نفيض في الكلام عن هذا الموضوع فقد يبعدنا عن بحثنا الأصلي ؛ ولكتنا نريد أن نمثل فقط بما هو معروف من اللغات لنثبت ما أشرنا إليه بصفة إجمالية .

إن اللغة الهيروغليفية مثلاً واللغة المسارية لم يكونا في أول أمرهما شيئاً آخر سوى رسوم لكائنات محسوسة^(١) : أناس ، حيوانات ،

(١) انظر — وادي الزافدين مهد الحضارة — ص ٣٢ — دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ للبر. ليونارد وولي. وتعريب أحمد عبيد. الباقي .. طبع دار الكتاب العربي بمصر . — الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ . وانظر أيضاً ما جاء في كتب التاريخ عن مصر القديمة من نصوص

طيور ، أسماك ، نباتات ؛ ثم اختصرت هذه الرسوم وتحورت على عمر الزمن فأصبح الرسم الواحد يدل على جملة أشياء بدل دلالته على الكائن الحي نفسه ؛ وأخيراً استحال إلى رموز صوتية قريبة الشبه بما نراه اليوم في الكتابات الحديثة المختلفة كالكتابة العربية ، والكتابات اللاتينية ؛ وها نحن أولاء لا نزال نرى صورة من الكتابة الرسمية القديمة عند الشعوب المتحضرة كالفرعنة ، والسومريين ، والبابليين ، والآشوريين ؛ نقول لا نزال نرى صورة من تلك الكتابة الرسمية القديمة عند الشعب الصيني .

هذا والطفل في أول عهده ، كما يقرر ذلك أيضاً علماء التشريح ، يلجأ إلى الرسم ويمارسه قبل أن يمارس الكتابة ؛ فهو إن أعطى ورقة وقلماً يبدأ في التخطيط وفي رسم أشياء مما يقع تحت حسه قبل أن يبدأ في الكتابة ؛ ولن يأخذ في الكتابة إلا بعد نمو عقله وإدراكه غير قليل ؛ وحتى في أول عهده يتعلم الكتابة إنما يبدأ المعلم معه بتعليمه نسخ شيء أو نقله ، فهو أيضاً في هذه المرحلة يرسم لا يكتب ، ويقلد لا يخلق ولا يعبر ؛ إذ أن الرسم في مراحله الأولى وفي أشكاله المختلفة وليد الحس ، أما الكتابة بمناها المتعارف فهي وليدة العقل ؛ وبما أن الحس أسبق في تكوينه من العقل ؛ فإن ما هو وليد الحس أسبق مما هو وليد العقل .

== هيروغليفية ؛ حيث يوجد صور عدة ومختلفة عن الكتابتين : المسمارية والهيروغليفية .

وقد استدل على ذلك علماء التّشريح بأدلة منها : إننا نستطيع أن نعلم
لآخرين نسخ شيء أو نقله دون أن نعلم هؤلاء الآخرين قراءة ذلك النسخ
و النقل وذلك مثل ما كان يحدث عند المصريين القدماء وعند السومريين
لذلك ؛ ومن هذه الأدلة أيضاً ما لوحظ بصفة مؤكدة من أننا نفقد القدرة
على القراءة ، ولا نفقد القدرة على الكتابة .^(١)

قد يظن القارئ أننا أطلنا الحديث عن نشأة اللغة ، وأننا خرجنا عن
موضوع البحث في اللغة كظاهرة اجتماعية إلى اللغة كيف تنشأ عند الطفل
أما عن النقطة الأولى فإن كل ما ذكرناه لا يتجاوز القدر الضروري
ليما نظن ، لعرض اللغة ، والتعريف بها . وأخذ صورة واضحة عنها وبين
راحل تكونها ؛ وخصوصاً إذا عرفت خطورة الأبحاث اللغوية ، ومكانتها
النسبة لسائر الأبحاث الأخرى وأدركت مهمة فهم اللغة ، وطبيعة تكوينها
النسبة لبحثنا عن النحو العربي وتحليله .

وأما عن النقطة الثانية فإننا عرضنا لرأى علماء التّشريح في نشأة اللغة

.....

^(١) انظر الفصل الثالث من كتاب : « العبقريّة الأدبية » ،

Paris 1912 le génie littéraire par Dr A. Remond et Pau

Vautouel;

حيث يوجد عرض كامل لهذا الموضوع عند علماء التّشريح .

عند الأطفال وبيان المراحل التي تمر بها ، سواء أكانت لغة التلق أم كانت لغة الكتابة ، لأن كلام هؤلاء الأطفال عن اللغة عند الأطفال يربطهم لنا في نفس الوقت صورة عن اللغة عند المجتمعات ؛ وهل المجتمعات البدائية سوى أطفال بالنسبة للمجتمعات الراقية ؟ وهل حياة المجتمع ومظاهر تنوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ، كما يدرسها ويحللها علماء النفس والاجتماع ، نقول هل حياة المجتمع بالنسبة لهذه النواحي يمكن أن تكون شيئاً آخر سوى صورة من حياة الطفل ، ومظاهر تنوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ؟

أشهر اللغات

واللغات المشهورة التي شغلت العلماء ، وكانت هدفاً لأبحاثهم ، وموضوعاً لدراساتهم هي اللغات التي تفرعت عن هذين الأصلين : الآري والسامي . فمن الآري تفرعت السنسكريتية ، واليونانية ، واللاتينية . أما السنسكريتية فقد انتشرت في الشرق . وأما اليونانية واللاتينية فقد نمتا وتفرعتا في الغرب .

ومن الأصل السامي تفرعت اللغات السامية المعروفة وهي : البابلية - الآشورية ، والكنعانية (الفينيقية والعبرية) ، الآرامية ، والبنية ، والجيشية ، والعربية .

: ولما لم يمكن من شأننا ولا من موضوع بحثنا أن ندوس هذه اللغات
العديدة ، وتتبع فروعها الكثيرة المتشعبة فيستريحها جانباً ، ونخصص بالكلام
اللغة العربية التي هي موضوع درسنا الحقيقي .

أَسْبَقُ اللُّغَاتِ

أما الكلام عن أسبق اللغات ، وأيهما كانت اللغة الأولى للمجتمع
الإنساني فنظن أنه كلام لا طائل تحته ، إذ لا سبيل لمعرفة ذلك الآن ،
فكل ما لدينا من وثائق التاريخ ووسائل العلم لا يجعلنا نطمئن إلى ما ذكره
القدماء بخصوص هذا ، ولا يجعلنا كذلك تؤمل أن نصل إلى معرفة ذلك
بعد قليل . وكل ما ذكره القدماء في ذلك إنما هو من قبيل التخمين ،
قد أملاه عليهم في أغلب الأحيان نوع من التعصب للجنس أو الدين :
من ذلك ما قيل من أن لسان آدم كان سريانياً أو عبرانياً .

والإيكم ما يذكره صاحب الفهرست ^(١) : « قال تيسادورس المفسر في
تفسيره للسفر الأول من الزوراة أن الله تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان
النبطي وهو أفصح من اللسان السرياني وبه كان يتكلم أهل بابل فلما بلبل
الله الألسنة تفرقت الأمم إلى الأضباع والمواضع وبقي لسان أهل بابل

(١) الفهرست - ص ١٨ . المطبعة الرحمانية سنة ١٢٤٨ هـ .

على حاله فأما النبطى الذى يتكلم به أهل القرى فهو سريانى مكسور غير
مستقيم اللفظ . وقال غيره اللسان الذى يشتمل فى الكتب والقراءة وهو
الفصحى فلسان أهل سوريا وحران والخط السريانى استخرجناه العلماء
واعطاهوا عليه وكذلك سائر الكتابات وقال آخر إن فى أحد الاناجيل
أو فى غيره من كتب النصارى أن ملكاً يقال له سيمورزس تعلم آدم
الكتابة السريانية على ما فى أيدى النصارى فى وقتنا هذا ، ثم يمضى صاحب
الفهرست فى بيان أقلام السريانيين .

ونحن نورد هنا على سبيل المثال ما ذكره هيرودوت المؤرخ اليونانى
الكبير :

يرى هيرودوت أن أحد الفراعنة من ملوك مصر أراد أن يعرف اللغة
الطبيعية الأولى للجنس البشرى . ولعله سأل فى ذلك العلماء والفلاسفة
ورجال الدين ، فلم يجد لديهم جواباً يطمئن إليه ، وأخيراً فكر فى هذه
التجربة وتفذهما : ذلك أنه أمر أحد خواصه بأن يبحث عن طفلين رضيعين
حديثي عهد بالولادة ، ويضعهما بمزول فى مكان ناء عن المجتمع بحيث لاتصل
إليهما أصوات الناس ، ثم يتعهدهما بالرضاع والإطعام حتى يكبرا
دون أن يسمعا أى لفظ كان من أى إنسان كان . وقد أشرف هذا الرجل
على تنفيذ إرادة الملك . وفى يوم ما زهر يقدم إليهما الطعام سمع أول
لفظة ينطق بها أحد الطفلين وهى (نيبكوس) . فطار بهما الزجل وأبلغها

الملك : ولما لم تكن هذه اللفظة معروفة في اللغة المصرية فقد سأل العلماء
في ذلك ، وأخيراً عرف أن هذه اللفظة إحدى ألفاظ اللغة اليونانية ، وأن
معناها (الخبز) .

وأظننا في غير حاجة لأن نشير إلى الروح التي أملت على هيرودوت
أن يقص هذه القصة ، وفي غير حاجة أيضاً لأن نذكر الهدف الذي
رمى إليه من وراء هذه القصة .

وبما يدخل معنا أيضاً ويتصل بهذا الموضوع ما يقال عن مستقبل بعض
اللغات مثل ما نسمعه من أن لغة القسبر هي السريانية ، أو أن لغة أهل
الجنة هي اللسان العربي ، أو أن الشعوب جميعاً صائرة إلى أن تصبح شعباً
واحداً يتفاهم بلغة واحدة . وما يشبه ذلك ما قام به العلماء منذ قليل من
ابتكار لغة عالمية تصلح أداة لتفاهم الشعوب جميعاً ، تلك هي لغة الأسيرانتو .

وبالرغم من مشاركة القائمين على شأن هذه اللغة حتى اليوم ، وبالرغم
من محاولاتهم العديدة لتثبيت أقدامها والعمل على تعميمها ونشرها ، وبالرغم
من الفؤء في هذا الميدان من كتب ، وما أنشئوه من مكنتات ، وما نشروه
من أبحاث فإنها لا تزال في دائرة ضيقة محدودة ، ولا تزال بعيدة عن أن
تصبح لغة تفاهم حتى بين القائمين عليها .

ولقد أردنا أن نخبر هذه اللغة ، وحاولنا أن نبين مدى قبولها للانتشار

فقرأنا بعض ما كتب منها باللغة الفرنسية ، واتصلنا ببعض المشرفين على تعليمها في باريس خلال عامي سنة ١٩٤٧ و سنة ١٩٤٨ م ، ولكننا خرجنا من كل ذلك بفكرة هي : أن هذه اللغة صائرة إلى الموت قبل أن تتجاوز المهد وأن هذه المحاولات مآلها الفشل بالرغم من صدق المشرفين عليها ، ومن إخلاصهم في العمل . ونستطيع أن نعزو ذلك إلى أسباب نلخصها فيما يلي :—

أولا : أن اللغة لا تفرض على الشعوب فرضا فهي ليست مظهراً خارجياً يمكن تشكيله حسبما تتطلب الظروف وإنما هي عنصر أساسي من عناصر تكوين المجتمع تبرز بروحه منذ طفولته ، وتلازم تطوره العقلي في كل مظهر من مظاهر ذلك التطور ، و ليس أدل على ذلك من فشل محاولات بعض الشعوب في فرض لغاتها على بعض المناطق التابعة لدول أخرى ، جرياً وراء أغراض سياسية ، وذلك مثل محاولات فرنسا في إقليم السار التابع لألمانيا ، ومحاولات ألمانيا المتكررة في إقليم الألزاس واللورين التابعين لفرنسا . بل هناك ما هو أبعد من ذلك في الدلالة ، فقد تقوم الدولة السياسية على عنصرين أو أكثر من عناصر الأمة الواحدة ، ومع ذلك يستمر كل عنصر يحافظ على لفته الخاصة ، وأسلوبه في التعبير والأداء ، دون أن يتأثر بمحاولات الدولة من أجل التوحيد في اللغة ، كما تأثر بها في محاولاتها من أجل التوحيد في الأهداف السياسية للوطن وفي كثير من المظاهر الاجتماعية للمواطنين ؛ وأوضح مثال لذلك بلجيكا ، التي تضم بين حدودها عنصرين متباينين في اللغة : عنصر ينطق بلغية نهي من أصل

ألماني ، وعنصر ينطق باللغة الفرنسية ؛ وأكثر من ذلك .سويسرا التي تضم بين حدودها ثلاثة عناصر مختلفة ؛ عنصر يتحدث بالفرنسية ، وعنصر يتحدث بالإيطالية ، وعنصر يتحدث بالألمانية .

وأمامنا أيضاً من الأمثلة الحية ما رأيناه من فشل محاولات الإنجليز في فرض لغتهم في يوم ما على المصريين ، وعلى الهنود ؛ وكذلك ما رأيناه من فشل محاولات فرنسا في فرض لغتها على شمال أفريقيا ، وعلى سوريا ولبنان . أما ما نراه في كندا أو في الولايات المتحدة أو في غيرها من البلاد الأخرى فإن اللغة فيها لم تفرض على السكان الأصليين . ولكن السكان الجدد هم الذين جاءوا إلى هذه البلاد بلغة جديدة فاستعمروها واستيروا يتحدثون بلقمتهم الأصلية .

ثانياً : أن تعليم لغة جديدة من اللغات لأفراد أو لشعب من الشعوب لهم لغتهم الأصلية يستلزم في كثير من الأحيان شيئاً من المنطق ؛ واللغة كظاهرة طبيعية من مظاهر المجتمع تتنافى مع المنطق ؛ ويكاد يكون مستحيلاً تعليم شعب بأسره مادة من المواد تخضع للقياس المنطقية ؛ ولم يكن فشل المحاولات التي أشرنا إليها سابقاً إلا نتيجة لذلك .

ما هي اللغة العربية ؟

واللغة العربية التي نحن بصدد الحديث عنها هي تلك اللغة التي كانت ينطق بها أفراد القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية ، من شمال اليمن حتى ريف العراق وبادية الشام .

وكانت هذه اللغة متشعبة ومتنوعة بتنوع القبائل الناطقة بها ، وذلك ما يعرف باللهجات العربية . ومنذ نهضت قبيلة قريش في أرض الحجاز وبدأت تسود غيرها من القبائل وتزعمها في الدين والسياسة والاقتصاد أخذت لهجتها كذلك تسود اللهجات الأخرى ، وتغلب عليها . وقد استمرت هذه اللهجة في طريقها من الرق بواسطة عدة عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية حتى كادت تهمل في جانبها لهجات القبائل الأخرى ، وهي التي أورثتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية ؛ وهي أيضاً لغة القرآن والحديث والأدب العربي .

وعلماء الشرق مجمعون على أن هذه اللهجة هي لهجة قريش ؛ ولكن من بين الغربيين الآن من بدأ يناقش هذا الرأي قائلاً بأن ما يسميه العلماء لهجة قريش يغلب على الظن أنه غير صحيح ، إذ من الصعب أن تتصور لقريش لهجة خاصة مع ما نعرفه من عدم بقائها في بيئة منعزلة عن القبائل الأخرى . فقد كانت يبيتها مورداً للقبائل العربية يأتون إليها للتجارة والحج والمفاخرة والمنافرة في الأسواق .

وكانت قريش بحكم زعامتها الدينية والاقتصادية دائمة الاتصال تقريباً بهذه القبائل .

وعلى هذا فإن لهجة قريش يمكن أن يقال عنها بأنه لا وجود لها ، وما هي في حقيقة الأمر إلا خليط أو مزيج من لهجات القبائل الأخرى .
يصح أن يكون على مر الزمن ، وانتهى به الأمر إلى أن يكون لهجة البيشة الحجازية التي تسكنها قريش .

ونحن بدورنا نقول إن هذا الرأي مع ما له من وجهة ، وفيه من نضوج وعمق تفكير لا يسهل التسليم به : إذ أننا كيف ننفي وجود لهجة قرشية بسبب كثرة الدخيل فيها ؟

من المسلم به أن قريشا كانت على صلة بالقبائل العربية الأخرى ، وأن لهجتها كانت في أغلب الأحيان هدفاً لأن تطعم من اللهجات الأخرى .

ومها كثر الدخيل في تلك اللهجة القرشية فلن يرق فيما نظن إلى أن ينمحي أمامه الأصل ليتأصل ذلك الدخيل . والذي ينبغي أن نتصوره ونظمن إليه هو أن لقريش لهجة خاصة ممتازة ، وكانت مع ما لها من صلات دائمة باللهجات الأخرى تبتلع وتهضم ما يفد إليها من تلك اللهجات . وليس أدل على ذلك من هذه الفروق في اللهجات الأخرى التي نجدتها في بعض

الأمثلة والشواهد التي نقلها إلينا من تصدى جمع اللغة وتدوينها من القدماء . وحتى لو سلنا جدلاً بأن اللهجة القرشية الأولى قد انمحت تماماً وحل

محلها هذا الخليط من اللهجات الأخرى فإننا لا نزال نجد أنفسنا أمام لهجة متماسكة ومتميزة عن غيرها من اللهجات الأخرى . ويستوى في ذلك أن نسميها لهجة قريش أو لهجة بيئة الحجاز .

• • •

هذه اللهجة القرشية السائدة في بيئة الحجاز والمتزعة تبعاً لمكانتها لجميع اللهجات العربية الأخرى هي التي نزل بها القرآن ، وروى بها الحديث ، وما بقي من الشعر الجاهلي . ثم هي نفسها الأداة التي دونت بها العلوم والمعارف الإسلامية في مختلف العصور . وسرى عند الكلام عن النحو العربي أنه أسس على هذه اللهجة القرشية ، ولم يتعرض لغيرها من اللهجات إلا في القليل البادر . وكذلك الحال بالنسبة لمن تصدى لجمع اللغة العربية وتدوينها . وهذا ما جعلنا نحس دائماً بفجوة في معلوماتنا عن اللغة العربية ، وبمعجز عن فهم بعض النصوص العربية التي وردت عفواً في ثنايا الكتب ، والتي علما علماء اللغة بما يسمونه الشذوذ ؛ وما كان يملأ هذه الفجوة ولا يوضح تلك الأمثلة الشاذة — كما يسمونها — إلا معرفتنا بتلك اللهجات العربية الأخرى . ومن هنا نلحس كم أتعبتنا هؤلاء العلماء وأضاعوا علينا من الفوائد ، وإن لم يكن ذلك منهم عن قصد واختيار . ولو أنهم نقلوا إلينا (فيما نقلوا) سائر اللهجات العربية الأخرى لأراحوا النحاة وأراحونا معهم من تلك التأويلات البعيدة ؛ وذلك التخريج الجيب ، ولكن ما مجهم الله .

وبغفر لهم .

على أننا لم نصل بعد إلى درجة اليأس من الوصول إلى معرفة شيء
كثير من تلك اللهجات . فهناك يمكن أن نعثر على بعضها في بطون
كتب اللغة ؛ وفي ثنايا كتب النحو ؛ وفي خلال التمرس الأدبية ؛
وخصوصاً في القراءات العديدة التي قرئت بها آيات القرآن . وقد أننا
لو قرأنا ذلك كله قراءة المحص المادق ؛ واستخرجنا من تلك الكتب
جميعاً ما يدخل في هذه الدائرة من البحث ؛ ثم جمعنا هذه العناصر المبعثرة ؛
وألفنا بين هذا الشتات لتكسرت لدينا ثروة لانثك في أنها تصلح لأن
تكون موضوعاً لهذا الدرس .

إن تعدد اللهجات من طبيعة اللغات ، سواء في ذلك قديمها وحديثها ؛
وكثيراً ما كان الحرص على معرفة اللهجات المختلفة معينا على فهم أساليب
اللغة وما فيها من أسرار بلاغية ؛ ووسيلة لإدراك الفروق بين الشعراء
والكتاب الناشئين في بيئات مختلفة اللهجات ، وكثيراً ما كان الحرص على
جمع اللهجات المختلفة للغة من اللغات أساساً لدراسة تلك اللغة . ومعرفة
الظروف التي نشأت فيها . ثم تطورت حتى أخذت لها مظهراً موحداً ؛
وأسلوباً عاماً .

ونظرة بسيطة إلى تازيخ اللغة اليونانية . وآثارها الأدبية . ثم مقارنة
هذه الآثار بعضها ببعض . بالنسبة للألفاظ ومعانيها . والجل وتركيبها ؛
والأفكار وطرق عرضها ؛ نقول إن نظرية بسيطة إلى ذلك تلقى ضوءاً على

قيمة معرفة الدرايين باللهجات المختلفة في اللغة الواحدة . ولقد ترسم علماء اللغة اليونانية وآدابها هذه الخطوات فامتدوا إلى نتائج هامة بالنسبة لفهم اللغة وآدابها . ولعل أهم تلك النتائج من الناحية العملية بالنسبة للغة ، ومن الناحية العلمية بالنسبة للدراسين هو ما وجدوه من ثروة طائلة في وسائل التعبير عن الفكرة الواحدة .

ولقد ساءت اللغة اللاتينية بعد اليونانية نفس الخطوات . وكان اهتمام الباحثين فيها وفي آدابها مماثلا لاهتمام الباحثين في اللغة اليونانية . ثم إن النتائج المادية والعلمية لمجمع اللهجات ودراساتها وتحليل أساليبها بعد أن اتخذت سبيلها إلى التوحيد تشبه في جملتها نفس النتائج التي وصلت إليها دراسات اللغة اليونانية وآدابها .

هَذَا وقد أخذ العلماء في دراسة اللغات الحديثة وآثارها بنفس الطريقة التي درست بها اللغات القديمة . واستطاعوا ملاحظة كثير من الفوارق بين الأدباء المختلفين باختلاف بيئاتهم ولهجاتهم . وذلك مثل ما حدث في اللغة الفرنسية ، فإن ما يمتاز به الآن من ثروة في المفردات ، وسهولة في التعبير ، ودقة في الأداء . إنما مرجعه إلى تعدد لهجاتها ، وتباين أساليبها ، ثم إبقائها على الكثير من مزايا هذه الأساليب وتلك اللهجات .

ومن هنا يتبين لنا إلى أي حد ينبغي أن نوجه عنايتنا بدراسة اللهجات في اللغة الغريبة ، وألا يكون صنيعنا خيالا صنيع رجال اللغة والنحو من

القدماء . وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي ألا نستصغر شأن ما لدينا من أمثلة وشواهد لتلك اللهجات ، فإن إهمال القدماء لها وعدم اهتمامهم بجمعها وإبداء رأيهم بصريح العبارة فيها من أنها ضعيفة أو شاذة ، أو غير مشهورة . كل ذلك قد حدث من شأن قيمة معرفة هذه اللهجات ، وزعد من سبقونا في دراستها ؛ ويقابل هذا الإهمال تشيع متعمد من ناحية أخرى بالنسبة للهجة قريش ، فتدفعوا من شأنها على حساب اللهجات الأخرى ، بل إنهم زادوا في احترامها ، وأسبغوا عليها صفات هي أقرب إلى صفات القداسة .

وعلىنا الآن ، بعد أن اطلعنا على مناهج البحث الحديث ورأينا النتائج التي وصل إليها علماء هذه المناهج ؛ أن نواجه نظرية اللهجات في اللغة العربية بفكرة جديدة ، وفهم واسع ، ونجمع أولاً ما يمكننا جمعه منها مما قل ؛ فمن الخيوط البسيطة الواهية يتكون الجبل القوي المتين . وهل كانت أوائل العلوم الواسعة سوى بعض المسائل البسيطة الهينة ؟ ولعل منشأ قصور الدارسين حتى اليوم هو أنهم لم يوسعوا دائرة اطلاعهم ، ولم يستوعبوا كل ذلك التراث العبقري الواسع ، والأدبي الغزير . وحتى من أطلع منهم على الكثير منه لم يقرأه وهو يقصد ذلك الهدف ، أو يرمي إلى تلك الغاية التي أشرنا إليها .

ولبنا لم يكن من طبيعة هذا البحث أن يتعرض في شيء من التوسع . لذكر هذه اللهجات العربية المختلفة ، وذكر يثباتها ، والتعريف بمميزاتها .

ورجع ما يمكن جمعه من أمثلتها وشواهداها ، فإننا نترك ذلك كله لدرس مستقل ؛ فهو ميدان بكر وخصب معا يستحق من الدارسين المختصين عناية عظيمة وجرأ كبيرا .

ولكننا مع ذلك لا نود أن نتركه دون أن نشير إلى تلك الفكرة الخاطئة التي سادت فيما بيننا زمنا طويلا والتي كان من شأنها أن فهم الباحثون قلة الموروث من تلك اللهجات ، وعدم الغناء في جمعها ، وإحيائها ؛ وكان من شأنها كذلك أن دب اليأس في نفوس الدارسين فانصرفوا عن الاهتمام بها. أجيالا عديدة : وأصبحوا لا يذكرونها. إلا في معرض التذليل على ضعفها ، وفي سبيل الاستشهاد على قاعدة نحوية غريبة أو شاذة .

هذه الفكرة هي القائلة بضعف هذه اللهجات ، وبعدم مساواتها للهجة قریش في الفصاحة والبيان ، وقد ألمعنا فيما مضى إلى فسادها ؛ وليس أدل على ذلك من نزول بعض آيات القرآن بها ، وإجماع علماء الإسلام على صحة قراءة المشهورين من القراء بأساليبها ، وموقف الرسول ﷺ من تصويب القراءات المختلفة بالنسبة للنص القرآني الواحد .

كل هذا يدعونا إلى نبذ تلك الفكرة ، وإلى أن نكسر جزءاً من جهودنا إلى جمع اللهجات العربية ودرمها . ولنا نميل إلى متابعة القائمين بقلعة الموروث من هذه اللهجات ؛ بل إننا نستطيع أن نزعّم بأن ما يوجد منها، في ثنايا الكتب والآثار يصلح لأن يكون موضوعاً كافياً للدوسر؛

قد إشرنا ففما مضى إلى مطلقان وجود تلك اللهجات ، وإلى المصادر التي
نبنى أن نعتمد عليها لنجمع منها المادة الأولى ؛ ونضيف إلى ما تقدم كتب
لتاريخ وكتب السير ؛ والنصوص الأدبية حتى نهاية العصر الأموي . وإن نظرة عامة
لما جاء في كتاب سيبويه وحده من أمثلة للهجات القبائل العربية المختلفة
تمنعنا بصدق ما نزعم ، وتكفيها مستونة الاستقصاء لتدعيم الدليل .

والآن بعد هذا العرض العام بخصوص اللغة ونشأتها ورأى العلماء ، قديماً
حديثاً في ذلك ، ثم بخصوص أهم اللغات ، والألسن التي قامت عليها
إسماء هذه اللغات ؛ نقول بعد هذا العرض العام لهذه المسائل ، نحاولين
أما يمكن أن نظهر هدفنا الخاص من وراء ذلك ، وهو موضوع اللغة
ربيه : الذي هو مدار بحثنا ، ننتقل إلى موضوع آخر أخص من الأول
هو الصلة بين اللغة والنحو .



اللغة والنحو

اللغة العربية - النحو :

صلته باللغة - نشأته

لقد كان موضوع حديثنا فيما مضى بمثابة تمهيد لا بد منه للحديث عن النحو ، وقد انتهينا منها إلى بيان كيف كانت اللغة العربية متعددة اللهجات ومنتهرة في كل القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية تقريباً ، ثم كيف تضاءلت هذه اللهجات وانحصرت في لهجة قريش فقط ، وذلك بواسطة صنيع الرواة والعلماء ، ومن تصدى لجمع اللغة ، وتدوين ملاحظات عليها .

نحن إذن أمام اللغة العربية بمشكلة في لهجة قريش فقط التي ورثنا بها نصوص القرآن ومتن الحديث والتراث الأدبي القديم .

ونحن إذ نقرر ذلك إنما نساير الفكرة الشائعة التي أوضحنها في الفصل السابق ، ولسكننا حيث نجرد أنفسنا من تلك الفكرة ومن مشكلاتها الفكرية ، التي أخذناها عن القدماء بطريقة هي أقرب إلى التلقين ، حين نواجه النصوص الدينية ، والأدبية ، واللغوية مواجهة صريحة نجد أن كثيراً من اللهجات القبائل العربية الأخرى ممثلة في هذا التراث اللغوي الواسع ، غ

أن ذلك التمثيل لم يكن كافياً في نظر القدماء لكي يدخلوه في حسابهم
ويتناولوه بالدرس ، أو يسلموه لنا على الأقل مجرداً من تلك الاعتبارات
الواهية التي ألقوها به . والأحكام الشبيهة بالخطأ التي أصدروها عنه ؛
فكان لذلك أثر سيء في نفس من جاء بعدهم بالنسبة لتقدير هذا التراث .

ولم صور الخلاف بين اللهجات التي نقلها إلينا النحاة في ثنايا كتبهم
لنشهد بما كان لبعض اللهجات من قوة تكاد تساوى بها قوة لهجة قريش ؛
فكل من درس النحو يدرك مبلغ النفوذ الذي كانت تتمتع به لهجة تميم ؛
ويعرف ما أثبتته النحاة في قواعدهم ، وفي مؤلفاتهم من خلاف بين ما ،
الحجازية و ما ، التميمية . وإذا كان النحاة لم يسكثوا من عوار الخلاف
بين لهجة قريش ، ولهجات القبائل العربية الأخرى ، وتعمدوا فيما نظن
أن يغضوا عن كثير منها ، إلا أننا نستطيع أن ندرك في سهولة صوراً ،
أخرى كثيرة ، وقوية ومنتشرة بين سكان الجزيرة العربية فيما كان يحدث
بين القبائل من مفاخرة ، ومنافرة ومهاجاة ؛ إذ أنه ليس من السهل أن
تصور خضوع شعراء القبائل جميعها للهجة قريش في كل ما يندشدونه من
قصائد في مجتمعاتهم ، وفي أسواقهم الأدبية ؛ وليس من السهل أن تتصور
كذلك أن الحكم بين الشعراء من قبائل مختلفة كان يدخل في حسابها ، حين
يصدر حكمه على قيمة الشعر ، ما كان من خلاف في اللهجة بين شعراء هذه
لقبائل المتباينة .

والنحو بالنسبة للنسبة . هو عبارة عن مجموع الملاحظات والنواعد التي
تلتزمها أساليب اللغة في طرق أدائها للعاني . فالإتزام الرفع في كل من
يصدر عنه الفعل أو الحدث ، والإتزام النصب في كل من يقع عليه الحدث ،
والإتزام الجز في كل حالة من حالات الإضافة وفي كل اسم مسبوق
بحرف من حروف الجر ، والإتزام الجزم في الفعل المضارع إذا أسند إلى
نون النسوة أو سبق بحرف من حروف الجزم ؛ نقول إن الإتزام حالة من
حالات الإعراب المختلفة لكل حالة من حالات الكلمة بالنسبة لموضعها من
الجملة إن هو إلا طريق من طرق الأداء في اللغة العربية . أما ملاحظة
ذلك للسير على نهجه فهو من النحو .

ومنه هنا ناس نقطة هامة وهي أن النحو لا ينشأ مع نشأة اللغة ،
ولمّا هو مرحلة من مراحل نموها ، ومظهر من مظاهر رقيها ؛ إذ هو بهذا
الاعتبار وليد العقل ، واللغة في نشأتها الأولى وليدة الحس .
وليس من شك في أن العقل متأخر في الوجود عن الإحساس . وليس
أدل على ذلك من أن النحو لا يوجد إلا في اللغات الراقية ذات الآثار
الأدبية والعلمية الواسعة .

وقد ساءت اللغة العربية في هذا الطريق سير غيرها من اللغات الأخرى
كاللغة اللاتينية واليونانية مثلاً . وإذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ،
ولا من الأدلة العلمية اليقينية ما يسهل علينا مهمة إثبات ذلك بالنسبة للغة

العربية ، فإن ما نجده في مثيلاتها من اللغات الأخرى يجعلنا نطمئن إلى هذا الحكم ، ونضرب صفحا عن رأى بعض علماء العرب القائلين بأن النحو العربي قديم النشأة ، بل إنه توقيفي . كما أن اللغة في نظرهم توقيفية أيضاً . ومن هؤلاء العلماء ابن فارس ^(١) ، ومنعرجي بالتفصيل وجهة نظره عند الكلام على نشأة النحو العربي .

من الثابت أن كلاً من اللغة اليونانية واللاتينية قد نشأت بسيطة في أنماطها وفي تراكيبها ، محدودة في أساليبها ، وفي طرق أدائها للمعاني . غير أنها لم تلبث أن اتسعت دائرتها ، وتعددت أساليبها ، وتلا ذلك طبعاً ما يشبه التعقيد المعنوي ، فبدأت تلتزم طرقاً خاصة لنأدية المعاني ، وتميز بعض التراكيب عن بعض . إذ أن اللغة في حياتها تخضع لحياة المجتمع وطبيعته ؛ فكما اتسع المجتمع ، وتعددت مشاكله ، وتعددت أموره كان في حاجة إلى أن تتسع لغته ، وتعدد تراكيبها ، وتشكل أساليبها وفق ما يستلزمه النمو العقلي في المجتمع . ولعل أول مظهر من مظاهر رقيها هو ما وجد فيها من الأغاني الشعبية التي تكون جزءاً مما يعرف عند الغربيين بالفولكلور Folk-lore . ولما كانت زمام هذه الأغاني الشعبية لا يزال منوطاً بيد الحس ، ولا دخل للعقل فيه إلا عن بعد ، فإن الملاحظات : النحوية والالتزامات الدقيقة المنظمة لا ترى ولا تحس إلا قليلاً ؛ ولنا فيها نراه

(١) التعريف بابن فارس تقدم في ص ٢٢

من الأغاني الشعبية شاعد على ذلك ،

ولكن عندما يدخل العقل في دور العمل ويتسلم زمام اللغة ، ويبدأ في تصريفها وترتيبها بحيث يسهل أن يؤدي بها كل ما يتصور من المعاني ، وماندعو إليه الحياة الاجتماعية ؛ نجد اللغة تبعاً لذلك تدخل بدورها في التزام طرق للأداء بخصوصة ، وأساليب في التعبير متباينة تبين المعاني والتراكيب .

فلغة الشعوب البدائية بعيدة كل البعد عن ذاك التشقيق وتلك الطرق المتباينة في الأداء ؛ بل إن مجموعة بسيطة من المفردات وبقية يسيرة من التراكيب ، وطائفة قليلة من الأساليب التقليدية تكفي للتعبير عن حاجيات هذه الشعوب ، ولشرح أغراضها . ولكي نتصور ذلك في وضوح فما علينا إلا أن نرجع بأذهاننا إلى الورا لننظر في تاريخ الكتابة الهيروغليفية أو السومرية ؛ فإن عدداً بسيطاً من الرسوم كان كافياً لأداء ما يراد أداؤه ؛ وللتعبير عما يراد تسجيله ؛ وبقدر ما كان يظهر من أثر العقلي في المجتمع كانت تتطور وتعدد تلك الرسوم ؛ ولكن حينما ضاقت هذه الرسوم عن بكل ما يدور في أفق المجتمع ، وكل ما يقع تحت حسه الباطني أخذت الصورة الواجدة تدل على كثير من المعاني ، فأصبحت الكتابة بذلك وسطاً بين الرمز والتصوير ؛ وفي المرحلة النهائية للكتابة تنتقل إلى الرمزية الخالصة حيث تعجز الرسوم تماماً عن شرح وأداء ما يراد . وتاريخ الكتابة التصويرية يعتبر إلى حد كبير مرآة لتاريخ اللغة نفسها ؛ وكل من اللغة

والكتابة يمثل النمو العقلي في المجتمع بعد مرحلة الحس الخالص . وحينها
نصل اللغة إلى الدرجة التي تستطيع أن تسير بها المجتمع في إحساسه ،
تصوره ، وخياله ، وإدراكه للأمور فإنها تكون قد استعملت إلى حد
كبير ثروتها في التراكيب والأساليب كما استعملت ثروتها في المفردات .
حينئذ نجد أن هذه الطرق ، وتلك الأساليب هي التي تمهد للملاحظات
نحوية : ولاستنباط القواعد والأحكام التي هي من عمل النحاة .

هذا ولو استعرضنا تاريخ حياة اللغة على ضوء هذه الاعتبارات السريعة
وجدناها تمر بأطوار أساسية ثلاثة : طور الطفولة ؛ وطور الشباب ؛ وطور
النضوج . على أن المدة التي تقضيها اللغة في كل طور من هذه الأطوار
تتفاوت باختلاف الظروف والملابسات ، فقد تبقى اللغة في طفولتها لا تنقل
، طور آخر مادام الشعب في حياته البدائية الأولى كلمات الشعوب في
ريقا الوسطى ؛ وقد تنتقل طفرة إلى طور النضوج إذا أتيحت لها من
رسم ما يؤهلها لأن تأخذ مكانتها بين اللغات المهيمنة الراقية . وهكذا نجد
فإن ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، تتأثر بما يتأثر به سائر الظواهر الاجتماعية
أخرى ؛ وهذه الأطوار الثلاثة التي تكلمنا عنها إنما هي المراحل الرئيسية
لثلاث التي مرت بها كل من اللغة اللاتينية واليونانية . ونعتقد أنها هي
التي مرت بها اللغة العربية . وما يقال غير ذلك فليس بمقبول ؛ إذ
اللغة العربية لم تكن بدعاً ولا منفردة في نشأتها عن اللغات الأخرى .

.. وينبغي ألا يحول جهلنا بتاريخ هذه اللغة بيننا وبين الاطمئنان إلى هذا الافتراض ، كما ينبغي ألا يمنحنا ذلك الجهل أيضاً من تطبيق ما حصل في اللغات الأخرى على اللغة العربية من حيث النشأة والتطور ، إذ أن القوانين الطبيعية واحدة في ماهيتها وإن اختلفت في الشكل والمظهر ، هذا وما وجد حتى الآن من النصوص العربية القديمة ، سواء ما كان منها منقوشاً على بعض المقابر أم ما كان مدفوناً في بعض الأماكن ، يعتبر بداية طيبة لدرس تاريخ هذه اللغة ، ويذكر بأن وراء هذه النصوص نصوصاً أخرى سيكشف عنها البحث ، وستأتي ضرراً على نشأتها ، وتطورها . ولقد كانت أمثال هذه النصوص على قلتها وبساطتها في اللغة اللاتينية أساساً لمعرفة أوليتها ، ودرس تاريخها ؛ وما حدث في اللغة اللاتينية يشبه إلى حد بعيد ما حدث في اللغة الفرنسية . وليس من هدفنا في هذا البحث أن نعرض لتاريخ هذه اللغات ، قديمها وحديثها ، ولا أن نبين في وضوح عمود انتقالها مع ذكر المميزات لكل عهد ؛ ولكننا قد قصدنا بما تقدم بيان القوانين العامة ، والأسس الطبيعية التي تخضع لها اللغات ؛ ومنها يتضح موقفنا من اللغة العربية ؛ ونستطيع أن نحدد أهدافنا من درسها ؛ ونبدأ بعض الملاحظات على ما خفي من أمرها .

وإذن فمن هذا العرض السريع يمكننا أن نستخلص الحقائق الآتية :-
.. أولاً :- اللغة العربية التي نحن بصدد الكلام عنها لم توجد في أول عهدها

كاملة ناضجة ؛ فذلك يناقض القوانين الطبيعية العامة ؛ وإنما سارت على سنن غيرها من اللغات الأخرى ومرت بالمراحل الثلاث التي مرت بها سائر اللغات : طفولة ، شباب ، نضوج .

ثانياً : اللغة العربية كما نراها ونقرؤها تمثل المرحلة الثالثة ، التي هي عبارة عن مجهود زمن طويل ، وربما أجيال عديدة ، في سبيل تنوعها واتساعها وبلوغها إلى درجة من الدقة والرفق تستطيع معها أن تعبر عما تستلزمه حياة صاخبة في مجتمع عظيم .

ثالثاً : لم تلتزم اللغة العربية طرق الأداء الخاصة ، والنظام الدقيق في ملاحظته علامات الإعراب من حركات وحروف إلا في هذه المرحلة الأخيرة . أما ما سبقها من مراحل أخرى فليس من المعقول أن تكون كذلك من هذه الدقة والانضباط .

ومن هنا يظهر لنا فساد الرأي عند القائلين بأن اللغة العربية توقيفية في قواعدها كما هي في نظهم توقيفية في مفرداتها . وكذلك يظهر فساد رأي من قال بأن اللغة العربية لم تعرف اللحن مطلقاً ، أو أن العربي لا ينطق باللحن وليس من طبيعته أن يلحن . ليس هنا مجال عرض آراء هؤلاء العلماء ، ولا مناقشة هذه الآراء ، والرد عليها ؛ فسيكون لنا معهم بعد قليل موقف آخر ، نسألهم ، ونحلل آراءهم ، ونبين مدى مخالفتهم لطبائع الأشياء . ويغلب على الظن أن ما نجدده الآن في بطون

المكتب القديمة ، وفي ثانياً النصوص من أمثلة نحوية وشواهد أدبية خارجة عن تلك القواعد التي وضعها النحاة ، ثم التمسوا لها تخرجياً من تخرجياتهم حتى يتخلصوا منها وينسجموا مع قواعدهم ، فعالوها طوراً بالسماع ، وطوراً آخر بالشذوذ . نقول يغلب على الظن أن ما نجد من هذا القبيل إن هو إلا بقايا من اللغة العربية في مراحلها الأولى يوم أن كانت لا تلزم هذه الطرق المعروفة في الأداء ، ولا تتبع بالضبط هذه العلامات من الإعراب . وقد يتساءل القراء عن بقاء سبب هذه الآثار القديمة وعدم تطورها بتطور اللغة نفسها ، ولعلنا نجيب عن ذلك بأن تعليل استمرار هذه البقايا على ألسنة العرب ، وفي استعمال العربية حتى أيام نهضتها ، وبالوعها درجة الكمال ، سهل يسور . فالمسألة لا تعدو في نظرنا أحد أمرين :

١ - إما أن تكون هذه البقايا من الأمثلة النادرة أو الشاذة قد جاءت على لسان بعض القبائل العربية الأخرى غير قبيلة قريش . وحينئذ يمكن أن تعال هذه الأمثلة بأن تلك اللهجات العربية الأخرى التي لم تصل إلى ما وصلت إليه لهجة قريش من النضوج والكمال ، قد استمرت تمثّل فيها اليهود الأولى للغة حيث لا يلتزم فيها بأطراد نظام مخصوص للأداء ، ولا قواعد مضبوطة للتعبير ، كما هو الشأن في اللغات الأخرى . وحيث كانت القبائل العربية منفصلة متباعدة . لا تجتمع إلا في ظروف ضيقة ؛ وحتى في هذه الظروف لا يجتمع إلا بعض أفراد منها كرؤساء

القبائل ، والقائمين بشئون التجارة ، بما لا يكفي معه أن تتأثر لهجة قبيلة
بلهجة قبيلة أخرى ؛ فاستمرت العزلة ، وساعد على استمرارها ظروف
الحياة في شبه الجزيرة العربية حتى بعد نهضة قبيلة قريش ، ومحاولة الإسلام
الكبرى بتوحيد القبائل ، وجمعها على لهجة واحدة . وذلك عكس ما لوحظ
في شبه جزيرة اليونان ، وفي شبه جزيرة إيطاليا بالنسبة لما كان هناك
من لهجات متباينة ، ثم من صلات متبادلة ، وتوحيد في اللهجة سريع .

ولقد كان من نتيجة هذه الحياة ونظمها الاجتماعية في شبه الجزيرة
العربية أن أصبحنا نجد هذه الفوارق في طرق الأداء ، ونحس بما كانت
تحدثه من خلاف واضطراب عند رجال النحر واللغة حينما تصدوا لجمعها
ودراستها ، وتدوين ملاحظاتهم عليها . وإليك بعض الشواهد بما يلقى ضوءاً
على ذلك ؛ وقد حاولنا جمع هذه الشواهد في طوائف يكل طائفة منها
خاصه بقاعدة نحوية ؛ فما يختص بقاعدة أفراد الفعل منع تقدمه
على الفاعل المثنى أو الجمع نجد :

... جاءني بنو فلان ، وأكلوني البراغيث

وقول الشاعر

رأين الغواني الشيب لأح يعارضى • فأعرضن عني بالحدود النواضر

وقول الآخر

تج الربيع محاسنا ٥ ألحقها غر السحاب (١)

ومنها أيضاً قول أمية بن أبي الصلت :

يلوموني في اشتراء النخيل أهل فكاهم أوم

. وقول ابن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بسيفه ٥ وقد أسلاه مبعد وجيم

وقول الفرزدق ضمن قصيدة يهجو بها ابن سفيان الضبي :

واكن ديانى أبوه وأمه ٥ بخوران يعصرن السليط أقاربه (٢)

وقد جاء القرآن بأمثلة من هذه اللهجة فقال تعالى : د وأسرؤا النجوى

الذين ظلموا ، وقال : د ثم عموا وصموا كثير منهم ، . ومن ذلك

أيضاً ما روى : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

(١) انظر فقه اللغة للشعالي — القسم الثاني ؛ سر العربية ص ٤٨٨

(٢) هذه الأبيات الثلاثة قد ذكرها الحافظ جلال الدين عبد الرحمن

السيوطى فى كتابه د مع الهوامع على جمع الجوامع ، بمناسبة الكلام على القاعدة

النحوية التى ذكرناها ؛ ثم شرحها وعاق عليها الاستاذ أحمد بن الأمين

الشنقيطى فى كتابه — الدرر اللوامع — على مع الهوامع شرح جمع الجوامع —

ج ١ ص ١٤١-١٤٢ . وقد ذكر بعض النحاة أن هذه الشواهد قد جاءت

بلهجة طىء ، وقال بعضهم إنها لهجة أزد شوء ، الذين يأتون بالالف فى

الفعل مع المثنى ، وبالواو مع الجمع للذكر وبالنون مع الجمع للنونث . .

هذه الأمثلة لجمع الفعل مع تقدمه مع الفاعل الجمع تيسر لنا سبيل قول بأنه من المرجح أن تكون هذه الطريقة في التعبير أسبق من إعادة الدامة المعروفة الآن وهي أفراد الفاعل عندما يتقدم الفاعل الجمع ، لمقول أن يجمع الفعل مع الجمع ، ويفرد مع المفرد . وقد أحس بهذا مالي وأشار إليه ^(١) حين اعترف بأصالة هذا التعبير ؛ والثعالبي هو أولئك العلماء الذين امتازوا بقوة الإدراك ، ودقة الحس بالنسبة لحقيقة لغة العربية ، وأساليها ؛ وله في كتابه « فقه اللغة » مواقف عدة تؤيد هذا القول ؛ فكثيراً ما ثار على النحاة وانتقدتم في طريقة فهمهم لأساليب لغة ، ونبهه إلى أن اللغة ينبغي أن تدرك بالذوق والحس قبل أن تدرك لمنطق والعقل .

ومن العجيب أن نجد النحاة يقررون عكس هذا المبدأ ؛ فيسمون الة أفراد الفعل مع تثنية الفاعل أو جمعه قياساً ؛ ويكون العكس ن ، وهو تثنية الفعل مع الفاعل المثنى ، وإفراده مع الفاعل المفرد ، وجمعه مع الفاعل الجمع ، خروجاً عن القياس . ^(٢)

(١) فقه اللغة ص ٢٨٨

(٢) انظر الدرر اللوامع للشنقيطي ج ١ ص ١٤١

ومن القواعد النحوية أيضاً ، التي اهتم بها النحاة وأكثروا فيها من
الأمثلة والشواهد الخارجة على قواعدهم المقررة ، والمشيئة إلى لهجات قبائل
أخرى غير لهجة قريش ، قاعدة إعراب الأسماء الخمسة .

ومن ذلك أيضاً ما نجده في كثير من أبيات الشعر لشعراء قبائل
مختلفة قد اهتم بها النحاة ، وأوردوها في جملة من أبواب النحو مثل
الأسماء الخمسة ، والمثنى ، وجمع المذكر السالم وملاحقاته ، وجمع المؤنث
السالم ، وما لا ينصرف ... الخ

ونذكر من ذلك على سبيل المثال فقط لا على سبيل الاستقصاء قول
أبي النجم العجلي ، وهو من بني عجل من بكر وائل :

واها لريا ثم واها واها ه هي المنى لو أنسا فلناها

يا ليت عينيها لنا ونأها ه بشمن نرضى به أبأها

إن أبأها وأبا أبأها ه قد بلغا في المجد غايتاها

وهنا نلاحظ قصر الأب من الأسماء الخمسة على الألف : وكذلك
قصر المثنى على الألف في (غايتاها) . ومن قصر المثنى أيضاً قول
الشاعر : (١)

تزود منابن أذناه ضربة ه دعبه إلى هابي التراب عقيم

(١) شرح معجم الهوامع ج ١ ص ١٤ . هابي التراب = ما اختلط منه بالرماد ،
عقيم = لا يلد .

نلاحظ ، أذناه ، بدل ، أذنيه ،
وقول عمرو بن العاص ، في رواية ، حين حمله معاوية على مبارزة غبلى
ابن أبي طالب : مكره أخاك لا بطل .

ومن ذلك أيضاً ما جاء على لسان رجاز من ضبة كما يقول المفضل ^(١)

إن لسلى عندنا ديوانا * يخزى فلانا وابنه فلانا

كانت عجوزاً عمرت زماما * وهى ترى سيئها إحسانا

أعرف منها الأنف والعينانا * ومنخرين أشهباً ظبيانانا

نلاحظ ، عينانا ، و ، ظبيانانا ، مع ، منخرين ، .

ثم نلاحظ كذلك التزام فتح نون المثني في تلك اللهجة ، ويقال إنها
لغة بنى الحارث بن كعب ، إذ أنهم يقبلون الياء الساكنة إذا انفتح ما
قبلها ألفاً فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان ، والسلام علامكم .
قال ذلك أبو حاتم والأخفش . ^(٢)

ومن العرب أيضاً من يلزم المثني الألف ، ويعربه بالحركات على
النون ، من ذلك هذا البيت الوارد في كتاب المواقيت منسوباً إلى أبي
عمر الزاهد :

يا أبنا أزقنى القذان * فالنوم لا تطعمه العينان ^(٣)

^(١) شرح معجم الخوامع ج ١ ص ٢١

^(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢١

^(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢ . القذان = جمع قذة ؛ البراغيث

وما خرج عن قاعدة إعراب جمع التصحيح وما ألحق به ما روى عن جرير أنه قال أبياتا يخاطب بها فضالة العربي منها :

عرفنا جعفرأ وبني أبيه ، وأنكرنا زعانف آخرين

حيث روى بكسر النون في « آخرين » وقد قرر فريق من النحاة أنها لغة في الجمع . (١)

ومنها ما نقله الشنقيطي عن السيوطي : إلا الخلائف من بعد النبيين (٢) بكسر النون أيضاً في « النبيين » .

ومن الملاحظ بجمع المذكر السالم ماورد بلغة بعض بني تميم وبني عامر حيث يلزمونه الباء ويجعلون إعرابه على النون ؛ وذلك مثل بيت جرير الذي قاله ضمن قصيدة يهجو بها الفرزدق :

رأت من السنين أخذن مني « كما أخذ السرار من الهلال

حيث كسرت النون بالإضافة إلى (مر) .

وبيت آخر يروى لشاعر من خزاعة أو من جرهم . (٣)

ألم لتق الججيج سلى معدأ « سفيننا ما تعدد حسابا

حيث لزمت الباء أيضاً في « سفيننا » ونصبت النون .

(١) انظر: الدرر اللوامع للشنقيطي ج ١ ص ٢١ .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٠ .

وهكذا نستطيع أن نغضى في ذكر أمثلة من جميع المؤثرات السالم ،
اسم المنوع من الصرف قد شذت عن القواعد النحوية التي قررهما
ويون لها ؛ ولكننا نحيل القارئ إلى هذين البابين في مكتب النحوي
سعة كشرح ابن عقيل وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك ؛ وكتاب
على للزمخشري ، وعلى رأس هذه الكتب جميعاً كتاب سيبويه .

هذه الشواهد التي ذكرها النحاة في مؤلفاتهم وعلى رأسهم سيبويه ، وحاولوا
دعم فهمها فيها منطقياً وتعليل خروجها عن قواعدهم المقررة تعتبر في
قع بعيدة الدلالة ؛ فهي لا تقف عند إثبات لهجة من اللهجات كما
يون ، ولكنها تلقى ضوءاً على كثير من المسائل الحسابية في اللغة
بية ؛ إذ أنها تبين إلى حد بعيد طارق الأداء المختلفة عند القبائل ؛
لات الإعراب في اللهجات ، وطبيعة اللغة في العصر الجاهلي ومدى ما
هناك من خلاف في الأساليب مع توافق في المعنى .

والذي يزيدنا اهتماماً بهذه الأمثلة وتشبهاً بدراستها دراسة عميقة ، وفهمها
جديداً هو ما نجد من شبيه لها في النصوص القديمة من اللغات
ية كال يونانية واللاتينية ، فقد كانت هذه الأمثلة في هاتين اللغتين بمثابة
من اتبني عليه كثير من المسائل لفهم تاريخ اللغة ، وتطور الإعراب
. وما دامت اللغات في مجموعها خاضعة لنواميس طبيعية واحدة فإن

مقارنة اللغة العربية بنيرها من اللغات القديمة العربية يعتبر عظيم الجدوى لفهم ما غمض من مسائلها ، وما أهمل من موضوعات الدرس فيها . ولقد كان من نتائج هذه الدراسات المقارنة أن تذب لها كثير من العلماء فتوسعوا فيها حتى شملت كثيراً من العلوم كاللادب المقارن ، والنحو المقارن . والقانون المقارن ؛ وأكثر من ذلك إنها فتحت آفاقاً جديدة لفهم بعض الأمور في كل ميدان على حدة من ميادين المعرفة الإنسانية ، بل لقد تخطت بعض العلماء هذه الميادين جميعها وأدخلها في الأديان يقارنها ببعضها ، وبين مدى ما يمكن أن يكون بينها من تشابه واختلاف ، ومدى ما يمكن أن يكون بعضها قد استمد مبادئه وتعاليمه من البعض الآخر . لهذه الاعتبارات قد اعتمدنا في بحثنا ابتعاداً كبيراً على مقارنة اللغة العربية ونحوها بنيرها من اللغات الأخرى وما يتصل بها من دراسات ؛ وسيرى القارئ صوراً عدة من هذه المقارنة كلما امتدت به القراءة في هذا البحث .

عرضنا منذ قليل لبعض الشواهد الأدبية من لهجات القبائل المختلفة التي لا تتفق مع قواعد النحو المقررة ، وعرضنا لبيان وجهة النظر عند النخاة في فهمها ، ثم بينا وجهة نظرنا نحن إذا ما وجدناها وحاولنا دراستها . وأما ما نجمده من ذلك في القرآن أو في الحديث ، أو ما جاء عن لسان بعض القرشيين فيمكن أن يعال بتعليل آخر :-

ذلك أن يكون القرآن أو الحديث قد التجأ إلى هذه الطرق من التعبير

لفرض خاص استلزمه أمر بلاغى أو ظرف اجتماعى ، فأحياناً يلجأ البليغ إلى التعبير بأساليب قديمة ؛ إما لأن موضوع الحديث يستدعى ذلك ، وإما لأن المتحدث إليه تجمع له بذلك القديم صلة وثيقة ؛ وإما لاستحضار صورة من ذلك القديم لأغراض أخرى .

كفرض التأثير ، أو الإيقاظ ، أو التبجيل ، أو الذكرى ؛ فإن مجرد الإشارة فى كل هذا يغنى عن عبارة ؛ وقد اتخذ علماء البلاغة من هذا ميداناً لدرسهم وتكفلوا ببيانها ، وذكر الآثار النفسية والأدبية ، التى تحدثها هذه المارِق فى الأداء . ولم يكن ذلك بدءاً فى اللغة العربية ولا فى أساليبها ، فإننا نجد كبار الكتاب اليونانيين والرومانيين يصنعون ذلك فى أساليبهم لأغراض بلاغية كالأغراض التى ذكرناها من قبل ، فتكون هذه التعابير القديمة ، سواء أكانت خاصة باللغة أم بالقواعد النحوية ، فى ثنائيا الأساليب الحديثة بمثابة حليلة تزيئها ، أو لجة تكسبها قوة .

ومن أشهر من عرف بذلك شو فيرجيل ، أكبر شعراء اللاتينية فى ملاحمته ، والإيفياده ، وتيتوس ليفوس من أكبر مؤرخيها أيضاً فى تاريخه الرومانى .

ثم أننا نجد صدى ذلك كله واضحاً تمام الوضوح فى صنيع المؤلفين

المسرحيين ، تقديمهم وحديثهم على السواء . كأرسطوفان *Aristophane* ^(١) .
أوريبيد *Euripide* ^(٢) من اليونانيين ، وبلوت *Plaute* ^(٣) ، تيرانس
Terance ^(٤) من اللاتين ، وشكسبير *Shakespeare* ^(٥) من الانجليز ؛

^(١) أرسطوفان *Aristophane* عاش في القرن الخامس قبل المسيح .
اشتهر بشعره المسرحي في أثينا وله أحد عشر مسرحية انتقد فيها الأدب
والسياسة في عصره .

^(٢) أوريبيد *Euripide* ولد نحو سنة ٤٨٠ ق.م ومات سنة ٤٠٦
أو ٤٠٥ ق.م شاعر مسرحي أيضاً وله عدد كبير من المسرحيات يصف
فيها نزعات الحب ، وبمعالج الناحية العاطفية بمعالجة دقيقة .

^(٣) بلوت *Plaute* ولد نحو سنة ٢٥٠ ق.م ، مات نحو سنة
١٨٤ ق.م
شاعر مسرحي روماني وقد استطاع أن يصور في مسرحياته نزعات
عصره وأخلاق المجتمع .

^(٤) تيرانس *Terance* شاعر مسرحي روماني ولد في قرطاجنة سنة ١٩٤
ق.م ومات ١٥٩ ق.م وهو من العبيد المحررين وله عدد كبير من
المسرحيات قلدها المسارح اليونانية .

^(٥) شكسبير *Shakespeare* ولد سنة ١٥٦٤ ومات ١٦١٦ م
أكبر شاعر مسرحي إنجليزي وله عدد كبير من المسرحيات المشهورة ،
وقد استطاع أن يصور بصدق كل الإحساسات وكل نزعات الحب .

وكورنى *Cornelle* ^(١) ، وموليير *Molière* ^(٢) ، ورأسين *Racine* ^(٣) من الفرنسيين. هؤلاء جميعاً قد لاحظوا في مسرحياتهم هذه الاعتبارات ملاحظة دقيقة ؛ إذ أنهم في حاجة إلى تصوير شخصياتهم ووصف مناظرهم تصويراً ووصفاً حقيقين أو شبيهين بالحقيقة حتى يكون المنظر على نفس الناظر أعظم وقماً ، وأبعد أثراً ؛ فإن كانت أشخاص المنظر من القدماء استحضروهم بزيئهم وأجروا على ألسنتهم نفس لمجاتهم وأساليبهم وألفاظهم وتركوا منطقهم يعبر عن تفكيرهم ، ويشرح مبلغ ما لديهم من ثقافة ومعركة ؛ وإن كانت أشخاص المنظر من المحدثين لاحظوا في تمثيلهم وتصويرهم كل ما يتصل

^(١) كورنى *Cornelle* ولد سنة ١٦٠٦ ومات ١٦٨٤ وهو أبو التراجيدى الفرنسية كما يقول رجال الأدب في فرنسا . وله عدد كبير من المسرحيات يصور فيها أخلاق عصره .

^(٢) مولير *Molière* ولد سنة ١٦٢٢ مات ١٦٧٣ م وهو شاعر مسرحى وممثل ومدير لمسرح في آن واحد . وقد نجح في ميدان المسرحيات منذ أبسطها حتى أسماها . وقد خدم بمسرحياته لغة الأدب وله عدد كبير من المسرحيات .

^(٣) رأسين *Racine* ولد سنة ١٦٣٩ مات ١٦٩٩ م وقد قلاد القدماء في مسرحياتهم وأساليبهم التى تدور حول تصوير الغواطف والإحساسات . وله عدد عظيم من المسرحيات .

بظروفهم الاجتماعية ، والثقافية ، والأخلاقية ، وحارلوا إبراز هذا كله
في هياتهم وفي لغتهم ، وأساليبهم ؛ وكلهـ! كان نجاح المؤلف المسرحي
عظيماً في هذه الأمور ، كانت مكانته في التأليف أكبر ، وشهرته أوسع .
وإذن فعلى ضوء هذا المبدأ البلاغي الذي يكاد يكون مبنياً على إحساس
فطري يمكن أن يفهم ما جاء في القرآن والحديث موافقاً للهجات القبائل
العربية الأخرى غير قبيلة قريش .

ومن أمثلة ذلك في القرآن ما تجده في قوله تعالى :

وأسروا النجوى الذين ظلموا .

ثم عموا وصموا كثير منهم .

واتبعوا ما تتلوا الشياطين .

وفي الحديث :

يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

وكل ذلك خاص بجمع الفعل مع تقدمه على الفاعل الجمع .

ولعل من هذا القبيل أيضاً ما تجده في القرآن من مخاطبة الواحد بلفظ
الاثنتين كقوله تعالى مخاطباً مالكا خازن النار : د ألقيا في جهنم كل كفار
عندي .

ومن ذلك أيضاً ما يلجأ إليه القرآن من تأنيث بعض الأسماء مرة

وتذكيرها أخرى دون أن يلتزم طريقة واحدة في هذه الأسماء ومنها :

« وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، ثم يقول بعد ذلك : إذا رأيتم
من مكان بعيد . » فمرة ذكر السعير ومرة أنه .

« إذا السماء انشقت . » « السماء تنفطر به . »

فمرة ذكر لفظ السماء ومرة أنه .

ومن هذا القبيل أيضاً ما نجده في القرآن من التزام المثنى للآلف
في حالة النصب والرفع مثال ذلك قوله تعالى :

« إن هذان لساخران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما . »
ومن ذلك أيضاً ما ورد عن السيدة فاطمة رضي الله عنها أنها قالت :
(يا حسن يا حسين .)

إن ما أوردناه من الأمثلة وما هو موجود في كثير غيرها يمكن
بسهولة أن يعمل بما ذكرنا ، ثم إنه فوق ذلك يلقى ضوءاً قوياً أمام
الباحثين بالنسبة لمن يدرس اللغة العربية وتطورها ، والنحو العربي ونشأته ،
إذ أننا لو استعرضنا كل ذلك مع ملاحظة تطبيق هذين المبدأين المنطقيين :
البسيط يسبق المركب ، وما يدركه الحس يسبق ما يدركه العقل ؛ نقول لو
استعرضنا هذا الخليط من الشواهد العربية مع ملاحظة هذين المبدأين لحل
أمانا كثير من المشاكل التي لم يتنبه لها نحاة العرب ، ولاستثمار طريق
وضع تاريخ لتطور قواعد النحو من وجهة النظر الفنية لا العلمية ؛ فنذكر
مثلاً أن التزام قاعدة الإعراب بواسطة الحركات كانت أسبق إلى
الانضباط منها إلى الإعراب بواسطة الحروف ؛ ونذكر كذلك أن

الألفاظ الدالة على المحسوسات كانت أسبق في الوجود من الألفاظ الدالة على الأمور المعنوية ؛ وأن الألفاظ المكونة من مقطع واحد — أى من حرف متحرك وآخر ساكن — أسبق من الألفاظ المكونة من مقطعين أو ثلاثة .

وهذا ما سار عليه الأب انستاسى مارى الكرملى في كتابه ، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها ، وما سنير عليه عند الكلام على النحو العربى ونشأته .

إن ما أوردناه من أمثلة حتى الآن ، وما حاولناه من تعليل لوجود هذه الشواهد في القرآن وفي الحديث ، وفي كلام بعض القرشيين إنما هو من قبيل العرض ، والوصف لما هو كائن ؛ والتعليل لبقائه واستمراره حتى سادت لهجة قريش وعمت أساليبها ؛ أما تعليل نشأته فإننا لم نتعرض لذلك بالتفصيل . وينبغى ألا نختم بحثنا في اللغة العربية ، وألا ننتقل إلى البحث في النحو قبل أن نبين السبب في نشأة هذه الطرق المختلفة في التعبير التي كانت من جرائها هذا التمايز في اللهجات ، وذلك الاضطراب في الأساليب ؛ إننا نرجح أن مصدر هذا الخلاف في تذكير بعض الأسماء وتأنيثها على السواء ، وفي إعرابها مرة بالحروف ، ومرة بالحركات ، وفي دلالتها طوراً على معنى ، وطوراً آخر على معنى يخالف المعنى الأول ؛ نقول إن مصدر كل هذا يمكن أن يرجع بصفة إجمالية إلى تعدد اللهجات ؛ فبعضها

كان يستعمل ألفاظا على أنها وثنية ، والبعض الآخر كان يستعملها على أنها مذكرة ؛ وبعضها كان يستعملها بمعنى ، والبعض الآخر كان يستعملها بمعنى آخر .

وليس من السهل أن يكون الأمر كما وصفنا لإحينا كانت القبائل العربية منفصلة تماماً ؛ وكل قبيلة تتخلق من الألفاظ وتكون من التراكيب ما يتلاءم مع بيئتها ، وظروفها الطبيعية والاجتماعية .

وما نحن أولاء لا زال نجد صورة حية من ذلك بين قبائل البدو المختلفة الضاربة في صحراء مصر الشرقية ؛ فلقد جمعنا منذ سنتين مجلس مع أحد البدو المقيمين في الصحراء قريباً من مدينة حلوان ؛ وسار بنا الحديث حتى تكلمنا عن لهجات القبائل البدوية المختلفة ، ومكث يقص علينا أوجهاً من الخلاف في الألفاظ وفي المعاني ، وإن هذه القبيلة مثلاً تعبر عن نفس المعنى بلفظ كذا ، وتلك القبيلة تعبر عن نفس المعنى بلفظ آخر ؛ ثم ذكر حادثة كان هو شاهد عيان فيها قال : اجتمع أحد البدو بشيوخ قبيلة تقيم بناحية الفيوم ، وفي أثناء الحديث انتسب البدوي إلى قبيلة معروفة من القبائل الضاربة في الصحراء الشرقية ما بين مدينتي حلوان والصف ؛ ولكن شيوخ القبيلة قد لاحظوا عليه لكنة غريبة ولهجة لا تتفق مع لهجة القبيلة التي انتسب إليها ؛ فتصدى له أحدهم ، ووجه إليه بضعة أسئلة يلجأ إليها البدو عادة في مثل هذه الظروف لكي يميزوا أفراد قبيلة من أفراد قبيلة أخرى ؛ ذلك أن

ذكر له جملة أسماء لمسميات ، ثم طلب منه أن يذكر أسماءها في القبيلة التي انتسب إليها ؛ فراح ذلك البدوي يذكر أسماءها كما يعرف ؛ ولم يمضِ طويل حتى كشف أمره وعرف كذبه ، وتبينوا أنه أجنبي عن تلك القبيلة جاء من قبيلة أخرى متكرراً يريد بأحد الأفراد شراً .

هذه الحادثة هي بلا شك ، صورة لما كانت عليه لهجات القبائل العربية في العصور الجاهلية الأولى ، ولما كانت تمتاز به لهجة قبيلة عن لهجة قبيلة أخرى ؛ ولكن حينما بدأت هذه القبائل تتصل ببعضها ، وأخذت لهجاتها بحكم هذا الاتصال تتقارب ، نشأ فيما نمتد ، ما يشبه أن يكون لغة عامة يشترك جميع القبائل في التفاهم بها وإن انفردت كل قبيلة بلهجتها الخاصة ؛ هذه اللهجة أو هذه اللغة كانت ممثلة في لهجة قريش التي سادت شبه الجزيرة العربية بمكانتها الدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

هذه اللهجة الموحدة لم تنضج ولم تتسع إلا على حساب اللهجات الأخرى ، أي أنها أخذت من اللهجات العربية ما تستحسنه من الألفاظ والتراكيب ، وطرق الأداء ؛ ثم مزجت ذلك كله ، وأبرزته في صورة لغة موحدة .

وإذن فإننا نزع أن أكثر ما في اللغة العربية على الأقل من مترادفات ، ومن طرق متنوعة لبيان معنى الواحد ، ومن أساليب إعرابية متعددة لنفس التركيب الواحد ، إن هو إلا أثر من آثار تلك اللهجات العربية التي أخذته لهجة قريش . وأضافته إلى ما كان فيها من

ألفاظ وأساليب .

وإن نظرة إلى النص القرآني ، وما فيه من مفردات كانت تختص بقبائل أخرى غير قبيلة قريش لترينا إلى أي حد كانت تستمد ألفاظاً من اللهجات الأخرى ، وإلى أي حد كانت لغة القرآن صدى للهجات العرب جميعاً . وقد لفتت هذه الظاهرة في نص القرآن نظر علماء الإسلام فكتب بعضهم في هذا وحاول أن يشير إلى ما في القرآن من ألفاظ غير قرشية ، ثم عزا كل لفظ من هذه الألفاظ إلى القبيلة التي هو مأخوذ منها . (١)

(١) انظر كتاب اللغات في القرآن أخبر به اسماعيل بن عمرو المقرئ عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس

تحقيق ونشر صلاح الدين المنجد

وقد ذكر صاحب هذا الكتاب مجموعة من الألفاظ الخاصة بالقبائل العربية ونسب كل لفظ إلى القبيلة التي تنطق به ؛ ثم إنه قد ذكر الألفاظ الواردة في القرآن والخاصة بقبيلة قريش دون أن يشركها فيها غيرها . والألفاظ المذكورة في هذا الكتاب تدل على مبلغ ما جاء في القرآن من لهجات القبائل المختلفة لا فرق بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها ولا بين شرقيها وغربيها وإليك أسماء القبائل التي أخذ القرآن من ألفاظها :

قريش ، هذيل ؛ كنانة ، حمير ، جرم ، تميم ، قيس عيلان ، جثعم ، أزد شنوءه ، أهل عمان ، طيء ، مذحج ، مدين ، غسان ، بني حنيفة ، حضرموت ، أشعر ، أنمار ، خزاعة ، بني عامر ، لخم ، =

== كنده ، نسباً ، أهل البمامه ، مزينة ، ثقيف ، سدوس ، سعد
العشيرة ، العالقة ، عذره ، الأزد ، تغلب ، الأوس ، همدان ،
ونجد في الصفحات الأولى من هذا الكتاب جدولاً يذكر اسم هذه
القبائل ويشير إلى عدد الألفاظ التي أخذت من كل قبيلة :

عدد الألفاظ

اسم القبيلة

١٠٤

قریش

٤٥

همذیل

٣٦

كنانة

٢٣

حشیر

٢١

جسرهم

١٣

تمیم ، قیس عیلان

٦

أهل عمان ، أزدشنویه ، خثعم

٥

طیء ، مذحج ، مدين ، غسان

٤

بنو حنیفة ، حضرموت ، أشعر

٣

أنمار

٢

جزاعة ، بنو غامر ، لخم كنده

سبأ ، أهل البمامه ، مزينة ، ثقيف ، العالقة ، سدوس ، سعد العشيرة

ويؤيد هذا الفرض الذي افترضناه بالنسبة للغة العرب ما حدث بالنسبة للغة

اليونانية ، ولغة اللاتينيين ، ثم للغة الفرنسيين من حيث وجود مفردات متعددة لمعنى

واحد بعد أن توحدت لهجاتها في لغة واحدة ، ومن حيث وجود التردد في التذكير

والتأنيث لبعض الألفاظ ومن حيث وجود الطرق المختلفة للتعبير عن الفكرة

الواحدة . ولدينا أمثلة عديدة لكل هذا في كل من هذه اللغات الثلاث ؛

ولولا أن ذلك يغدنا عن بحثنا ، وبطيل ما لجسأنا إليه مضطرين من

استطراد لآتيننا على الكثير منها .

والآن بعد كلامنا على اللغة وما يتصل بها نوجه همنا إلى الكلام على

النحو وما يتصل به .



نشأة النحو العربي

لسنا نبني من وراء هذا البحث أن نتناول النحو العربي كما تفاهم عليه العلماء أو كما نجده مدوناً في كتبهم. ولكننا سنذهب إلى الوراثة البعيدة ؛ ونتناول النحو تناولاً لم يمهّد حتى الآن ؛ فنبين حقيقة ؛ ونذكر موضعه من اللغة ؛ ونشرح الصلة بينها على ضوء نشأة كل منها وإذن فما لاشك فيه أن النحو العربي كغيره من سائر العلوم الأخرى ؛ قد نشأ فناً قبل أن يكون علماً ؛ أي أن هذه الطرق الخاصة للأداء في اللغة العربية قد التزمت بإطراد في تراكيبها وأصاليها ومرنت عليها ألسنة العرب وتمسكت من طبائعهم قبل أن توضع لها القواعد النحوية المجردة وضماً عليها وتدرس دراسة مستقلة لتعرف وتحتذى .

وإذن فنحن أمام نحويين إن صح هذا التعبير ؛ نحوي فني ؛ ونحوي علمي . أما النحو الفني فهو جزء من اللغة وعنصر أساسي من عناصر تكوينها كافة مهبطة راقية ؛ وهو في نشأته في اللغة يكاد يكون فطرياً وإن كان الأساس في وجوده هو المجهود العقلي . فإن اللغة بعد أن تتجاوز مرحلة الطفولة ؛ ويبدأ العقل يتصرف فيها من حيث الاشتقاق ، والنحت ؛ والتصريف ، ثم من حيث التراكيب ووضع الضوابط المميزة بين هذه

التركيب بالنسبة لأدائها للمعاني : نجد نفسها مضطرة بحكم مسايرتها لظروف المجتمع إلى التزام بعض الضوابط لتمييز بعض التراكيب عن بعض ، وللمعرفة وظيفة كل لفظ بالنسبة لموقعه من الجملة . هذه الضوابط في صورتها الأولى هي عبارة عن النحو الفني .

وهو كسائر الفنون يسبق النحو العلمي ؛ ففن الهندسة أو الهندسة العملية وجدت قبل أن يوجد علم الهندسة ؛ وفن النحت وجد قبل أن توجد النظريات العلمية له وفن الموسيقى وجد قبل أن تسجل نظرياتها العلمية .

ولا نزال نرى في الطلبات الدامية من الشعوب فنانين قبل أن يدرسوا هذه الفنون أو يتلقوا نظرياتها عن أساتذة أو في معاهد خاصة . فهناك الموسيقيون وهم لا يعرفون شيئاً عن علم الموسيقى ، وهناك البنائون وهم لا يعرفون شيئاً عن النظريات العلمية في العمارة . وهناك الزارعون وهم لا يدرسون شيئاً عن مسائل الزراعة ، بل وهناك الأطباء وهم لا يؤدون شيئاً عن علم التشريح . وهكذا لو استعرضنا تاريخ الشعوب وتاريخ حضاراتهم لوجدنا أنهم كانوا في كل شيء فنانين قبل أن يكونوا علماء ، وأن مظاهر الفن قد سبقت نظريات العلم . وعلى هذا فإن اللغة كما ذكرنا منذ قليل حينما تدخل في دور الفن في الألفاظ والتوسع في التعبير يبدأ العقل الاجتماعي في وضع ضوابط يمكن بها تمييز المعاني بعضها عن بعض ، ويسهل بواسطتها فهم الأساليب العديدة المتنوعة ، والنحو الفني وإن لم يصاحب اللغة من يوم نشأتها

إلا أنه يلزمها من يوم نموها ولا ينشأ عنها مادامت هي في سبيل الحياة
ومن هنا كان ذلك النحو واحداً في كل اللغات لا يختلف في لغة عنه في لغة
أخرى إلا بمتاع، أما ما يختلف لغة عن لغة أخرى في ألفاظها ودلالاتها وخواص
تراكيبها .

ومن هنا أيضاً كانت نشأة ذلك النحو طبيعية في كل لغة قدر لها أن
تكون لغة أدب وعلم وفن .

ولعل القراء يتساءلون الآن عن تاريخ ذلك النحو الفني ، وعن الحالة
التي كان عليها في عهده الأول ، وعن الظاهرة الأولى التي بدت لتكون بمثابة البنية في
بناء تلك الضوابط النحوية العملية ؛ ونحن نقرر أنه ليس من السهل أن نجيب
عن هذه الأسئلة ، إذ الفرق بعيد جداً بين تاريخ الفنون وتاريخ العلوم
فالجزء من الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى للإحساسات ؛
والإحساسات قديمة النشأة في الإنسان ، دقيقة التكوين فيه . أما العلم
فهو تجريد أو وصف لما تمتاز به الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى
للعقل ؛ والعقل يحى بعد مرحلة تكوين الإحساس .

ومن هنا كان تاريخ الفن تاريخاً حقيقياً من المسائل الصعبة بل من
المشكلات ؛ أما تاريخ العلم فسهل ميسور متى عرفت ظروفه وجمعت وثائقه . وإن من
يدعى تاريخ الفن بهذا الاعتبار الدقيق كن يدعى معرفة أول بيت بني على
الأرض ، وأول نبت نبت فيها ؛ وذلك وهم وخيال .

... وإذن فكل محاولة لتاريخ النحو بمعناه الفني تعتبر محاولة عابثة ؛ غير

نستطيع أن ننظر في تلك الضوابط النحوية التي تميز تراكيب اللغة ،
 تابع أن نستعرضها في مجموعها لنقارن بين مظاهرها المختلفة في الكلام ،
 ألفاظ تلزم حالة واحدة في النطاق مما تغير موضعها في الجملة كالمبنيات ،
 ألفاظ تتغير بتغير التراكيب كالمعربات ؛ ثم من هذه الألفاظ المتغيرة
 تنحيز بالحركات فقط كالرفع ، والنصب ، والجزم ، والجر ، ومنها ما يكون
 التغير فيها بواسطة الحروف كالألف ، والياء ، والنون .
 وعلى ضوء ذلك النظر ، وهذه المقسامة نستطيع أن نقرر ولو على
 مل الافتراض أن بعض هذه الظواهر كان أسبق من بعضها الآخر ،
 بعضها قد تطور من حالة إلى أخرى بينما التزم البعض الآخر نفس
 له التي عرفت بها منذ القدم .

وقبل أن ندخل في تفصيل الكلام عن هذه الظواهر الفنية في تراكيب
 العربية نحب أن نذكر أولاً أننا نستبعد تماماً أن تكون اللغة العربية
 وجدت أول ما وجدت وفيها تلك الظواهر الفنية ، أو أن تكون
 عرفت أول ما عرفت وهي متميزة بضوابط الإعراب المختلفة . وليس
 أن نحض في الاستدلال على صحة ما ذهبنا إليه ، ففساد التكوين
 بدعي ؛ وسيكون لنا في هذا الموضوع كلام آخر .
 وعلى هذا فإننا نتناول الآن بعض ما يبدو لنا من ملاحظات على
 طبيعة هذه الظواهر ، وما يمكن أن يصل إليه من نتائج .

كما أن حالة الإفراد في اللغة ، على غيره ما تقدم من ملاحظات
تسبب حالة الجمع ، نستطيع أن نقول ونحى مطمئنون أن حالة الإعراب
بواسطة الحركات من رفع ونصب وجرح سبقت حالة الإعراب بالحروف
من ألف وواو وياء ونون ؛ وليس أدل على ذلك من الإبقاء على الإعراب
بتلك الحركات مع وجود هذه الحروف وذلك في بعض اللهجات كأن
يقال مثلاً :

جاء الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان .
رفع النون في الأول ، ونصبها في الثاني ، وجرحها في الثالث ؛ وعلى هذه
اللمجة ورد البيت الذي تقدمت الإشارة إليه منذ قليل :

يا أيها أرقى التمدان ، فالنوم لا تطعمه العنان .
ومن ذلك أيضاً ما ذكره الإمام الشافعي عن الشيباني من ورود هذا
المثال : هما خليلان ، بالتزام ألف الثانية وضم النون .^(١) ومن هذا
الباب أيضاً ما سمع من السيدة فاطمة رضي الله عنها — يا حسنان
ويا حسيدان — ؛ وقد قيل إن ضم النون في هذه الأمثلة وما شابهها لغة
عن بعض القبائل .

ومن ذلك أيضاً ما ورد من الإعراب بالحركات في الجمع وملحقاته مع

(١) — الدرر اللوامع على جمع الهوامع للشافعي ج ١ ص ٢٢ .

وجود الحروف وهي لهجة لبعض بني نعيم وبني عامر ؛ إذ كانوا يلزمون الباء للجمع ويبقون على الإعراب بالحركات مثل بيت الشعر لجرير ، الذي ذكرناه فيما مضى من قصيدة يهجو بها الفرزدق :

أرى مر السنين أخذن مني « كما أخذ السرار من الهلال »^(١)
ومثل هذا البيت وهو فيما يظهر لشاعر من خزاعة أو من جنهم كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ألم نسق الجميع سبي مددا = سفيناً ما تعد لنا حساباً^(٢)
ومثل هذا البيت أيضاً :

رب حي عزندس ذي طلال « لا يزالون ضاربين القباب »^(٣)
ويمكن الاستدلال على صحة هذه النظرية (الإعراب بالحركات ونجد قبل أن يوجد الإعراب بالحروف) بما يأتي :

أولاً :- البسيط يسبق المركب ، والإعراب بالحركات بمثابة البسيط والإعراب بالحروف بمثابة المركب .

ثانياً :- الإعراب بالحروف وجد في ألفاظ لا يمكن أن تكون قد وجدت واللغة في حالتها الأولى ، فالمثنى والجمع وجدّا حتماً بعد الألفاظ المفردة ، ووجودهما يدل على تطور في اللغة ، ويتبع ذلك أن علامات إعرابها قد وجدت بعد علامات إعراب المفردات .

ثالثاً :- ما جاء في بعض اللهجات من شواهد وأمثلة فيها علامات

(١) انظر شرح فمع الهوامع ج ١ ص ٢

(٢) المتصدر السابق : عزندس = شديد ، طلال = الحالة الحسنة ، ضاربين =

ضاربين القباب = ضاربين بيوتهم = ضاربين بيوتهم = ضاربين بيوتهم

الإعراب بالحركات مع وجود الحروف ، وقد تقدمت طائفة كبيرة من تلك الشواهد ، ويمكن العثور على مئات منها مبعثرة في كتب اللغة والنحو ..

رابعاً :- النسبية فيما نجده في اللغة معرباً بالحروف بجانب ما هو معرب بالحركات ، فلقد جمع النحاة ما هو معرب بالحروف فيما يأتي :-

الأفعال الخمسة : يفعلون ، يفعلون ، ويفعلان ، وتفعلان ، وتفعلين .

والأسماء الستة : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وقورك ، وحنوك ، وذو مال .

ثم المثني ؛ والجمع للذكر السالم ، وما أُلحق بهما .

وبهذه الأنواع الأربعة يمكن أن ترجع إلى نوعين اثنين هما المثني والجمع .

أما الأفعال الخمسة فيمكن أن تلحق بالمثني والجمع إذ أنها

صور منها . وكذلك الأسماء الستة فهي إما أن تكون حروفها امتداداً

لحركات الإعراب الحقيقية الموجودة على الحروف السابقة ؛ وإما أن تكون

مضافة ، أي مركبة ؛ فتلحق بالمثني أو بالجمع من حيث إضافة شيء جديد إلى

الاسم في حالته الأولى ، وهي إذا قطعت عن الإضافة رجعت إلى الإعراب

بالحركات كالمثني والجمع إذا رجع كل منها إلى حالة الافتراد ..

وعلى هذا فالثلاثة تبدو واضحة ؛ إذ أننا لا نجد ما يعرب بالحروف على

هذا الاعتبار سوى المثني والجمع وما بقي فهو ملحق بهما ، ولنا في صنع النحاة

وفي احتيلاجهم تأييد لما ذهبنا إليه ، فقد قالوا إن هذه الحروف في تلك

الأنواع التي تعرب بها ليست إلا نياحة عن حركات الإعراب ..

وهناك ملاحظة أخرى تتعلق بهذه الحروف التي نابت عن الحركات في الإعراب ؛ ذلك أننا نرجع أن الإعراب بهذه الحروف من واو ونون . ومن ياء ونون ، ومن ألف ونون ، لم يوجز . كذلك حزمة واحدة ، ولم تلتزم طرق الأداء به من أول الأمر بهذه الصورة التي نراها الآن ، وإنما يوجد الحرف الأول وهو الألف أو الواو أو الياء ، وسارت اللفظة على ذلك مدة من الزمن ، ثم التزمت النون بعد ذلك .

ولنا على هذا ما نجده مثلاً في اللفظة اللاتينية ، قبيل أن تستقر فيها علامات الإعراب وتلتزم طريقة خاصة ؛ فقد كانت بعض العلامات الإعرابية المكونة من حرفين فأكثر غير مستعمرة على نظام ، وغير كاملة العدد بالنسبة للحروف التي نراها مكونة لعلامات الإعراب بعد أن شمل اللفظة نظام واحد من الإعراب . ويتأكد يكون هذا طبيعياً في تطور اللفظة ، فالكمال . مسبوق بنقصان . وستعرض بعد قليل لكثير من الأمثلة في اللفظة اللاتينية يتضح منها حالة تلك العلامات الإعرابية قبل أن تأخذ وجمعها النهائي .

وعما يمكن الاستدلال به على هذا في اللغة العربية هو ما نراه في بعض اللهجات من أمثلة وشواهد ، وسأحاول النحاة أن يوجدها لها تخرجياً أو تليلاً كدأهم في كل ما يتنافى مع قواعدهم أو يشذ عنها .

وهذه بعض الأمثلة كما نراها في كتب النحر واللفظة :-

ها خطنا إما إسار ومنه . وإما دم . والقتل بالحر أجدر

وتقدم. ويرد هذا البيت ضمن أبيات في جماسة أبي تمام ، وقد استشهد به النحاة على أن النون في « خطمان » قد حذفت للإضافة المقبرة ، وراحوا يتأولون هذا المضاف المحذوف . ورأى فريق منهم أن المضاف إليه هو إسمار . وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه بـ إما

« وأما ابن جني فإنه يرى رفع « إسمار » ويستجوده . »^(١)

ومعنى هذا أنه يقر حذف النون من المثني مع عدم الإضافة إلى كلمة « إسمار » ، وأصرح من هذا ما ذكره البغدادي من أن هذا الشاهد وأمثاله قد جاء بلغة من يحذف نون التثنية من القبائل دون أن يكون هناك ما يستدعي حذفها كالإضافة

وقد ذكر من ذلك أمثلة شعرية وأخرى ثرية تؤيد وجود هذه اللغة عند العرب . ومن ذلك أيضاً هذا البيت :-

تخليلي ما إن أنتم الصادقا هوي إذا خفتما فيه عذولا وباشيا

وقد علل النحاة حذف النون من « الصادقان » للاقتصار ، ولم يشيروا مطلقاً إلى احتمال أن تكون هذه هي الحالة الأولى لطريقة الأداء في التعبير بالمثنى أو الجمع ، وذلك بالرغم من تعليلهم أحياناً ما يروونه من شذوذ على القواعد النحوية بأنه قد جاء على لغة قبيلة كذا ، أو بلهجة قبيلة كذا

^(١) - شرح: مع التوامع ج ١ ص ٢٢

وكانهم بهذا يفهمون أن اللغة وجدت كاملة ناضجة لم تتعثر في طريق تكوينها ، وأن النحو وطرق الأداء كما يتصورونها قد نشأت تامة شاملة ، وفي دفعة واحدة . وظاهر جداً أن عدم ترويض النحاة في المسألة ، أو عدم تنبيههم إلى تلك المراحل الطويلة التي مرت بها اللغة والنحو ، وهما في طريق التكوين ، قد جعلهم يتفنون في التعديلات ، ويمعنون في التخريج : حتى ولو كان ذلك على حساب المعنى في الجمل والتراكيب . بل إنهم قد يتفاضلون عن المعنى أحياناً ؛ ويأجثون إلى تأويلات غريبة تضره أو تفسده .

ولهم في ذلك مواقف عدة يظهر منها تمسكهم الشديد بحرفية القواعد التي وضعوها أو تلقوها ؛ من هذه المواقف ما نجده في بعض الشواهد الأدبية وطريقة تحكمهم في فهمها ، وفي بعض الآيات القرآنية ومحاولتهم فرض قواعدهم على قراءتها ، وتخويف القراء إن هم أخلوا بتلك القواعد . على أنه ينبغي أن نحاط في هذا الحكم بالنسبة للنحاة فلا نهمهم جميعاً بهذا الجور في التفكير ، والصلافة في تطبيق القواعد ، إذ أن منهم وهم أوائل النحاة ، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد وسيبويه والقراء من كانت درايتهم باللغة واسعة ، وذوقه في إدراكها سليم .

وكتاب سيبويه يشتمل على أمثلة عدة تبين إلى أي حد كان مؤلفه يحتمل إلى اللغة لا إلى القواعد النحوية ، وينفذ إلى طبيعتها وطبيعة الناطقين بها وظروف المعاني التي قصد بها التعبير عنها ، دون أن يتف عند شكلها الظاهري

وملاحظتها المنطقية ، التي كثيرا ما تتنافى مع طبيعة نشأتها وتطورها .. من ذلك ما نجده له عندما يجانب النحو وضوابطه ويتكلم عن اللغة من حيث أدائها المعاني ، فيناقش الحجة مناقشة المدرك لأسرارها البلاغية : ولماقتضيات ظروفها وأحوال الناطق بها .

ومن ذلك أيضاً ما نراه عندما يناقش مسألة نصب بعض الأسماء دون أن يكون في الكلام فعل ظاهر يعمل فيه ، فإنه يفهم النصب على أنه من طبيعة الاستعمال العربي ، لا على أن الضوابط النحوية هي التي أدت إلى هذا .

يقول سيويه^(١) في هذا : ((وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام ؛ ولعلم المخاطب أنه محذول على أمر ؛ ونظير ذلك قولك : انت يا فلان أمراً قاصداً ، إنما أرذت انت وآت أمراً قاصداً ، إلا أن هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل ، ومثل ذلك قول القطامي :

فكرت تبتغيه فوافقته على دمه ومصرعه السباعا

ومثله قول ابن الرقيات :

لن تراها ولو تأملت إلا ولها في مفارق الرأس طيبا

وإنما نصب هذا لأنه حين قال وافقته وقال لن تراها فقد علم أن الطيب والسباع قد دخلا في الرؤية والموافقة وأنها قد اشتملا على ما بعدها

(١) - سيويه - الكتاب ج ١ ص ١٤٣

في المعنى ، ومثل ذلك قول ابن قتيبة :

تذكرت أرضاً بها أهلها = أخوالها فيها وأعمالها

لأن الأخوال والأعمام قد دخلوا في التذكر . ومثل ذلك فيما زعم الخليل :

إذا تغنى الحمام الورق ميعنى = ولو تغربت عنها أم عمار

قال الخليل : لما قال ميعنى عرف أنه قد كان ثم تذكر لتذكرة الحمام وتهيج فالتقى ذلك الذي قد عرف منه على أم عمار كأنه قال : ميعنى فذكرني أم عمار ((. إن طريقه هذين العالمين الجليلين في تحليل هذه الشواهد ، ومناقضتها وفهمها تدل على مبلغ تحررها من القواعد الجسدية ، التي ألفنا وجودها عند من جاء بعد ذلك من النحاة وترينا من ناحية أخرى أن أهم العوامل في علامات الإعراب المختلفة إنما هو المعنى الذي يريد العربي أن يعبر عنه . وبجانب سيره وأستاذه الخليل نجد الفراء يسلك نفس السبيل في فهم الأساليب العربية ؛ سواء ما كان منها في الأدب أم في القرآن .

وفواقفه في ذلك عديدة ومشهورة في كتابه - معاني القرآن - الذي لا يزال مخطوطاً حتى الآن . وإن من يطلع على هذا المخطوط يستطيع أن يلاحظ بوجه عام أن الفراء في تحليله للأساليب ، وفي تحليله للضوابط الإعرابية يركن إلى طبيعة العربي ، وحسه في استعمال اللغة ثم إلى حسه هو في فهمها ؛ فهو تحليل يتلاءم مع أولى المراحل العلمية في اللغة يوم أن كانت قريبة جداً من النقاء ولادخل

للصنعة المنطقية فيها . ومن أمثلة ذلك تعليله للفرق في المعنى بين إضافة اسم
الفاعل إلى مفعوله ، ونصبه له ، فهو يقول إن الإضافة تفيد معنى المضى في
الحدث ، والنصب يفيد معنى الحال . وذلك عند شرحه لقوله تعالى : هل
هن كاشفات ضربه ،^(١) .

ولقد تنبه إلى هذا الأمر أيضا بعض من تصدى لدراسة اللغة وآثارها
من غير النحاة النحاصر ، ومنهم من ذكرهم كتبها وآثارها مثل المبرد الذي لم
يكن شديد الثقة بالنحاة ، ولم يمكنه يتخرج من تخطئتهم ، والتصريح بعدم
مقدرتهم على فهم بعض أسرار التركيب ، إذ أنهم كانوا شديدي الحرص على
ظواهر التركيب ، وحرافية القواعد .

من ذلك قوله : من الآيات التي ربما يغلط في مجازها النحويون قول الله
تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، . والشهر لا يغيب عنه . ومجاز الآية :
فمن كان منكم شاهداً ليلة في الشهر فليصمه ، والتقدير : فمن كان شاهداً في
شهر رمضان فليصمه ، ونصب الشهر لظرف لانصب المفعول^(٢) . ويضاف
إلى ذلك أيضاً ما نراه من توقف الألوسي في تفسيره^(٣) .

وفي المغرب البطرزي ، أن النحاة زعموا أن العرب أماتت ماضى (يدع)

(١) - انظر ص ١٦ من المخطوط سطر ١٢ .

(٢) فقه اللغة للثعالبي ج ٢ = ٥٤٦ طبعة : مصطفى محمد ١٩٣٣

(٣) ١٥٦ / ٣٠ / روح المعاني - حموده ص ١٤٤ .

والنبي صلى الله عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام : لينتميز
أقوام عرب وذعهم الجماعات ، . وقرأ صلى الله عليه وسلم : ما ودعك
بالتخفيف .

وقال أبو الأسود الدؤلي :

ليت شعري من خليلي ما الذي غاله في الحب حتى ودعه

وهو دليل على استعمال ودع بمعنى نراكم .

وفي الحديث : اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوك ، (١)
ولعل أوضح ما يستشهد به على ذلك هو تأويلاتهم الغريبة في بابي
الاشتغال والتنازع ، فإنهم هنا كثيراً ، ما يضربون صفحاً عن بحر التراكيب
اللغوية لكي يقوموا بقواعدهم التي وضعوها ، ويتمشوا مع مبادئهم التي
افترضوها ، من وجوب وجود العامل لكل معمول يبدو ظاهراً في الكلام
وامتناع أن يعمل العامل الظاهر في ذلك المعمول بحجة أنه شغل عنه بالعمل

(١) ثم يعضي الأستاذ حموده في سرد شواهد أخرى وأدلة أخرى على مفالة
النحاة وتقديسهم لقواعدهم مع عدم بصرهم بالعربية كما يجب ص ١٤٤ - ص ١٤٩ ؛
وقد يبدو في كثير من المواقف أن المؤلف متحامل على النحاة ولكن نحامله
لا يلبث إلا أن يكون تعبيراً عن الواقع حينما نرى آراء النحاة بالنسبة لقراءات
القرآن وتخطئهم للقراء كلها لمسوا فيهم بحفاة لقواعد النحو التي هي من صنيعهم
دون أن ينظروا إلى كل اللامحات العربية نظرة دقيقة شاملة .

فى . الضمير ، وكان . المسألة . فى نظرم عملية حسابية ، أو نظرية قياسية منطقية ، دون أن يكون المعنى الذى فى نفس المتكلم أثر فى التعبير . وكتب النحو فى هذين البابين تذكر أمثلة عدة من هذه التأويلات : منها ما هو مأخوذ من الشواهد الأدبية : ومنها ما هو مأخوذ من النصوص الدينية ؛ وليس لنا أن نتناول جميع ما ذكره من شواهد لتناقضهم فيها وبين وجهة نظرنا بالنسبة لأرائهم ، ولما كنا نكتب بآية قرآنية واحدة نستعرض فيها وجهة نظرهم ، ثم نشرح وجهة نظرنا لكي يتبين للقراء مدى تصور النحاة لأساليب اللغة ، ومبلغ تمسكهم بحرفية مقاييسهم ولو كان ذلك على حساب المعنى وبلاغة التركيب . هذه الآية هى قوله تعالى « بالأنعام خالقكم فيها دافع ومنافع » ؛ ورأى النحاة فيها واضح معروف ، فهم يقررون أن الأنعام مفعول لفعل خذوف يفسره المذكور ، وهو خلق ؛ ولا يصح أن يعمل هذا الفعل المذكور فى الأنعام لأنه شغل بالعمل فى ضمير الأنعام ؛ وإذن فلا بد من تقدير عامل آخر لكي يبرر العمل فى لفظ الأنعام ، وهذا العامل فى تقديرهم هو من لفظ « خلق » المذكور .

هذه هى وجهة نظرهم ، ونحن لو سايرناهم فى هذا لكان تركيب الآية هو « وخلق الأنعام خلقها لكم . . . » ، ونحن نترك الركة اللفظية مؤقتا ولا نعترض بها عليهم لأنهم يستطيعون الدفاع عنها بأن الفعل واجب الاستتار فلا يمكن أن يظهر ، وبالتالي لا تظهر الركة اللفظية ونحاول أن تناقش الآية من ناحية المعنى بالنسبة لتقديرهم : إن الآية فى اعتبارهم . تؤدي إلى تأكيد الخلق فيكون اهتمامها الأول موجهاً إلى هذه العملية وهى خلق الأنعام ، بينما الأنعام نفسها وهى نتيجة عملية الخلق تصبح فى الدرجة

الثابتة من العناية والاهتمام . ونحن لا نفلن أن القرآن في هذا التركيب قد قصد إلى ذلك ، ونستبعد أن يكون اهتمامه موجهاً إلى الخلق لا إلى الأنعام . ثم كيف يمكن أن يفهم التأكيد لعملية الخلق والخلق لم يذكر صراحة في صدر التركيب ؟ وكيف يمكن أن يفهم ذلك أيضاً والآية كلها تؤكد وتلح في التأكيد بالنسبة للأنعام ؟ وهذا التأكيد يبدو واضحاً في تصديرها وفي عود ضمائر أربعة عليها : الأول في « خلقها » ، والثاني في « فيها » ، والثالث في « ومنها » ، والرابع في « ولكم فيها جمال » ، وفي شجن الآية بصفات من خواصها : « دفع ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس . .

من كل ذلك يظهر جلياً أن الآية شديدة الاهتمام بالأنعام لا بعملية الخلق فيها ؛ ولكن النحاة ... الله ... قد جازوا المعنى وبلاغته التركيبية وتسكوا بحرفية قواعدهم ، وبتطبيق مقاييسهم فجاءت تأويلاتهم كما نرى في هذه الآية .

وعلى ضوء هذا نقدر أننا لا نمانع ولا نجد غضاظة في أن يكون لفظ الأنعام مفعولاً مقدماً للفظ خلق المذكور ، وأن تقديمه على الفعل قد جاء لغرض بلاغي كما تقدم ، ولا نجد غضاظة أيضاً في أن يكون الضمير المنصل بخلق ؛ والذي أوجد الإشكال في نظر النحاة فمنهم من نصبت

الإنعام بلفظ خلق المشغول بالضمير ، نقول إننا لا نجد غضاضة أيضاً في أن يكون هذا الضمير تأكيداً للفظ الإنعام ؛ إذ المسألة لا تخرج بهذا عن دائرية بعض التعبيرات اللغوية مثل : جاء زيد نحو . ولهذا التركيب نظائر في اللغات الأخرى كاللاتينية والفرنسية ؛ ففي اللاتينية نجد الضميرين : *Ipsa - idem* يذكران في الجملة أو يذكر أحدهما ، ويقصد منهما التأكيد إن كان المؤكد مذكوراً في الكلام ، ويتبعانه في حالة الأعراب ، والعامل في الشكل واحد ؛ ويحذف محله إن لم يكن مذكوراً في الكلام .

ونعود بعد هذا إلى ما نحن بصدده فنقول : إنه مما يمكن الاستشهاد به أيضاً على حذف النون من المثني والإبقاء على الألف فقط قول الأختلأ عن قصيدة يشتر فيها بقومه ويهجو جريراً^(١) :

أبني كليب إن عني اللذا ۞ قتل الملك وفككا الأغلالا

فقد حذف النون من اللذان ، وأبقى على الألف فقط .

وقوله أيضاً :

ها التالو ولدت تميم ۞ لقليل فمسر لهم ضميم

فقد حذف النون كذلك من التان ، واقتصرت على الألف .

١ - شرح جمع الفوائد ج ١ ص ٢٣ . يقصد الأختلأ بعينه غزراً ومرة أبني

ككثوم ، فإن غزراً قبل عمرو بن هند ملك العرب ، ومرة قتل المنذر بن النعمان
أبني المنذر .

وها هي ذى أيضاً بعض الأمثلة للجمع الذى حذفت منه النون والكتفى
بالحرف السابق لها : ..واء أكان ذلك الحرف راوا أم ياء :

فقال الواو ما دحكتك عروق بن عمرو - القيس المزربى ، وهو جد
عبد الله بن ربيعة ، وقد مات قبل الاسلام :

والحافظون عورة العشرة لا^(١) . يأتهم من ورائنا ويكشف^(٢)
فقد روى بفتح عورة على أنها مفعول لاسم الفاعل قبلها ، وحذفت
النون من الحافظون ، وهذا البيت وإن كان قد روى بكسر عورة ،
أحياناً لتجويد حذف النون للإضافة . إلا أنه يكفينا للدلالة على ما
نحن بصدده أن يكون قد روى أيضاً بنصب عورة ، دون أن
تخطأ هذه الرواية .

ومن ذلك أيضاً :

غشوم حين ينقذ مستفاد^(٣) وخير الطالبي الزرة الغشوم^(٤)
وهذا البيت كالبيت السابق ، غير أن البيت الأول كان لفظ الجمع
في حالة الرفع ، فاستبقى الواو . والبيت الثانى لفظ الجمع فيه في حالة الجر
فاستبقى الياء وحذفت النون .

ومن ذلك أيضاً حذف النون في الاسم الموصول للجمع في بيت للأشهب
بن ربيعة^(٥)

إن الذى حانت بفلج دماؤهم^(٦) هم القوم كل القوم يا أم خالدة .

.....
.....

(١) - البوكيف : العيب والإثم .

(٢) - معجم الهوامع للسيوطى ص ٤٩ - شرح معجم الهوامع للشنتيطنى ج ١ = ٢٤

(٣) - المصدر السابق ج ١ ص ٢٤ الفلج = اسم موضع

وأيضا فربما يبدو ناقصا. هنا أيضا. إننا أملنا في ذكر الامثلة والشواهد ، وفي تحليلها والتعليق عليها ، وانحسبنا قصدنا إلى ذلك قصدا لئلا نحذرة واشتد عن مظهر الإعراب بالحروف عند العرب . ومبلغ ما كان هناك من اضطراب في هذه المظهر ، ولكي نثبت من وراء ذلك ما ذهبنا إليه من ملاحظات .

وقبل أن نترك هذا الميدان نجب كذلك أن نعرض موقف النحاة من هذه الشواهد وأمثالها حتى تبين روحهم في فهم الأساليب العربية القديمة ، وكيف كانوا خاضعين لقواعدهم بالتسبب لتلك الشواهد .

واليك مثلا من أمثلة تعديلات النحاة يوضح موقفنا منهم ، ويزيدنا ثقة من أنهم لم ينظفوا إلى اللغة العربية ككان جي ينشأ صغيرا غير واضح المعالم ، ولا يفصل الأعضاء ، ثم ينمو وتبين أجزاؤه ، وأخيرا يكبر مع الزمن . ويصل إلى درجة الكمال :

لاحظ النحاة أن البصريين والكوفيين متفقون على جواز حذف النون من الأسماء الموصولة ، سواء أكان ذلك في حالة التثنية أم في حالة الجمع ، وقد اختلفوا بعد ذلك في تعليل هذا الحذف فذهب البصريون إلى أنها تحذف لاستطالة الأسماء الموصولة بالصلة بعيدها . ويرأى الكوفيون أنها تحذف مطلقا سواء أطالت الصلة أم قصرت ، إذ أن حذفها عنهم بناء عن

لغة فيها ، وهذا صحيح . فإن بنى الحسارث بن كعب وبعض بنى ربيعة كانوا يحذفون النون من الأسماء الموصولة في حالتى التثنية والجمع^(١) . وحينما جاء هذا على لسان بعض الشعراء في غير الأسماء الموصولة من الأمثلة التى تقدم ذكرها حاول النحاة أن يعللوا هذا الحذف الذى خرج عن قواعدهم النحوية : فقالوا إن النون قد حذفت في الأمثلة المتقدمة تشبيهاً لها بالأمثلة الموصولة . إذ أنها صفات وصلت د بآل ، الموصولة . ومن قال بذلك صراحة ابن جنى^(٢) . ولكن حينما وجدوا هذا الحذف وارداً أيضاً في ألفاظ لاصلة لها البتة بالأسماء الموصولة مثل :

أقول لصاحبي لما بدالى معالم منهما وهما نجيا

بدل د نجيان د ومثل :

لو كنتم منجدي حين استعنتكم لم تعدموا ساعداً منى ولا عضداً
نقول لانهم حينما وجدوا الحذف هنا لم يجدوا مخلصاً لهم سوى أن يلبثوا إلى ضرورات الشعر . ومع ذلك فإذا عساهم يقولون حينما نورد لهم هذا المثال العربى القديم فيما حكاه العرب عن لسان الحجلة مخاطب القذابة :

بيضك . ثنتا وبيضى مائتا

أى يبيضك ثنتان وبيضى مائتان^(٣)

(١) ، (٢) شرح معجم الخوامع للشافعى ج ١ ص ٢٢-٢٣

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢

فلم يكن ذلك من الأسماء الموصولة . ولم يكن كذلك مما يشبه الأسماء الموصولة . ولم يكن أيضاً في الشعر حتى يمكن التعامل بالضرورة . ومن ذلك الضرب أيضاً ما أثر عن العرب من حذف نون التثنية في حالة النني مثل :

لاغلامي لك ، ولا يدي لزيد ، وقيص لا كمي له (١)

ومن ذلك أيضاً ما نجده في بعض نصوص القرآن والحديث ، فن القرآن قوله تعالى : (تظاهرا) |

بتخفيف الظاء ، وهي قراءة فيها

وكذلك الحديث الذي خرج مسلم في قتلى بدر حين قام عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فناداهم ، فسمع عمر قوله ، فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبوا . وإذا كنا بصدد التدليل على أن هذه الأمثلة ، التي أوردناها ، لها صلة بالقديم وأنها استمرار لاستعمال اللغة منذ كانت غير ناضجة ، ولا مستقرة على نظام واحد ، نقول إذا كنا بصدد التدليل على هذا ، وبصدد نقد النحاة في موقفهم من اللغة ومن فهم أساليبها فأننا نجد أيضاً دليلاً لنا فيما اعترفوا هم به ، ذلك أنهم أقروا مبدأ الترخيم في المنادى ، واعترفوا بوجود لهجة من لهجات القبائل العربية تحذف آخر الكلمة مثل : يا أبا الحك ، بدلا من : يا أبا الحكم (٢) . ونحن نظن أن الترخيم ليس إلا ذكرى من ماضى اللغة . وبأثر من آثارها

(١) فقه اللغة للثعالبي ج ٢ . ص ٥٠٧

(٢) هذه الالهجة عرفت بها قبيلة طيء . وقد اصطاح العلماء على تسمية تلك الالهجة - قطعة طيء - بضم القاف ؛ وكان ذلك عاما عندهم في كل الكلمات .

تقديمه ولم يكن الامر فيه كما فهمه النحاة من أنه استغناء عن الحرف
لاخير في الاسم مادامت الحروف الباقية تدل عليه .

وكذلك الشأن فيما يختص بلهجة طيء ، التي لانزاع نجد آثارها في بعض
لهجات بمصر ^(١) . ولنا بعد هذا أن نقول :

الواقع أن النحاة لم يكن من شأنهم أن يمعنوا النظر في اللغة ، ولا في تكوينها ،
أن النحاة في سائر اللغات الأخرى ؛ ولم ينظروا إلى النحو نظرة فاحصة مدققة ،
دركوا أن هذه الطارق في الأداء ، والأنظمة المتبعة في التراكيب لم تنشأ كاملة من
بل الامر وإنما مرت بأدوار من الترقى حتى وصلت إلى المرحلة النهائية التي بنى النحاة
نيتها قواعدهم . ومن أجل ذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من تدايلات وإشكالات .

وصوروا اللغة لمن جاؤا بعدهم تصويراً يبعدها عن طبيعتها ، ويجعل
نها وبين ماضيها لجزوة واسعة يجد الدارس كثيراً من العناء إذا ما حاول
، يملأها . وقد أحسننا نحن بهذه الشجوة وبذلك العناء حيناً . بدأنا دراسة
ه اللغة العربية ، لا كما كان يعالجه القدماء ، بل وفقاً للنهج الحديث عند
تربيين في دراسة هذا العلم . فقمنا كنا في سبيل البحث عن تاريخ بعض
فردات ، وتاريخ استعمالها الحسى والمعنوى في مختلف العصور ، ومعرفة
غير الذى طرأ على بذيتها ومؤداها في مراحلها الأولية ، نقول أننا كنا في
بيل ذلك كمن يتحسس الطريق بغير مرشد . كنا لانجد أمامنا سوى معاجم
مة ، وهى خليط هائل من المعاني ، وكتب الأدب والنحو وهى غير

^(١) في بعض جهات من مديرية بنى سويف يحذف الناس المقطع الأخير من
كلمة فيقولون مثلاً : محم ، حبيب ، نحمو ، بدلا من محمد ، حسين ، محمود .

محددة الأهداف بالنسبة لما نريد التعرف عليه ، فنغوص هنا وهناك ، ونعمل الفكر في الافتراضات حتى نهتدى إلى خيط بسيط نستمسك به ونجمع حوله من الخيوط الأخرى ؛ ومع هذا فكنا ننجح طوراً في عمل نسيج متماسك من تلك الخيوط ، ونفشل طوراً آخر فنهمل ما جمعناه ، ونتركه نهياً للنسيان كأن هذا ، ولا يزال دأبنا في دراسة فقه اللغة ؛ وها نحن أولاء نقضى نحواً من أربع سنوات في دراسة سورة المطففين دراسة تتفق مع منهج فقه اللغة الحديث ؛ وبالرغم من ذلك كله ، وبالرغم من النتائج المهمة التي اهتمدنا إليها في فهم آياتها وإدراك بعض أسرارها البلاغية من ناحية اللفاظ ، والمعاني ، والأسلوب ، فإننا لا نزال غير مطمئنين لوضع الانس العامة لهذا العلم بالنسبة للغة العرب ، ولاخراج بحث ناضج فيه .

والآن بعد مناقشة هاتين النظريتين الخاصتين بمظاهر النحو الفنى ؛ ومناقشة النحاة في فهمهم ؛ وتعليقهم لوجود تلك المظاهر ؛ ثم الاستدلال على صحة ما ذهبنا إليه خاصة بتلك النظريتين ؛ نستطيع أن نثبت باختصار النتائج العملية من وراء ذلك ؛ وهى تنحصر فى هذه الملاحظات:

أولاً : - التأكد من أن كل ماسماه النحاة شاذاً أو خارجاً على القواعد النحوية أو سماعياً يعتبر أثراً قديماً قد بقى فى اللغة بمثابة الرواسب ؛ التى تبقى فى بعض فروع النهر بعد أن تجف ؛ وتتحول جميعاً إلى مجرى واحد

ثانياً : - ينبغى أن نسقط كل هذه الأمثلة من حسابنا إذا أردنا أن نضع النحو

وضعا جديداً ، فلا ندع قواعده تدمر بسببها وذلك كصنيع النحاة في سائر اللغات
المعربة ، حيث تركوا جانباً بقايا اللهجات القديمة ووجهوا همهم إلى التهجئة
القوية الموحدة .

ثالثاً : — هذا يمهّد لنا السبيل لمعرفة تاريخ اللغة أو فترة من تاريخها على الأقل ، ثم
إنه يرينا نوعاً من أنواع التطور اللغوي ، وبهذا نستطيع أن ننضع الأساس لدراسة
فقه اللغة على المنهج الغربي الحديث ، الذي اشرنا إليه وإلى بعض وسائله وانجازاته
منذ قليل .

رابعاً : — إن هذه العلامات التي سماعاً النجاة علامات أعراب لم تكن أولاً
باتفاق الجميع ، ولم توضع في أول الأمر بناءً عن فكرة مجردة عن معنى كل علامة من
هذه العلامات ، ولم يكن الحكم في وضعها معنى الجمل والتركيب وإنما هو اتفاق
"ناطقين باللغة على هذه الطريقة أو تلك من الأداء ، فالمسألة انتفاضة لا منطقية أو
قياسية ، وبمعنى أوضح أنهم لم يفكرروا في رفع الفاعل قبل أن ينطقوا به مرفوعاً ولا
في نصب المفعول قبل أن ينطقوا به منصوباً ولا في جر المضاف إليه قبل أن ينطقوا
به مجروراً وذلك عكس طريقة النحاة في فهمهم لهذه العلامات الاعرابية . وتحليلهم
لها ، ولو كان الأمر كما ذهب النحاة لاستلزم أن يكون النضوج العقلي عند العرب
قد سبق النضوج اللغوي بمراحل طويلة وهذا ما لا يمكن أن نتصوره بحال من الأحوال
والمسألة في نظرنا لا تعدو أن يكون الناطقون باللغة قد اتفقوا ، بأي طريق كان ،
على رفع فصيحة من الاسماء لها اعتبار خاص في تركيب الجملة ، ونصب فصيحة أخرى

منها لا اعتبار آخر وجر فصيلة لا اعتبار يغاير الاعتبارين السابقين حتى يمكن بذلك
الفرقة أو التمييز بين هذه الاعتبارات المختلفة .

وبما يدل بوضوح على أن المسألة في علامات الاعراب هي كما صورناها أننا نجد
في بعض الأحيان قبيلتين عريبتين قد اختلفتا في علامة الاعراب بالنسبة للاسم
الواحد ، ومكانته من الجملة هي هي ، واعتباره في نفس الجملة هو هو ، مثل المسألة
« الزنبورية »^(١) ، التي اختلف فيها سيديوه ، عالم البصرة ، والكسائي ، عالم الكوفة ، وهذه

^(١) يمكن تلخيص هذه المسألة وظروفها فيما يأتي : يقال أن سيديوه ، وهو عالم
البصرة إذ ذاك ، قدم إلى بغداد ، وكان فيها الكسائي يعلم الأمين وفد سيديوه على يحيى
بن خالد البرمكي وولديه جعفر والفضل ، وأبدى لهم رغبته في مناظرة الكسائي ،
وهو أعلم أهل الكوفة إذ ذاك فعمل يحيى وولده على توصيله إلى الرشيد وإقامة
المناظرة وكان مما وجه الكسائي من أسئلة إلى سيديوه قوله : كيف تقول : ظننت
أن العترب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو : إياها ... ؟

فقال سيديوه : فإذا هو هي ، وخالفه الكسائي فأجاز القولين ، الرفع والنصب
في الخبر وذلك لأن نصب الخبر المعرفة بعد « إذا » يحيزه الكوفيون ويمنعه البصريون
ثم قال الكسائي : كيف تقول يا بصري : خرجت فإذا زيد قائم أو قائماً ؟ فقال سيديوه
أقول : قائم ولا يجوز النصب . فقال الكسائي أقول : قائم وقائماً .

... فقال الرشيد : قد اختلفتما وأنتما رئيساً ببلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال له
الكسائي : هذه العرب ببابك ، قد سمع منهم أهل البلدين ، فيحضرون ويسألون .
ولما جاءوا بالأعراب الذين كانوا يومئذ بالبواب . وهم أبو فقمس ، وأبو دثار ، وأبو
الجزاح ، وأبو ثروان ، وعرضوا عليهم مسائل الخلاف بين سيديوه والكسائي ،
وطلبوا حكمهم في هذا ، وافقوا الكسائي فيما ذكر .

المسألة مشهورة عند النحويين ، ورواها كثير من المؤلفين ، وكانت مثار خلاف بين الرواة ، فمنهم من ينسبها إلى سيدييه والكسائي ، ومنهم من ينسبها إلى سيدييه والفراء ومنهم من يقرر أنها كانت بحضرة الخليفة هارون الرشيد ومنهم من ينفي ذلك ، ويدعى أنها كانت بحضرة يحيى بن خالد البرمكي . ونحن لا نعني بالخلاف بين أسماء النحاة ، ولا بين من كان في حضرته هذا الخلاف ، بقدر ما تعنينا المسألة في ذاتها ، فسواء لدينا أكان الخلاف بين سيدييه والكسائي أم بينه وبين الفراء ، والمهم أن نقرر أن الخبر المعرفة بعد - إذا - يمكن أن يكون مرفوعاً كما يمكن أن يكون منصوباً .

ومن هذا القبيل أيضاً مسألة المستثنى في الكلام الناقص بين التمييز والحجازيين .

ومثالها : ليس الطيب إلا المسك^(١) .

(١) - يذكر أبو علي القالي في كتابه الأمالى ٣ : ٣٩ حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعي يقول : جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ ، قال وما هو ؟ قال « بلغني عنك أنك تجيز : ليس الطيب إلا المسك » بالرفع ، فقال أبو عمرو « نعمت يا أبا عمرو وأدب الناس : ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع » ، ثم قال أبو عمرو : « قم يا يحيى يعني اليزيدي - وأنت يا خلف - يعني الآخر - فاذهبا إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع ؛ واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب » . =

فالحجازيون يأنصبون والتميميون يرفعون . وعلى هذا الخلاف فى الرفع
والنصب بين الحجازيين والتميمين جاءت القراءة فى قوله تعالى :
« ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك »^(١) ،

= قال فذهبنا فأتينا أبا المهدى فإذا هو يصلى ؛ وكان به . عارض : « وإذا هو .
يقول : « لقد أخسانا » عني « ثم قضى صلاته والتفت إلينا وقال : ما بخطبكما .
قلنا : « جئناك نسألك عن شيء » ، قال : « هاتيا » ، فقلنا : « كيف تقبول .
ليس الطيب إلا المسك - بالرفع - ؟ فقال « أتأمراني بالكذب على كبرة
سنى ؟ فأين الجادى وأين كذا ؟ وأين بنته الأبل الصادرة ؟ » ، فقال له خلف
« ليس الشراب إلا العسل - بالرفع - فقال « فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم
شراب غير هذا التمر » ، قال اليزيدى : قلما رأيت ذلك ، منه قلت له : ليس
ملك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها فقال « هذا كلام لا دخل فيه ، ليس
ملك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » . فقال اليزيدى : ليس ملك
الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » ، فقال : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى .
فبكتبنا ما سمعناه منه . ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلا يعقل فقال له خلف
« ليس الطيب إلا المسك » ، فلقناه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب . وأبى إلا
الرفع فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح ؛ فأخرج عيسى
بن عمر خاتمه من يده وقال : وإك الخاتم بهذا والله فقت الناس » .

(١) سورة هود : ٨١

فالحجازيون ينصبون وعليه أكثر القراء ، والتميميون يرفعون وعليه اثنان
من القراء (١) .

ومن هذا الوادى أيضاً ما نجد من خلاف بين الحجازيين والتميمين
في عمل - ما - وإصالتها مثال ذلك قوله تعالى :
« ما من أمهاتهم » (٢) ،

فالنصب على لغة الحجازيين والرفع على لغة التميميين ، الأولى قرأ بها الجمهور
والثانية قرأ بها المفضل عن عاصم . وما ذكرناه من الأمثلة إنما هو
بعض ذكره النحاة في باب الاستثناء ؛ وما التي تعمل عمل ليس ؛ ومن
ذلك يتضح في جلاء أن الأعراب ؛ أو الضوابط النحوية وضعية ، وأنها
لم تكن على أساس منطقي واحد بين جميع القبائل العربية .

خامساً :- إن النحو بمعناه الفنى ، أى طرق الأداء فى اللغات المهدبة الراقية ،
يوجد مبكراً فى اللغة قبل أن يوجد النحو العلمى ، وأن تطوره ونضوجه يلزم تطور
اللغة ونضوجها ، إذ أنه يعتبر جزءاً منها ملازماً لها ؛ ولن يقف نموه إلا إذا وقف

(١) الاثنان هما : ابن كثير وأبو عمرو (انظر الالتحاف ١ : ٢٥٩ ،
إبراز المعانى ٣٥١ ، البحر المحيط ٥ : ٢٤٩ - القراءات واللهجات لعبد الوهاب

حمودة ص ٧٩ ، ص ١٢٢

(٢) المجادلة : ٢

نمو اللغة نفسها ، فهو يكاد يكون خاضعاً لطبيعة اللغة لا لأسباب خارجة عنها
أو مؤثرة فيها . وذلك عكس ما نلاحظه في النحو العلى الذى يبدأ حيث
ينتهى النحو الفنى ؛ ويأخذ طريقه نحو استخراج السكالم تبعاً لظروف اجتماعية
طارئة على اللغة ، وتحت مؤثرات عقلية أو علمية قد لا يكون للغة عهد بها
من قبل .

وبعد ، فنحن إذ نصدر هذا الحكم لا يغيب عنا ما قد يحصل فى بعض
الاحيان من أثر فعال يصدر عن النحاة فى تكوين اللغة وتنميتها وتهذيبها
بوضع أسسها وضبط قواعدها ؛ وحذف ما لا ينطبق على القواعد العامة فيها
وذلك كما حدث فى خلال القرن الثانى قبل الميلاد بالنسبة للغة اللاتينية ،
حيث نهض بعض الشعراء والكتاب من اللاتينيين أنفسهم لخدمة اللغة ،
والعمل على ضبطها بتسجيل بعض القواعد النحوية ، وتوحيد طريقة النطق
والاداء بها ، واستبعاد ما يمكن أن يكون محل شبهة . من هؤلاء الشعراء
إينيوس *Ennius* ، وأكسيوس *Aelius* ومن الكتاب *Varron* ، وقيصر
Cæsar . ولكن مع هذا ينبغى أن نلاحظ أن اللغة العربية التى
نحن بصدد الكلام عنها وعن نحوها لم يتوفر لها ذلك ، أو على الأقل لم
يعرف من تاريخها تلك المرحلة التى يمكن أن يكون بعض أصحابها المتكئين
منها قد قاموا بهذا الدور ، وأدوا لها هذه المهمة فى عصورها القديمة فى
الجاهلية . إذ أننا حتى الآن نكاد نجهل تماماً ما كان يعمل فى العصور الجاهلية

من ضبط اللغة العربية ، وطرق التحرى والاختيار بالنسبة للتعبير والاداء
إذ أن كل ما وصل إلينا عليه خاصاً بحياة اللغة العربية في العصور الجاهلية
الاولى لا يعدو أن يكون مبادئ عامة ، ونظريات مجملة كالسكلام عن اللهجات
المختلفة في القبائل العربية ، والسكلام على نهضة قريش وتغلّبها على سائر اللهجات
بسبب ما توفر لها من أسباب اجتماعية عديدة . أما حقيقة كل لهجة ، ومعرفة
عوامل التطور الداخلى فيها وإدراك الشكل العام لآساليبها وضوابطها ، فكل
ذلك يكاد يكون خافياً علينا وليس لدينا منه إلا بعض أمثلة مبعثرة في ثنايا الآثار
القديمة ، قد جمعت لأغراض أخرى لا نستطيع أن نكون منها وحده ولا أن نبني
عليها أساساً علمية مؤكدة . ولهذا فإننا في محاولتنا هذه نعتمد كثيراً على
الافتراض مستعينين بدراستنا لتاريخ بعض اللغات القديمة . هذا هو شأن اللغة
العربية ، وشأن رجال النحو فيها ، أما هؤلاء الذين قاموا بهذا المجهود في
اللغة اللاتينية فهم أصحابها المتمكنون منها والقادرون على تمريرها .

ومن هنا يتضح جلياً الفرق بين النحو الفنى والنحو العلمى من ناحية ،
وبين اللغة العربية واللاتينية من ناحية أخرى . ويتضح كذلك السبب الأساسى
الذى من أجله وقع نحاة اللغة العربية في هذه الخلافات التى لا حصر لها ؛
وفى تلك الأشكالات التى أخرجتهم فى بعض الأحيان عن طبيعة أبحاثهم ،
وجعلتهم يحملون اللغة أكثر مما تحتمل .

فبينما نجد جمهرة النحاة فى اللغات الأخرى ، من أصحاب هذه اللغات

المتمكنين فيها ؛ القادرين على تصريفها ، الذين لا يجدون حرجاً في أن يخطئوا في بعض الأحيان بعض الناطقين بهذه اللغات ؛ إذ بنا نجد العكس في اللغة العربية ، فجمهرة أساتذة النحو فيها دخلاء عليها ، ففهم اليهود مثل هارون بن الخاتل^(١) ، ومنهم الفرس كسيبويه ، والكسائي ، والأخفش ؛ والسيرافي والقراء وقتنا نجد العربي الخالص ، بل أننا رأينا الروح عند العرب تستكشف دراسة النحو ، ثم يضاف إلى هذا أنهم افترضوا صحة كل ما ثبت أنه جاء على لسان العرب الخالص ، ولم يحاولوا مواجهة الفكرة في أن هذه الضوابط المتبعة في الأداء قد سلكت طريقاً طبيعياً في التكوين ؛ كما تسلك اللغة نفسها هذا الطريق . فكانت في أول الأمر بسيطة غير مطردة ؛ ولكنها مع الزمن قد نمت ، وعمت ، والتزمت .

وإذا كنا لا نستطيع الوقوف على طبيعة تطور هذه الضوابط في اللغة العربية ؛ ولا على طريقة ذلك التطور ؛ لجهلنا بتاريخ اللغة نفسها ؛ ولقلة ما اكتشف حتى الآن من آثار قديمة تقدم لنا صوراً عن حالة اللغة يوم أن كانت مضطربة في الفاظها ، وفي معانيها وفي أساليبها ، وفي ضوابطها ، نقول : إذا كنا نجمل كل ذلك ، وإذا لم يكن لدينا من الأدلة المادية ما يساعدنا على معرفته فإننا نلجأ مرة أخرى إلى اللغة اللاتينية لنرى فيها بعض مظاهر ذلك التطور ، لنذكر بعض الشيء عما يمكن أن تكون اللغة العربية قد مرت به

(١) - الفهرست لابن النديم ص ١١١ - ١١٢ .

أو ما يمكن أن يكون على الأقل صورة لتلبية هذا التطور في ضوابط اللغة ومناهج الأداء فيها .

والأمر في ذلك ميسور بالنسبة للغة اللاتينية . فهي لغة معروفة التاريخ لم يطل بها العهد في أدوار حياتها الأولى حتى يتسرب إلى أوضاعها وأنظمتها النسيان . ولم يمر طور من أطوار حياتها دون أن يترك فيه أثر كتابي يلقى ضوءاً على حالتها العامة وعلى ما تتميز به أساليبها وطرق الأداء فيها من خواص . ومن حسن الحظ لهذه اللغة ، ولمن تصدى للبحث فيها أن اكتشف كثير من هذه الآثار ، ما بين قبور وجدر وصحائف وألواح وأدوات ؛ وعليها من النقوش الكتابية الواضحة ما مهد السبيل للعلماء ، وقدم لهم مادة غزيرة للبحث والتحليل .

وسنحاول أن نعرض في عجالة بسيطة أطوار هذه اللغة ذاكرين بعض الأمثلة في عصورها المختلفة لكي يتبين لنا كيف تخضع حركات الإعراب لنظام النشوء والارتقاء وكيف تتغير من عصر إلى عصر حتى تكم وتكمل ثم تثبت على حال واحدة .

في الفترة السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد لم تكن اللغة اللاتينية سوى لهجة بسيطة يتخاطب بها فريق محدود من سكان إيطاليا وكان هذا الفريق ممثلاً في الأسر والحاشية اللاتينية التي تقيم في المنطقة المعروفة قديماً باسم « لاتيوم *Latium* » في وسط إيطاليا تقريباً ، والممتدة حول مصب نهر

النبر شمالاً وجنوباً ، وحتى في هذه المنطقة المحدودة لم تكن اللغة اللاتينية موحدة في اللهجة التي قدر لها أن تصبح فيما بعد لغة العلم والفن والقانون والأدب ، ولكن كان هناك عدد من اللهجات يصارع بعضها البعض الآخر في مدن تلك المنطقة ، وأهم تلك اللهجات هي لهجة مدينة رومه *Rome* ؛ ولهجة مدينة برينيسست *Prénesto* ثم لهجة مدينة توسكولوم *Tusculum* ^(١)

أخذت لهجة مدينة رومه تنمو وتنتشر على حساب اللهجات الأخرى . وقد توفر لسكان مدينة رومه من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما جعلهم يتزعمون سكان المدن الأخرى من تلك المنطقة ، وسادت تبعاً لهم لهجتهم على سائر اللهجات اللاتينية الأخرى ، ويكاد هذا يشبه تماماً ما حدث في شبه الجزيرة العربية من صراع لغوي بين لهجة قبيلة قريش التي كانت تقطن حول مكة ولهجات القبائل الأخرى التي كانت تضرب في نواحي شبه الجزيرة .

إن أهم أثر يوضح لنا حالة اللغة اللاتينية في الفترة السابقة على القرن الثالث قبل الميلاد هو مشبك من ذهب ؛ وجد في مدينة برينيسست يرجع تاريخ صنعه إلى القرن السادس قبل الميلاد وقد كتبت عليه هذه العبارة *Manios med fhefhakod Numasioi* وهذه العبارة لو كتبت بالطريقة التي استقر عليها نظام اللغة اللاتينية

أخيراً أصبحت *Manius me fecit Numerio* ومعنى هذه العبارة هو :
قد صنعنى مانىوس من أجل نوميرىوس .

والذى يعيننا أن نلاحظه فى هذه العبارة هو التغير الذى طرأ عليها
بالنسبة لعلامات الإعراب ، فالعلامة « os » فى الاسم « *Manios* » كانت
علامة للرفع قديماً لبعض الأسماء فى حالة الإفراد ، وقد أصبحت فى اللاتينية
أخيراً علامة للنصب لطائفة من الأسماء فى حالة الجمع ، أما علامة الرفع
لهذه الطائفة من الأسماء فى حالة الإفراد فقد أصبحت « s » .

وكذلك ضمير المتكلم المفرد فى حالة النصب كان قديماً « *med* » ولكنه
صار أخيراً « *mo* » . وعلامة الفعل الماضى فى حالة الإفراد للشخص الغائب
التي كانت قديماً « *ed* » قد أصبحت « *it* » وأخيراً فإن علامة الإعراب
فى الاسم من نفس الطائفة من الأسماء التي أشرنا إليها آنفاً ؛ فى حالة المفعول
غير المباشر كانت قديماً « *ol* » ولكنها أصبحت كما نراها « *o* » .

ومن هذا يتضح مبلغ التطور الذى تعرضت له اللغة اللاتينية بالنسبة
لعلامات الإعراب .

وفى خلال القرن الثالث قبل الميلاد يدخل الصراع بين لهجة روما
وغيرها من لهجات المدن الأخرى فى دور حاسم ؛ ولا يأتى آخر هذا القرن
حتى يكتب للهِجة رومه التغلب التام ، ولا تقف سيادتها على منطقة
« *Latium* » فقط وإنما تتسرب إلى الجهات الأخرى ، وتأخذ

في صراع أوسع مع ما كان في شبه الجزيرة الإيطالية من لغات كاللغة الإيتروسكية *l'etrusque* ، التي كان يتخاطب بها في البلاد الواقعة شمال رومه والمحصورة بين نهر التيبر شرقاً وسواحل إيطاليا غرباً ، وكاللغة الأومبرية *l'ombrien* ، التي كانت لغة التخاطب في البلاد الواقعة شرق نهر التيبر والممتدة حتى سواحل بحر الأدرياتيك ، وكاللغة الأوسكية *l'osque* التي كانت لغة البلاد الواقعة في الجنوب وفي الشرق من منطقة لاتيوم .

ومع أن هذا الصراع اللغوي قد استمر أثناء القرن الثالث والثاني وفترة طويلة من القرن الأول قبل الميلاد فإن اللغة اللاتينية نفسها لم تكن قد فرغت نهائياً من تنظيم أساليبها والتزام حالات الإعراب في تراكيها ، فقد بقيت في خلال هذه الفترة الطويلة في شبه اضطراب من هذه الناحية حيث لم تطرد فيها قواعد الإعراب بعد ، ولم توحد فيها أشكال الصيغ ، وإذا فإننا نستطيع أن نسمي هذه الفترة من حياة اللغة اللاتينية بالمرحلة الثانية . ومن أمثلة هذا الاضطراب في الصيغ وفي حالات الإعراب ما يأتي :

المصدر من « قال » في اللاتينية هو « *dicere* » ، وإذا جرى بصيغة المبني للمجهول من هذا المصدر يقال « *dicui* » وهذه هي الصيغة التي بقيت في اللغة بعد أن استقر نظامها واطردت قواعدهما ، ولكننا نجد بجانب هذه الصيغة صيغة أخرى كانت تستعمل في أثناء فترة الاضطراب التي نحن بهندد الكلام عنها هي « *dicier* » .

مثال آخر : كلمة « *Dominaus* » بمعنى السيد ، قد بقيت بهذه الصيغة .
حالة الرفع ، ولكنها في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب
بما « *Dominos* » .

مثال ثالث : يتجلى فيه بوضوح مظهر الاضطراب كلمة « *facies* »
معناها « الوجه » ، هي إحدى الكلمات التي تخضع لنظام التصريف الخامس
الاسماء ؛ ومن خواص هذا التصريف أن تكون نهاية هذه الاسماء
حالة المفعول لأجله أو المفعول غير المباشر هي « *ei* » . ولكن هذه
لغة في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب وتنطق بهذه الصيغة :
faciēi, facēi, faciōi, fac بل وبصيغ أخرى غير ذلك .

هذا جانب من مظاهر الاضطراب في تكوين قواعد النحو ، وخمسة وخمسون
لغة لقوانين عامة وثابتة أثناء هذه الفترات التي سميناها فيما مضى بالمرحلة
ثانية من تطور اللغة اللاتينية . وقد بقي هذا الاضطراب ماثلاً حتى القرن
ول قبل الميلاد ، ولكنه كان آخذاً في النقص ، وذلك بفضل الجهود
عظيمة التي كان يبذلها رجال النحو والأدب في تصفية اللغة من الغريب ،
لبيت قواعدها ، وطرق الأداء فيها .

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد ،
تصلت اللغة إلى القمة من ناحية النقاء والاستقرار ؛ وكان ذلك
عصر شيشرون وقيصرون . ولكنها مع ذلك قد احتفظت بكثير من الآثار

القديمة التي تبدر مخالفة لما استقر نهائياً من قواعد الإعراب ، ولم يستطع أدباء اللاتينية ولا نحاتها أن يتخلصوا من تلك الآثار ؛ فبقيت مائة حق انقرضت اللغة اللاتينية ، وإن كان بعضها قد توارى وهجره الاستعمال .

وهذه الرواسب القديمة التي بقيت في تراكيب اللغة وأساليبها ، واعترف بها النحاة ، ولجأ إليها الشعراء والكتاب في بعض الأحيان ، هي التي تعين بالذات ، إذ أنها توضح إلى حد لها ، ما نجده في اللغة العربية وفي شواهد الأدبية من خروج على القواعد العامة التي وضعها النحاة ؛ وذهبوا في تطبيقتها كل مذهب .

ولقد حاول نحاة العرب جهدهم أن يخضعوا هذه الشواهد لقواعدهم ، ولما استعصى عليهم الأمر حكموا عليها بالشذوذ مرة ؛ أو خرجوها تخريباً نائياً أفسد على اللغة طبيعتها مرة أخرى . وقد رأينا صورة من تخريجاتهم منذ قليل .

لم يفكر واحد منهم أن هذه الشواهد يمكن أن تكون رواسب قديمة ، وتراثاً للغة العرب يوم أن كانت مضطربة وفي شبه فوضى ، لم توحد لهجاتها ولم تستقر وتطرد ضوابطها . ولم يكن فهموا أو اعتبروا على الأقل أن اللغة العربية وجدت كاملة ناضجة ، وأن العربي معصوم لا يخطئ .

وما نحن أولاء نذكر بعض الأمثلة من اللغة اللاتينية لتلك الرواسب التي بقيت فيها بعد أن توحدت وكملت :

لقد عرفنا نما درسناه أن علامة الإعراب في صيغة الفعل الماضي التام إذا أسند لضمير الغائبين هي « *Gruat* » ، ولكننا نجد عوضاً عنها هذه لعلامة « *ere* » ،

فيقال مثلاً : « *amavèro* » بدل « *amaverunt* » بمعنى أحبوا ،
« *laudavèro* » بدل « *laudaverunt* » بمعنى مدحوا أو تغنوا ،
وكذلك نجد في دائرة الأفعال أيضاً هذه الصيغ :
« *amasti* » بدل « *amavisti* » بمعنى أحببت .

« *audieram* » بدل « *audiveram* » بمعنى كنت سمعت .
ولو تركنا دائرة الأفعال وانتقلنا إلى ميدان الأسماء لوجدنا فيها ما يأتي :
معروف أن علامة النصب في حالة الجمع للتصريف الثالث من الأسماء هي « *es* » ، ولكننا نجد في بعض الأحيان « *is* » ، وعلى هذا فبدل أن يقال :
« *cives amo* » أحب المدنيين ، يمكن أن يقال « *civis amo* » .
وكذلك في صيغة المضاف إليه في حالة الجمع للتصريف الثاني من الأسماء بعد علامة الإعراب « *orum* » ، ولكنها قد تستبدل أحياناً بالصيغة القديمة هذه الطائفة من الأسماء وهي « *um* » ، فيقال مثلاً : « *terra a deum est* »

بدل « *terra a deorum est* » = إن الأرض من صنع الآلهة .

بل إن بعض الصيغ القديمة قد احتفظت بكيانها في بعض الأسماء ، ولم تستبدل بالصيغة العامة الجديدة . ومن هذه الأسماء « *Parentes* » ومعناها

الأقرباء ، ، *senes* : ومعناها الكهول . هذان الاسمان يتبعان طائفة من الأسماء علامة إعرابها في حابة المضاف إليه الجمع هي : *ium* ، ولكنها احتفظا بصيغة أخرى هي : *um* ، فيقال مثلا :

filios parentum suorum amas

بدل

filios parentium suorum amas

أى (تحب أبناء أقرباتك)

وكذلك يقال :

Consilia senum saepe est bona

ولا يقال :

Consilia senium saepe est bona

أى (إن نصيحة الشيوخ غالباً ما تكون طيبة)

كلمة *manus* ، ومعناها اليد ، تعتبر من الأسماء التى تخضع لقاعدة التصريف الرابع : وعلامة الإعراب لهذه الأسماء فى حابة الأفراد وفى حالة المفعول غير المباشر هي *ui* ، فيقال مثلا :

rosam manui portabat

ومعناها (كان يحمل الورد على يده)

ولكننا قد نجد هذه الكلمة فى مثل هذا التركيب بحركة أخرى

للإعراب هي *u* ، فقط ، فيقال *Rosam manu portabat*

ومعناها (كان يحمل الورد على يده)

وكذلك كلمة « Rosa » ، وردة ، تعتبر من الصفات التي تخضع
 عدة التصريف الأول . وعلامة الإعراب لهذه الأسماء في حالة الأفراد
 ، المضاف إليه هي « a » ، فيقال مثلا :

Color rosae bonus est

أي ، لون الوردة جميل ،

وقد تكتب في مثل هذا التركيب بصيغة إعرابها القديم . وهي « ai » ، فيقال

Color rosei bonus est

وأوضح من هذا كله كلمة « deus » = « الله » ،

وكلمة « domus » = « البيت » ؛

أما اللفظ الأول فهو من الأسماء التي تخضع لقاعدة التصريف الثاني ،
 ، أنه في حالة الرفع بصيغة الجمع يصبح « dei » ، ولكننا بجانب هذه
 صيغة نجد مكتوبا بصيغتين أخريين هما « dii » ، أو « di » ، فيقال مثلا :

dei iusti sunt = الآلهة عادلون

ويمكن أن يقال كذلك :

dii iusti sunt

أو *di iusti sunt*

وكذلك في حالة المفعول غير المباشر ، أو انجرور بحرف الجر في صيغة

مع ، نجد « dis » بجانب « deis » ، فيقال مثلا :

Dei factae a dis sunt = الورد مخلوقة بواسطة الآلهة

يمكن أن يقال أيضاً :

وأما اللفظ الثانى وهو *domus* ، فهو من الأسماء الخاضعة للتصريف الرابع . وها هى ذى حركات الإعراب فى الأحوال المختلفة بالنسبة لما هو من قبيل *domus* ، فى الأسماء .

ولنأخذ لذلك كلمة *manus* ، = يد ، التى تقدمت منذ قليل :

فى حالة الإسناد أو الرفع وكذلك فى حالة النداء يقال : *manūs*

وفى حالة النصب يقال : *manus*

وفى حالة المضاف إليه يقال : *manūs*

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله يقال : *manui*

وفى حالة الجر بحرف الجر يقال : *manu*

كل ذلك فى الإفراد . وفى الجمع على حسب ترتيب الحالات السابقة يقال :

فى الرفع والنداء والنصب *manūs*

وفى المضاف إليه *manuum*

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله وفى حالة المجرور بحرف

الجر *manibus* .

ولو كانت كلمة *domus* ، خاضعة للقاعدة العامة التى اطردت فى هذه

الطائفة من الأسماء لتصرفت بالضبط كما تتصرف كلمة *manus* ، ولكنها

قد احتفظت بشئ من التراث القديم بالنسبة لحركات الإعراب ، فأصبحنا

نراها فى حالة المجرور بحرف الجر مفردة *domo* ، بدل *domu* ، :

وفي حالة النصب جمعاً « *domos* » بجانب الصيغة العامة « *dominus* »

وفي حالة المضاف إليه جمعاً « *domorum* » بجانب الصيغة العامة « *domuum* »

ونستطيع أن نمضي إلى أبعد من هذا في ذكر أمثلة من هذه الالفاظ
كالتراكيب ، التي استمرت محافظة على بعض التراث القديم وشاهدت
في اللغة اللاتينية من ناحية الضوابط وحركات الإعراب ؛ ولكن
بنا هذا القدر ، إذ العبرة في ذلك بالكيف لا بالكم . ومع أن هذه
اسب قد بقيت في اللاتينية بعد استقرارها ، ومع أن الأدباء والشعراء
استخدموها في أساليبهم وفي إنتاجهم الأدبي لأغراض بلاغية كما سبقت
شارة إلى ذلك ؛ فإنه لما يعيننا جداً ملاحظته هو أن هذه الأشياء
تكن غيبة أمام النحاة حيناً بدأوا يضمنون قواعد اللغة ، فإنهم
وا في طريقهم متبعين الظواهر العامة والضوابط الغالبة ؛ ضاربين صفحاً
هذه البقايا دون أن يدخلوها حساباً في قواعدهم .

من هذه المقارنة نستطيع أن نسجل هذه الملاحظات كنتيجة لها :

١ - معرفه بعض الحقائق التي نشأت ونمت وكملت تحت تأثير عوامل
باعية وربما كان يظن في بعض الأحيان أن وجودها لم يكن إلا عن
في المصادفات ، أو أن هناك أسراراً خفية تعاونت على خلقها ؛
نت تفسر هذه الأسرار تارة بالوحي والتوقيف ، وتارة
ي بالمعجزات .

٢- ملاحظة وجه الشبه البعيد المدى بين ما حدث في اللغة اللاتينية في رومها ، واللغة العربية في بيئة الحجاز من ناحية الصراع بين اللهجات المختلفة ، وتوفر الأسباب السياسية والاقتصادية والدينية لتغلب واحدة منها على اللهجات الأخرى . ولو أن الفرصة أتت وامتد بنا ميدان المقارنة باللغة اليونانية لوجدنا نفس الظروف ونفس النتائج بالنسبة للهجات اللغة اليونانية أيضاً ؛ ولم كان للدر الذي لعبته أثينا في ذلك الصراع اللغوي من أثر ملحوظ .

٣- إننا نلص في وضوح مبلغ المجهود العنيف الذي بذله علماء النحو العربي في تدوين قواعدهم ، ووضع مقاييسهم وتطبيقها . فقد عرف لهم الشرق هذا المجهود في تلك المؤلفات العديدة الضخمة التي أنتجوها في النحو وعلى رأس هذه المؤلفات جميعاً كتاب سيبويه ، الذي كان يقول عنه المبرد . حينما يجد إنساناً يريد أن يقرأه معه ركبت البحر (١) تعظيماً له واستظماماً لما فيه . وقد اعترف العرب بهذا المجهود أيضاً لنحاة الشرق ، بل أن علماءه قد استكثروه عليهم فأخذوا يتلصون الأسباب لعمق أبحاثه ، وشمولها ، ولسرعه نضوجه . غير أننا نظن أن هذا المجهود إنما كان في كثير من الأحيان على غير أساس صحيح . وهصدر ذلك أنهم افترضوا أن كل ما سمعوه عن العرب الخالص إنما يمثل مرحلة النضوج والكمال

(١) انظر الفهرست ص ٧٧

في اللغة العربية ، وفاتهم أن اللغة لا بد أن تكون قد مرت بمراحل أخرى من الاضطراب وعدم الاستقرار . وفاتهم كذلك أن بجانب لهجة قريش التي تتبعوها ، ووضعوا قواعدهم على أساسها ؛ وآثروها بالفضل في كل موقف تتعارض فيه مع لهجة عربية أخرى ، نقول : إنه فاتهم كذلك أنه بجانب لهجة قريش كانت هناك لهجات عربية أخرى لها من القوة والذووع ما يجعلها جديرة بالنظر ، وذلك مثل لهجة تميم . وكل من درس النحو العربي قد أحس من غير شك بقوة هذه اللهجة أو ببلوغ ما بينها وبين لهجة قريش من خلاف ، ثم بالدرجة التي كان يذهب إليها النحاة في تفضيل لهجة قريش على غيرها من اللهجات ^(١) .

ونحن لا نلوم النحاة لتفضيلهم لهجة على لهجة أخرى ؛ ولكن الذي يؤخذ عليهم هو إثارهم لهجة واحدة لوضع قواعدهم النحوية ، في حين أنهم أهملوا ، سواء أكان هذا الإهمال عن قصد أم عن غير قصد ، سائر اللهجات الأخرى ، ولهذا فإنهم عند ما يصح في نظرهم نص أدبي أو بيت من الشعر العربي القديم دون أن يوافق قواعدهم المؤسسه على لهجة قريش نراهم يتعسفون في فهمه ، وفي تأويله ؛ وفي تخريجه . ومن العجيب أن صدى لهجات العرب الأخرى نجده ممثلاً في القرآن ؛ وفي الحديث ؛ وفي كلام

(١) انظر على الخصوص بابي الاستثناء ، والحروف التي تعمل عمل ليس .

الصحابه من القرشيين بالنسبه للفظ والاسلوب (١)

وعلى هذا الاساس فقد تبادى النحاة كثيراً في صحه كل ما ورد
عن العرب من ناحيه ، وفي وجوب تطبيق مقاييسهم من ناحيه أخرى .

ونتيجه وجهه النظر الأولى أنهم وقعوا في كثير من الخلافات
والمناقشات في سبيل تصحيح كل ما ثبتت عربيته من شواهدهم .

أما نتيجه وجهه النظر الثانيه فإنهم تجرموا على تخطئه بعض القراء
الذين يخالفون قواعدهم ، وهؤلاء القراء — كما نعتقد — أولى بالصحه
منهم . إذ أنهم يعتمدون في قراءاتهم على السماع ، وهم فيه ثقة ، ويسايرون
فيها المعنى أكثر من مسايرتهم للضوابط اللفظيه كما كان النحاة .

ولو أنهم افترضوا مراحل اللغه الأولى ، ثم وجود رواسب من هذه
المراحل فيما يروى عن العرب في عصر الجاهليه أو عصر الاسلام لأراحوا
أنفسهم ، وأراحوا النحور نفسه ، وأراحونا معهم من كل هذا العناء ، وتلك
الخلافات . بل ولما فتحوا أمام بعض المستشرقين هذه الثغرة الخطيرة الى

(١) تقدم الكلام على ذلك في شيء من التفصيل ص ٩٧ ، ٩٨ ونذكر منها الآن

قوله تعالى — وأسروا النجوى ، إن هذان لساحران ؛ وقول الرسول صلى
الله عليه وسلم — يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار — أو قول
عمر رضى الله عنه — يا رسول الله أنى يسمعون وكيف يسمعون — وقول
عمر بن العاصي — مكره أخاك لا بطل .

نفذوا منها ووجدوا مجالاً لمناقشة النصوص القرآنية مناقشة قاسية تخرجها عن دائرة التنزيل وتصورها بصورة كلام البشر الذي مصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن استقى أخباره عن أساطير الأولين ؛ أو عن الكتب السماوية الأخرى .

ولقد كان هذا فيما نعتقد ، الحافز الأول الذي جعل الأستاذ عبد الوهاب حموده يكرس جزءاً من جهده فيما كتبه عن اللهجات والقراءات في القرآن ! إذ أنه جمع ما أمكنه جمعه من آراء المستشرقين وحججهم ، ثم عارض النحاة في كثير من مواقفهم وأيد القراء إلى حد بعيد .^(١)

أما نحاة العرب فلم يكن لهم مثل هذا الموقف ولو أنهم صنعوا مثل ما صنع نحاة اللغة اللاتينية لأراحوا أنفسهم من ذلك الجهد الفكري العظيم الذي بذلوه في خلافاتهم وفي تخريجاتهم ؛ ولأراحوا النحو كذلك من هذا الاضطراب ، ومن ذلك التشتيت . ولعل من الإنصاف أن نلتمس لنحاة العرب بعض العذر ، فإن مكانتهم من اللغة ومقدرتهم على فهمها وتصريف أساليبها ليست كمكانة النحاة اللاتينيين ، فهم في أغلب الأحيان دخلاء عليها وكانوا يتصيدون بعض شواهدهم من أفواه الأعراب ، وما وجدوه مروياً من الآثار الأدبية قديماً وحديثاً ، بل إن العرب أنفسهم كانوا

(١) انظر كتاب - القراءات واللهجات - للأستاذ عبد الوهاب حموده .

يستصغرون شأن هذه الأبحاث التحريرية ، ولا يعيرونها شيئاً من اهتمامهم ،
ويقررون أنها من شأن الموالي ومن عملهم . وقد أشار إلى ذلك المبرد في
كتابه الكامل ، وروى الأستاذ مصدق صادق الرافعي في كتابه هذا الخبر^(١)
دون أن يسند وهو أن الشعبي سisir الخليفة عبد الملك بن مروان ، مر بقوم
من الموالي يتذاكرون النحو فيما بينهم . فقال :

« ائن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده ،

ويضاف إلى ذلك جهلهم بتاريخ اللغة ومراحل تطورها ، ولم تكن
لديهم آثار كتابية يستطيعون بواسطتها التمييز بين حالة اللغة في عصر
دون غيره ، ثم يربطون هذه العصور بعضها ببعض ليدركوا منها مظاهر
التطور في الضوابط الإعرابية ، كما كان ذلك ممهداً سهلاً للنحاة اللاتينيين .

ولقد سار النحو العربي في نفس الطريق الذي رسمه له أوائل النجاة من
اعتبار كل ما أثر عن العرب صحيحاً ، وبالتالي فكل ما صح لديهم
من كلام العرب ينبغي أن يكون مطابقاً لهذه القواعد العامة التي
لم تكن في الواقع سوى ظواهر وضوابط اللهجة قبيلة عربية واحدة ، هي
لهجة قريش بعد أن توفّر لها من عوامل الرقي ما يجعلها تغلب وتسود
لهجات القبائل الأخرى .

(١) تاريخ آداب العربي للرافعي ج ١ ص ٢٤٥ .

ولم يتنبه هؤلاء النحاة إلى ما يمكن أن يكون هناك من أثر للهجات
الأخرى ، ولا إلى ما يمكن كذلك أن يكون هناك من أثر بالنسبة
لتطور تلك اللهجات ، ومنها حجة قريش نفسها ، حتى استقرارها على طريقة
واحدة في النطق والأداء . بل ذهبوا في اعتبارهم هذه اللغة إلى درجة أنهم
منحروها صفة القداسة وأعلموها معنى إلهياً لمنزلة القرآن منها . ولم نجد
من بين أولئك النحاة ، بالرغم من هذه العمور الطويلة التي مرت بها
دراسة النحو ، من حاول أن يضع نصب عينه هذه الاعتبارات . فيفهم
اللغة على حقيقتها ، ويخلصها من ذلك الجود الذي منيت به ، ومن تلك
الشبه التي علفت بها .

ولعل أول من تنبه لذلك قديماً هو ابن النديم صاحب الفهرست (١)
حينما يتحدث عن اللغة العربية ونشأتها وإكس حديثه عن ذلك لم يكن
واضحاً ولا مستوفياً . وحديثاً ، هو الأستاذ معطى صادق الرافعى ، إذ
أدرك بحسه أن اللغة العربية كسائر اللغات الأخرى من حيث التطور من
حالة البساطة إلى حالات الرقي والكمال . يقول الأستاذ ما نصه : (وعلى
ذلك يتعين أن تكون لغتهم أيضاً ، يعتمد العرب ، قد ملكت التاريخ
ولم يملكها ؛ وعلى لا بد أن تكون قد تقلبت معهم على وجوه من

(١) الفهرست ص ٧

الإصلاح ، وجرت على مناح من التهذيب (١)

ولكن يدارس تهريجه هذا ما نجده له من مواقف أخرى في نفس الكتاب يرقى باللغة العربية فيها إلى درجة من التقدير تجعلها سيدة اللغات على الإطلاق ، وتكسيها من صفات القداسة ما يوحى إلى القارىء بأنها توقيفية إلى حد ما . (٢)

ومع ذلك فإننا نلخص هنا ما ذكره بالنسبة لحياة اللغة العربية وما طرأ عليها من تطور أثناء عمرها الطويل . ونحن وإن كنا لا نجد من الآثار المادية ما نعتد عليه في إثبات ذلك ، إلا أننا نطمئن إلى هذا الافتراض ونرى فيه موافقة لما تستلزمه طبيعة اللغة أيا كان الشعب الذى ينطق بها . وعلى هذا الافتراض فإن اللغة العربية قد مرت بأطوار ثلاثة . (٣)

الطور الأول : هو ما كانت عليه هذه اللغة أيام إسماعيل ، الذى يعتبره العلماء أصل العربية المصرية ، من البساطة ؛ ثم أخذت فيه من توسع بواسطة ما كانت تستمد من لغة جرهم من مفردات وتعبيرات . وكان ذلك فى أرض الحجاز فقط ، حينما كان الأصل العربى محصوراً فى إسماعيل وفى أولاده ، على حسب ما يسموه العلماء والمؤرخون . وذلك حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٧٩

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٨٣ ، ٩١ ، ١٧٨ ، ٢٢٣

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٩٧ إلى ٩٠

الطور الثاني : يبدأ عندما يزداد عدد العرب ، وتضيق بهم بيئة الحجاز فيتركونها ليستقروا في جهات مختلفة من الجزيرة العربية . وهناك تتكون القبائل ، وتأخذ كل قبيلة في إصلاح لهجتها حسبما تؤهلها ظروفها الطبيعية والاجتماعية .

الطور الثالث : وهو طور الكمال ، فهو عبارة عن الدور العظيم الذي قامت به قريش من الإصلاح ، حيث كانت تنتفع بلغات الأمم الأخرى ، التي تصل بها عن طريق التجارة ، وتأخذ عن لهجات القبائل العربية ما تستحسنه ويزيد في ثروة لهجتها الخاصة .

والذي يدعشنا أكثر هو أن الأستاذ الرافعي يرى ويعتقد أن اللغة العربية تحتوي على بقايا أثرية من المفردات قد هجرها الاستعمال ، لأنها كانت تلائم بيئات خاصة ، وأزماناً خاصة ، وعقليات خاصة . ولكن بعد أن تغير كل ذلك أصبح هذا مهجوراً . كما حدث في اللغة اللاتينية . بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة التي تلجأ أحياناً إلى اشتقاق جديد من تلك الكلمات القديمة . يوضح الرافعي ذلك توضيحاً كافياً ، ويعقد المقارنة في هذا بين العربية واللاتينية . وهذا صحيح . ولكن الغريب إنه لم يتنبه ولم يشر مطلقاً إلى جواز حدوث مثل هذا أيضاً في علامات الإعراب وأثر الزمن والتطور فيها . بل إنه سار في بحثه كله على افتراض أن علامات الإعراب كما هي بالوضع الحالي قديمة في اللغة ، وإن العرب كانوا ينطقون بها كما نراها .

وهو حين يتناول مراحل الإصلاح في اللغة يتكلم عن الإصلاح الذي يشمل التفظ والمعنى والأسلوب ، ولا يشير إلى علامات الإعراب . وكذلك حين يتكلم عن البقايا الأثرية في اللغة يتناول المفردات المهجورة بواسطة الاستعمال ، ولا يشير إلى بقايا علامات الإعراب قديماً . وبالرغم من موقفه هذا فإن بحثه في كتنا الناحيتين يقدم لنا دليلاً آخر على أن علامات الإعراب بدورها لا بد وأن تكون عرضة للإصلاح كالتفظ والتراكيب سواء بسواء واعترافه كذلك بوجود بقايا أثرية في اللغة مهجورة الاستعمال يشير من ناحية أخرى إلى ضرورة وجود بقايا أثرية في علامات الإعراب سواء بسواء ^(١)

ولعل المثال الذي ذكره الرافعي في آخر هذا البحث من تاريخ استعمال هذا الإصطلاح . ونحن فعلنا ، يشير من بعد إلى التطور في الاستعمال . وهذا في الواقع بحث طويل يستحق منا عناية خاصة ، ويستلزم إحصاء شاملاً لتاريخ الاستعمالات العربية ، لقد كان هذا النوع من الدراسة هو موضوع بحث الأستاذ المستشرق يوهان فوك *Yohann Fück* في كتابه - العربية ، ومع اعترافنا بقيمة بحث هذا الأستاذ ومبلغ ما بذله من جهد في الاستقصاء والتحقيق ؛ فإننا نقرر أنه في حاجة إلى أن يمتد حتى يصل إلى استقصاء الكثير من الجمل والتراكيب ثم يلاحظ تطور الاستعمال فيها على اختلاف

(١) - أنظر البقايا الأثرية في اللغة ج ١ ص ٦٢-٦٤ . . .

مهور كما كان ذلك صنيعة بالنسبة لبعض الالفاظ . ولا نشك في أن بحثاً
 ن هذا النوع سيكون أجدى على اللغة وعلى النحو من تلك الأبحاث التقليدية
 حلة التي تسير على نفس المنهج الذي رسمه القدماء لدراسة اللغة والنحو ؛
 هو فوق ذلك يلقى ضوءاً على تاريخ اللغة والنحو فنفهم ما فيها من حيوية
 استعداد لمسيرة الزمان والمكان . ومن هذا تتضح قيمة ذلك البحث الذي
 رنا إليه ، ويتبين مبلغ المجهود الذي ينبغي أن يوجه من أجله . وإذا كان
 النوع من الدرس من شأنه أن يبعدنا إلى حد ما عن بحثنا في اللغة
 لنحو ، إلا أننا لا نود أن تتجاوزته ونكتفي بمجرد الإشارة إليه دون أن نذكر
 من الأمثلة باختصار لنرى نوع الاستقصاء في الأساليب ، ومبلغ ما يطرأ
 بها من تغيير في العصور ثم نترك للقارئ بعد ذلك تقدير القيمة العلمية
 عملية من وراء ذلك :

المثال الأول : يفهم من كلام سيبرية أن خبر - كاد - ، والغالب فيه
 يكون فعلاً مضارعاً ، يطرأ اقترانه بأن ، وإن كان بعض النحاة قد
 هذا الاطراد بأنه لا يعنى الندرة ولا الشذوذ .^(١)

وليس من شك في أن سيويوه قد بنى حكمه على الاستعمال العربي القديم ،

(١) - أنظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان على الفية بن مالك - ج ١ . ص ٢٠٩ ؛
 در اللوامع على جمع اللوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

إذ أن موقفه من المحدثين ومن النصوص الدينية معروف^(١) وما يدل على وجهة نظر سيبويه أنه حينما أورد في أسئلته على - كاد - بيتاً من الشعر والخبر فيه عبارة عن فعل مضارع بدون - أن - تأوله بتقدير أن ؛ وهو :
فلم أر مثلاً خباسة واحد فنهنت نفسي بعد ما كدت أفعله

وإذا استعرضنا أساليب القرآن فيما يختص بكاد نجد ما تستعمل الفعل المضارع خبراً بدون - أن - مثلاً ذلك : وإن كدت لتردين ، ... فذبوحها

(١) - كان سيبويه يعتمد اعتماداً أولياً على الشعر العربي القديم فله من هذا الشعر في كتابه نحو من ألف وخمسين بيتاً (١٠٥٠) ثم يأتي بعد الشعر العربي القديم الآيات القرآنية حيث يورد منها نحواً من ثلاثمائة آية (٣٠٠) وهو لا يستشهد من الأحاديث النبوية إلا بحديث واحد . أما الشعر الإسلامي فقد ضرب عنه صفحاً وبالرغم مما نجده عند بعض الرواة من أن سيبويه قد خطأ بشاراً في جمعه نون على نينان وأن بشار بن برد قد هجا سيبويه بسبب ذلك فقال :

سيبويه يا ابن الفارسية ما الذي تحدث من شتى وما كنت تقبذ

أظلت تغنى سادراً في مسامتي وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ

وأن سيبويه قد أخذ بعد ذلك يستشهد بشعر بشار مخافة هجائه ، تقول بالرغم من ذلك فإننا لا نجد أثراً لشعر بشار في كتابه ، وقد حقق هذه المسألة بعد مناقشتها المستشرق يوهان فوك في كتابه - العربية - ص ٥٢ .

وما كادوا يفعلون ، وأن يكاد الذين كفروا ليزلفونك بأبصارهم ^(١) .

(١) - وما هي ذى إحصائية بالآيات القرآنية التي استعملت فيها كاد ، ومنها يتبين اطراد الأسلوب القرآني في هذا الاستعمال دون أن يشذ في آية واحدة من هذه الآيات البالغة أربعة وعشرين آية :

من بعد ما كاد يزيغ قلوب فويق منهم	سورة التوبة	آية	١١٧
إن كاد ليضلنا عن آختنا لولا أن صبرنا عليها	سورة الفرقان	د	٤٢
إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها	سورة القصص	د	١٠
قالوا الآن جئت بالحق فذبوها وما كادوا يفعلون	سورة البقرة	د	٧١
قال ابن أمية إن انقوم استضعفوني وكادوا يقتلونني	سورة الاعراف	د	١٥٠
وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك	سورة الاسراء	د	٧٣
وإن كادوا ليستفزونك عن الأرض ليجرجوك منها	د	د	٧٦
وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا	سورة الجن	د	١٩
ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا	سورة الاسراء	د	٧٤
قال تالله إن كدت لتردين	سورة الصافات	د	٥٦
ن الساعة آية أكاد أخفيها	سورة طه	د	١٥
كاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض	سورة مريم	د	٩٠
كاد السموات يتفطرن من فوقهم	سورة الشورى	د	٥
كاد تبين من الغيظ	سورة المالك	د	٨
كاد البرق يخطف أبصارهم	سورة البقرة	د	٢٠
تجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان	سورة ابراهيم	د	١٧

ولقد صارت الأساليب العربية في العصور الإسلامية على أساس الاستعمال القرآني ، وأغلب ما اعلمنا عليه من الشعر العربي والنصوص الأدبية يريد هذا الاستعمال ، وحين يوجد الاستعمال الآخر فإنما يوجد قليلاً نادراً .

وإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث واستعرضنا أساليب اللغة فيه وجدنا البيئات العربية تختلف في استعمال - كاد - ، ففي العراق مثلاً يحرص الكتاب على أن يقرن الفعل المضارع بأن حين يقع خبراً لكاد . (١) أما في مصر

يكاد زيتها ينضى ولو لم تمشه نار ٣٥ سورة النور «

يكاد سنا برقة يذهب بالابصار ٤٣ سورة النور «

أم أنا خير من هذا الذي هو مدين ولا يكاد بين سورة الزخرف « ٥٢

وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر - سورة الفلم « ٥١

فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً سورة النساء « ٧٨

وجد من دونها قوما لا يكادون يفقهون قولاً سورة الكهف « ٩٣

يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا سورة الحج « ٧٢

ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدرها سورة النور « ٤٠

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي .)

(١) - اقرأ مثلاً ترجمة الأستاذ أحمد عبد الباقي لكتاب - وادي الراقيدين - مهد الحضارة . دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ تأليف الأستاذ ليونارد وولي ، فإنك تجد في هذه الترجمة مبلغ حرص المترجم على أن يقرن خبر - كاد - وهو الفعل المضارع ، بأن المصدرية .

فكثيراً ما يستعمل الأدباء والكتاب هذا الفعل بدون - أن .

المثال الثاني :- ولعله أوضح من الأول في بيان ما أشرنا إليه هو ما نجده من تطور في استعمال هذه التراكيب : أنا الذى أفعل أو فعلت ، ونحن الذين نفعل أو فعلنا ، وأنت الذى تفعل أو فعلت ، وأنتم الذين تفعلون أو فعلتم ، وكذلك فى أنتم . وفى أنت ، وفى أنتم ، نجد فى هذه التراكيب بعد اسم الموصول تارة يسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول كما تقدم فى هذه الأمثلة ، وتارة أخرى يسند إلى اسم الموصول نفسه بدون نظير إلى الضمير السابق كأن يقال مثلاً فى التراكيب المتقدمة : أنا الذى يفعل أو فعل ، ونحن الذين يفعلون أو فعلوا وأنت الذى يفعل أو فعل ، وأنتم الذين يفعلون أو فعلوا ... الخ .

وهنا نجد النحاة يذهبون مذاهب عدة فى فهم هذه التراكيب ويتأولونها أو يلات مختلفة كدأهم فيما يدرسون ، وكل منهم يحاول أن يثبت وجهة نظره بأى وسيلة كانت ، ومن يطلع على خلافاتهم وآرائهم ، وتأويلاتهم فى هذه الاستعمالات لا يستطيع أن يخرج من ذلك برأى ناضج ولا بفكرة واضحة لهذا فإننا نترك آراءهم جانباً ، ولا نتعرض لاختلافاتهم فإنها تفسد علينا فكرة التى نهدف إليها ، وهى بيان تطور الأساليب بتطور الزمن . وها من أولاء نحتكم إلى الاستعمال العربى نفسه لهذه التراكيب انرى كيف كانت طريقة العرب فى العصور المختلفة فى التعبير عن هذه المعانى ، ومع لك فإننا نحيل من يريد من التراء أن يطلع على آراء النحاه وعلى اختلافاتهم

ليأخذ صورة من مناقشاتهم وتأويلاتهم ، نقول إننا نحيل هذا الفريق من
القراء إلى ما كتبه الأستاذ الشنقيطي عن هذه التراكيب بالذات ^(١) . كان
الاستعمال الغالب عند الجاهليين في هذا التركيب هو أن يعود الضمير في
الفعل التالي لاسم الموصول على اسم الموصول نفسه لا على الضمير السابق
وشاهد ذلك قول امرئ القيس :-

أنا الذي عرفت فضله ونشدت عن حجر بن أم قطلهم

وكذلك يقول طرفة بن العبد في معلقته :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشمًا شاكراً رأس الحية المتوقد

وكذلك يقول أبو حرب الأعلم وهو جاهلي من بني عقيل :

نحن اللذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا

وإذا ما جئنا إلى صدر الاسلام فإننا نجد تطوراً في هذا الاستعمال

مرة يحافظون على الاستعمال القديم ، ومرة يأخذون في استعمال جديد ،
ذلك بأن يعيدوا الضمير في الفعل على الضمير السابق للاسم الموصول مثال
ذلك ما نجده في هذا البيت ، وهو لأحد الأنصار ، كما يفهم من المعنى ،
ولم يعرف قائله بالضبط ^(٢) .

نحن الذين بابعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

^(١) الدرر اللوامع على مع الهوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

^(٢) الشنقيطي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٣

وهنا نلاحظ الاستعمالين في نفس البيت ، فالفعل - بايعوا - أسند إلى اسم الموصول ، والفعل - بَيَّنا - أسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول وهو - نحن - .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رجز لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاله في مبارزته لمرحب اليهودي يوم خيبر ^(١) :

أنا الذي ستمنى أمي حبله * ضر غام آجام وليث قسورة

وفي هذا البيت نجد الفعل مسنداً إلى الضمير السابق على اسم الموصول ومن هذا الاستعمال أيضاً ما يروى لكثير عزه :

وأنت التي حببت كل قصيرة * إلى ولم تعلم بذاك القصائر

وهناك بيت آخر من الشعر يذكر الشنقيطي أنه لم يثر على قائله ^(٢) ، هو :

وأنت الذي آثاره في عدوه * من البؤس والنعمى لهن ندوب

ولكننا حين نستخدم هذا المنهج الذي سلكناه في تطور الاستعمال لهذا تركيب نرجح أن هذا البيت جاهلي حيث اشتمل الفعل المتأخر على ضمير لموصول ، ولم يسند إلى الضمير المتقدم على الاسم الموصول .

أما القرآن فإننا لم نهتد فيه إلى استعمال لهذا التركيب بالرغم من قراءتنا

(١) الشنقيطي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٢

(٢) الشنقيطي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٣

المترجمة لنصوصه ، ومن اطلعنا الكثير على فهرس الفاظه .

وفي العصر الحديث نجد أن الاستعمال الغالب لدى الكتاب والأدباء إنما هو استعمال صدر الاسلام ، أى اسناد الفعل التالى لاسم الموصول الى الضمير السابق كان يقال : هل أنت الذى فعلت هذا ؟ وهل أنتم الذين فعلتم ذلك ؟ ... الخ

وكنا نستطيع أن نمضى فى ذكر أمثلة مختلفة للأساليب المختلفة فى اللغة العربية ولكننا نكتفى بهذين المثالين فقط ، ونظرة فاحصة فى هذين المثالين وما تعرض فيها الأسلوب لتغيير واضح تهدينا إلى أن تغيير هذا الأسلوب فى التعبير يدل على ما كانت تخضع له اللغة العربية من تغير فى دائرة أوسع ويشبه هذا ما حدث فى اللغة الفرنسية بالنسبة لهذا التعبير نفسه . فلقد كانت هذه اللغة قديماً تستعمل :

أنا الذى فعل : *C' est moi qui a fait*

نحن الذين فعلوا : *C' est nous qui avaient fait*

أنتم الذين فعلوا : *C' est vous qui aviez fait*

ملاحظين فى كل ذلك أن الفاعل للفعل الأخير هو اسم الموصول بصرف النظر عما يشير إليه من الضمائر السابقة . ولكن هذه اللغة قد خطت فى هذا الاستعمال خطوة أخرى فجعلت الفعل الثانى خاضعاً للضمير السابق على اسم الموصول ، واستقرت على هذا الاستعمال حتى الآن ، وقد هجر الاستعمال

الأول هجراً تاماً ، فأصبحوا يقولون :

أنا الذى فعلت : *C' est moi qui ai fait*

نحن الذين فعلنا : *C' est nous qui avons fait*

أنتم الذين فعلتم : *C' est vous qui avez fait*

ومن المقارنة البسيطة بين هذين الأسلوبين فى العربية والفرنسية نجد أن مظهر التطور واحد فيها ، فبعد أن كان الفعل يسند أولاً إلى اسم الموصول أصبح فى كلها يسند إلى الضمير السابق ، وإيس من شك فى أن أثر عمل العقل واضح فى هذه الخطوة من انتقال الأسلوب إلى مرحلة جديدة ، إذ أن هذا التركيب فى حالته الأولى كان بسيطاً وربما أمكن أن نسميه ساذجاً لانتفاخ فيه ، فليس أسهل من أن يسند الفعل إلى أقرب مذكور . أما فى حالته الثانية فإننا نحس بأن المعنى قد بدأ يتحكم فى اللفظ ، وأن العقل قد بدأ تبعاً لذلك يساير المعنى ولا يتأثر بظاهر التركيب وقد يبدو أن هذه التطورات وما شابهها قد تمت فى اللغة دون أن نحس بآثر لعمل العقل فيها وهذا صحيح لو قصدنا من ذلك عمل العقل الفردى ؛ ولكننا نريد عمل العقل الجماعى ، فإن لكل مجتمع عقله ومنطقه ، وميدان عمله إنما هو المظهر العام لحياة ذلك المجتمع بما فى ذلك اللغة ، والعلم ، والأدب ، والفن ، ولهذا فإن أكبر الشعراء وأعظم الكتاب ، وأرقى الفنانين إنما هم فى الحقيقة مدينون إلى حد ما بالنسبة لبيئاتهم ومجتمعاتهم .

والآن بعد هذا الاستطراد الذى جردنا اليه ما لاحظته الأستاذ مصطفى صادق الرافعى من تطور بعض أساليب العربية نعود اليه لنناقشه فى وجهة نظره من ناحية تهذيب اللغة ، ولكن قبل أن نبدى فى ذلك رأينا نحب أن نضيف اليه أن لفظ قريش ، الذى نسبت إليه القبيلة العربية فى بلاد الحجاز والذى نسبت إليه لهجتها كذلك ، لم يكن اسماً لشخص معين وإنما هو لقب أعطى للنضرين كنانة ، الجدد الثانى عشر للرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يذهب إلى ذلك جمهور العلماء ، ويرى فريق آخر أن هذا اللقب أعطى لفهر بن مالك ، حفيد المتقدم . وسواء لدينا أكان هذا اللقب قد أعطى للنضر أم لفهر فإننا لا نظن أن اللهجة القرشية أخذت فى وسائل التهذيب والإصلاح منذ ذلك العهد وإنما بقيت شأن غيرها من اللهجات الأخرى حتى أيام قصى إذ أن القرشيين كانوا فى ذلك العهد محتاطين بجرهم وخزاعه الذين كانت فى يدهم ولاية البيت والسيادة على مكة ، ولكن قصياً هذا هو الذى جمع أشبات قريش وحارب هاتين القبيلتين . واستخلص منها أمر مكة وولاية البيت ، ومن هذا التاريخ تستقر قريش وتسود مكة وتبدأ فى تزعم القبائل العربية الأخرى وتبعاً لهذا الاستقرار وتلك الزعامة تأخذ اللهجة القرشية فى سبيل التهذيب والإصلاح^(١) .

والذى نراه بالنسبة لما لاحظته الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو أنه

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ : ص ١١٢ ؛ واسواق العرب للأفغانى ص ٧٥ - ٩٤ .

قصد من التهذيب والإصلاح تهذيب اللغة نفسها من حيث اللفظ والمعنى والاسلوب أما من الجهة النحوية أى ضوابط التراكيب وحالات الإعراب فلم يلتفت إليها ولم يدخل لها فى مراحل التهذيب حساباً ؛ ومعنى هذا أن ضوابط النطق ثابتة منذ القدم ، أى أن الفاعل منذ الطور الأول من أطوار نمو اللغة مرفوع ؛ والمفعول منصوب ؛ والأسماء الخمسة مرفوعة بالواو ومنصوبة بالالف ومجرورة بالياء ؛ وكذلك الشأن بالنسبة للثنى ؛ وجمع المذكر السالم ؛ وما لا ينصرف ، وجمع المؤنث السالم ... و... و... إلى آخر ما نجده فى أقسام الكلام من خضوع لقواعد الإعراب ؛ وهذا ما لا يمكن أن نسلم به ، إذ أنه يقربنا من الاعتقاد بأن اللغة توقيفية وكذلك النحو . وقد ظهر لنا مادياً وعقلياً فساد هذا الرأى .

نتيجة البحث فى النحو بمعناه الفنى

والآن بعد فراغنا من البحث فى النحو بمعناه الفنى ، وبعد الذى أبديناه من ملاحظات عامة على نشأته ، وتطوره ، وبعد الذى نبجلناه من نتائج جزئية فى ثنايا هذا البحث ، نريد أن نصل بالقارىء إلى الهدف البعيد الذى قصدنا إليه ؛ ذلك هو تخلص العقل من تلك الافكار القديمة التى كانت تنظر إلى تراثنا العلمى نظرة إجلال وتقديس فتطوف حوله درساً وفهماً ، ولكنها لا تجرؤ على نقده ولا على إظهار ما فيه من

أخطاء . ولعل هذا كان أثراً من آثار النزعة الدينية والسلطان الروحي
الذي أشرنا إليه وعللناه فيما مضى .

لقد رأينا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تدش مع المجتمع وتطور بتطوره
ورأينا كذلك أن النحو بمعناه التقني جزء من ماهية تلك اللغة ؛ وإذن
فلا بد وأن يكون كل منها قد مر بحالات متعددة مختلفة فمن السذاجة ،
والبساطة إلى الثمر والنضوج . وإذا كان من المسلم به أن اللغة العربية قد
وصلت إلى درجة الكمال أيام نزول القرآن الكريم ، وإذا كان من
المسلم به أيضاً أن النحاة ، بصرف النظر عما وقعوا فيه من اضطراب نتيجة
أبحاثهم المحدودة ، وتفكيرهم الضيق ، قد وضعوا قواعدهم بناء على
ماوقفوا عليه من النصوص اللغوية ، وما عرفوه من أساليبها ، فإنه ينبغي
أن يكون من المسلم به أيضاً أن تستمر اللغة متأثرة بحالة المجتمع الذي
تعيش فيه ، ولا تستقر على الحالة التي كانت عليها أيام نزول القرآن الكريم
وهذا ما يهدي إليه العقل ويؤيده الواقع ؛ فإن مئات الألفاظ الجديدة قد
دخلت في اللغة العربية ، وكذلك مئات الأسماء الأجنبية التي لم يكن للعرب
عهد بها من قبل ، ومئات التراكيب المتغيرة التي لم تعرف في تراكيب
العربية ولا في أساليبها ؛ بل إن الأمر في هذا الجديد ، وفي تلك الإضافات
لم يقف عند بيئة عربية واحدة ، وإنما تعدى ذلك إلى كل البيئات الإسلامية
التي اتخذت اللسان العربي أداة للتفاهم بين أفرادها ؛ فعربية الحجاز الآن
غير عربية العراق ، وعربية العراق غير عربية سوريا ، وعربية هذه الأقطار .

الثلاثة غير عربية دمر ، وعربية مصر غير عربية بلاد شمال أفريقيا ؛
وما جند في كل قمار من هذه الاقطار يخالف ، الى حد ما ، ما جند في
غيره من الاقطار الاخرى . وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ اذ أن
اللغة مرآة البيئة . وسجل المجتمع ، وترجمان فلسفته في الحياة ، ودرجته من
العلم ، والفن ، والآداب . وما دامت الاقطار الناطقة باللغة العربية مختلفة
في بيئاتها ، متفاوتة الدرجة فيما ذكرناه من مظاهر الرقي العقلي والاجتماعي ،
فإن اللغة لا بد وأن تختلف ، وتفاوت أيضاً تبعاً لذلك . وهذا هو ذا
الاستاذ يوهان فوك — *Johann Fück* يقدم الدليل على ذلك فيما ذكره
في كتابه — العربية — ؛ فإنه قد تناول الجديد في اللغة العربية عصر
الإسلام ، فعصر الأمويين ، ثم عصر العباسيين ؛ وهذا الجديد يشمل على
ما استحدث من ألفاظ ، ومن عبارات ، وحتى من أخطاء .

وإذن فليس صحيحاً ما ذهب اليه القدماء أمثال ابن النديم ^(١) ؛ من أن
اللغة العربية قد ثبتت بنزول القرآن الكريم ، وجمدت من بعده ؛ بل أن
صنيع القرآن نفسه يعتبر مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية في ألفاظها
وفي تراكيبها ؛ فقد رأينا مثلاً أسلوب القرآن وطريقته في استعمال
- كاد - ^(٢) ؛ اذ أنه قد ضرب صفحاً عن استعمال العرب قديماً لهذا الفعل

(١) انظر ما تقدم من كلام ابن النديم في كتابنا هذا ، اللغة والنحو ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر الإحصائية التي جمعناها في كتابنا هذا ، اللغة والنحو ، لاستعمال القرآن

بالنسبة للفعل - كاد - وما تفرع منه ص ١٣١ ، ١٣٢ .

وتخير له أسلوباً لم يشذ عنه في آية واحدة من آياته ؛ ذلك أنه استعمل الفعل المضارع خبراً لكاد دون أن يكون مقترناً بأن المصدرية .

وها هو ذا مثال آخر نضيقه هنا الى هذا المثال لنرى الى أى حد كان القرآن في بعض الأحيان يلتزم أسلوباً واحداً لا يجيد عنه في استعمال قول من الأفعال ، او تركيب من التراكيب بالرغم من استعمال بعض العرب لهذا التركيب او لذلك الفعل استعمالاً آخر ؛ ذلك المثال هو عسى وطريقة استعماله . فالنحاة يقررون أنه يغلب استعمال - عسى - في تركيب يكون الخبر بدون أن ، ويستشهدون على هذا بأمثلة منها هذا البيت :

عسى الكرب الذي امسيت فيه : - يكون وراءه فرج قريب . (١)

وكذلك بيت الفرزدق حين توعدده الحجاج الثقي :

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد

اما القرآن فقد استعمل - عسى - في ثلاثين موضعاً ليس فيها مثال

(١) هذا البيت لشاعر من غزوه كان يعيش في صدر الإسلام أيام

معاوية ، واسمه هذبه بن خثرم بن كرز ؛ وهذا البيت ضمن ابيات قالها في الحبس . (انظر اخباره في الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح احمد

محمد شاكر - طبع القاهرة سنة ١٣٦٤ . ج ٢ ص ٦٧١ - ٦٧٦)

(١) وما هي هذه الإحصائية باستعمال القرآن للفعل عسى :

٢١٦	البقرة	عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم
٢١٦	،	وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم
١٩	النساء	فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً
٨٤	،	عسى الله ان يكف يأس الذين كفروا
٩٩	،	فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم
٥٢	المائدة	فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده
١٢٩	الاعراف	قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض
١٨٥	،	وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم
١٨	التوبة	فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين
١٠٢	،	خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم
٢١	يوسف	اكرمى مشواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولداً
٨٣	،	فصير جميل عسى الله ان ياتيني بهم جميعاً
٨	الاسراء	عسى ربكم ان يرحمكم وإن عدتم عدنا
٥١	،	ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً
٧٩	،	عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً
٢٤	الكهف	وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً
٤٠	الكهف	فعسى ربي ان يؤتين خيراً من جنتك
٤٨٠	مريم	وادعوربي عني ألا أكون بدعاء ربي شقياً

ولم يقف أمر استعمال القرآن عند هذا الحد ، بل هناك ما هو أقوى في
الحجة وأوضح في الدلالة من هذا : ذلك أنه أثر عن العرب ثلاثة طرق
في استعمال عسى ، الأول ، هو أن تلتزم - عسى - حالة الإفراد والتذكير
سواء أسندت إلى مؤنث أم مذكر ؛ وسواء أكان ذلك الاسم المتقدم عليها
مفرداً أم مثنى أم جمعاً ، فيقال مثلاً : زيد عسى أن يقوم ، والزيدان
عسى أن يقوما ، والزيدون عسى أن يقوموا ، وعند عسى أن تقوم
والهندان عسى أن يقوما ، واخذت عسى أن يقمن ، وهذه هي لغة أهل
الحجاز .

٧٢	النمل	عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون
٩	القصص	لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً
٢٢	•	ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل
٦٧	•	فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين
١١	الحجرات	يا أيها الذين آمنوا لا يستخرفوكم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم
١١	•	ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن
٧	المتحنه	عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة
٥	التجريم	عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن
٨	•	عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات
٣٢٠	القلم	عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون
٢٤٦	البقرة	قال دل عنيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا
٢٢٠	محمد	فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض

الثاني ، هو أن تتغير عى بتغير الاسم الواقع قبلها ، فتؤنث إن كان
ثناً ، ونثنى إن كان مثنى ، وتجمع إن كان جمعاً ، وتفرد إن كان مفرداً
ال مثلاً : زيد عى أن يقوم ، والزيدان عيا أن يقوموا ، والزيدون
موا أن يقوموا ، وهند عست أن تقوم ، والهندان عستا أن تقوموا ،
لمندات عسين أن يقمن ، وهذه هى لغة بنى تميم .

الثالث ، هو أن تسند - عى - إلى ضمير مل جنس ضمير الفعل ،
واقع خبراً لها ؛ فيقال مثلاً : عسانى أن أقوم ، وعسانا أن نقوم ،
سالك أن تقوم ، وعساكم أن تقوموا ، وعسام أن يقوموا ؛ وعساه أن
يم . . . إلخ .

وقد أشار الزحشرى فى كتابه - المفصل - ^(١) إلى هذه الطرق الثلاثة
كرها باختصار دون أن يبين اصحاب كل طريق ، إذ يقول : « فصل ؛
رب فى عى ثلاثة مذاهب أحدها أن يقولوا عسيت أن تفعل كذا ؛
سيتما إلى عسيتن وعى زيد أن يفعل كذا وعسيا إلى عسين وعسيت
سينا - والثانى ألا يتجاوزوا عى ان يفعل وعى ان يفعلوا وعى ان
وا والثالث أن يقولوا عساك أن تفعل كذا الى عساكن وعساه ان يفعل

^(١) - المفصل للزحشرى - ومع كتاب الفيصل بشرح المفصل للأستاذ محمد

الدين عبد الحميد . ج ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

إلى عماين وعماي أن أفعل وحيثما أن تفعل .

وأمام هذا نجد أن القرآن قد ألزم في تفسيره أسلوب الحجازيين على طول الطريق لم يشذ عنه حتى في الآيات التي يسبق الجمع فيها - عى - وذلك في ثلاثة مواضع : الأول آية ٩٩ في سورة النساء ، والثاني ، آية ١١ في سورة الحجرات ، والثالث : نفس الآية أيضاً من سورة الحجرات ، ثم أن القرآن ، مع التزامه بـ لافراد - أعى - ، لم يلجأ إلى الاستعمال الثالث ، وهو إسنادها إلى ضمير الفعل الواقع بعدها ، إلا في آيتين اثنتين وهما آية البقرة ٢٤٦ ، وآية - محمد - ٢٢ ، وذلك بسبب تغلبي واضح ، وهو أن - عى - قد فصل بينها وبين خبرها بجملة طويلة فأستدت - عى - إلى الضمير حتى لا يؤثر هذا الفصل في السماع ، وكثيراً ما يلاحظ القرآن في تفسيراته الناحية اللفظية ، وموسيقى الآيات . وقد لاحظ الفراء هذه المسألة في كتابه - معاني القرآن - الذي لا يزال مخطوطاً ، وشرحها شرحاً بيتاً ، وذكر لها عشرات الأمثلة في القرآن من ذلك قوله تعالى : والليل إذا يسر ، بدل يسرى ، وقوله والذي خلقني فهو يهدين ، والذي يتاعمني ويمقين وإذا مرضت فهو يشفين .

ولعل هذا يدعونا إلى التفكير ملياً فيما ذكره النحاة وقد ررناه سابقاً من أن للحرب مذاهب ثلاثة في استعمال - عى - إذ أننا لم نجد فيما اطلعنا عليه من كتب النحو ، والأدب والتاريخ ، والقراءات ، ما يشير إلى أن هذا

الاستعمال الثالث كان خاصاً بقوم بعينهم من العرب ، ونحن لا نستطيع أن نتصور ذلك لهجة من لهجات العرب ، أو لغة من لغات إحدى القبائل العربية ، وهذا في نظرنا لا يعدو أن يكون وليداً لظروف الكلام ، والمتكلم ومراعاة لحالة السامع أيضاً ، وليس فيه شيء من طبيعة لغة خاصة ، أو قبيلة بعينها ، كما نلاحظ ذلك في لغة الحجازيين ؛ أو في لغة التميميين ؛ حيث تمحض كل لغة على فروق جوهرية . وإذن فليس هناك سوى لغتين .

لغة الأفراد في عبي ، ولغة المداينة ، وقد التزم القرآن الأولى منها . وما ذكرناه حتى الآن يدل في وضوح على مدى اختلاف الأساليب في اللغة العربية ، وعلى مبلغ الجهد الذي ينبغي أن نوجهه لدراستها ، ثم على مقدار ما يمكن أن نجنه من وراء تلك الدراسة ، وذلك ، دون ريب ، على ضوء ما قدمناه من تمهيد ، ودرس ، وما ذكرناه من ملاحظات ؛ وسجلناه من نتائج أثناء بحثنا في النحو بمناه الفنى .

علينا إذن أن نجرد أنفسنا من تلك الأفكار القديمة وأن ننظر إلى اللغة العربية ونحوها نظرة جديدة أساسها الإحساس الفطرى ، والواقع الملموس . وعلينا إذن أن ندرس اللغة والنحو دراسة واقعية فلا نحاول أن نرجع بها إلى العصور الجاهلية الأولى كما يصنع بعض اللغويين الآن ، فإن هذه اللغة نفسها قد استطاعت أن تسير الحياة ، وما جد فيها من تقدم فى كل نواحي المعرفة الإنسانية ، فيما قرب من أربعة عشر قرناً من الزمان ، واسنا نشك فى أن كل عصر من

هذه المصور قد طبع اللغة بطابع جديد ، وترك فيها آثاراً عديدة . وقبل
أن نختم كلمتنا هذه عن نتيجة بحثنا المتقدم نحيب أن نذكر القاريء بأن كل ما
ذكرناه خامساً بالنحو إنما نقصد منه النحو بمعنى الفنى ؛ أى طرق الأداء
والتعبير نفسها ، وأما النحو بمعنى العلم فسيكون لنا منه موقف آخر إن
شاء الله .



النحو بمعناه العلمى (١)

النوع الثانى من النحو ، وهو النحو بمعناه العلمى ، يقصد منه استنباط
واعد النطق الصحيح بناء على دراسة اللغة وفهم أساليبها وإدراك أسرار
لمرق الأداء فيها ، ثم تسجيل هذه القواعد لدراستها .

ونشأة هذا العلم بالنسبة للغات العديدة ، مختلفة من حيث الظروف التى
وجد فيها ومن حيث طبيعة العلم نفسه ومادته .

والأسباب التى دعت إلى نشأة النحو عند الشرقيين عامة تكاد تكون
واحدة ، ولكنها فى نفس الوقت تختلف الأسباب التى دعت إلى نشأة
لنحو عند الغربيين . فبينما نجد الشرق يحدده فى وضع هذا العلم عامل روحى
بنى ، إذا بنا نجد الغرب يحدده فى ذلك عامل لغوى بلاغى اجتماعى :
فالهند حينما بدأوا يضعون نحوهم ويفكرون فى مسأله كان هدفهم من
ذلك المحافظة على لغة كتابهم المقدس - Vedas - وشرح أساليبه .

وكذلك الأمر بالنسبة للنحو السريانى ؛ فعند ما وجد السريان ،
سواء منهم النسطوريون أم اليعقوبيون ، أن الفتح العربى قد امتد إلى

(١) انظر ص ٧٨ وما بعدها من هذا الكتاب

بيئاتهم وإن اللغة العربية بدأت تنافس لغتهم ، فزعوا من ذلك وخافوا على كتابهم المقدس - الإنجيل - من أن تمتد إليه يد التحريف فأخذوا في وضع قواعد لضبط اللغة كي تحدد الطريقة التي تقرأ بها نصوص الإنجيل .

وكان الخوف، على نصوص القرآن أولاً هو الذي دفع العرب إلى التفكير في وضع النحو وقواعده ، ونحن نورد هذا الرأي معتمدين في ذلك على الاتجاه العام عند الشرقيين في وضع أسس هذا العلم ، ومستندين إلى الروايات العديدة التي تؤيد هذا بالرغم من الروايات الأخرى التي تتلصق بوضع النحو الغربي أسباباً غير تلك الأسباب ، لا نجد محلاً لذكرها الآن ، وسنعرض لها بالتفصيل بعد قليل .

أما اليونانيون فلم يكن الحافز لهم على وضع هذا العلم خوفهم من أن يتدرب اللحن إلى لغتهم ، ولا حرصهم على نصوص مقدسة لديهم ؛ فقد كانت اللغة اليونانية يوم فكروا في وضع هذا العلم - القرن الخامس قبل الميلاد - في منتهى القوة والكمال . وإن لم يكن لها ما ينافيها من اللغات الأخرى ، ولكنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك أولاً بسبب رغبتهم في شرح شعر هوميروس وتفهم أساليبه ، وثانياً لتنشئة جيل يوناني قادر على تصريف أوجه الكلام وإقناع الجماهير في خطبهم السياسية والتضائية .

ولأسباب تكاد تكون مشابهة لذلك نشأ النحو اللاتيني ، فالروم ، فوق رغبتهم في تقليد اليونانيين بالنسبة لهذا العلم ، أرادوا تثبيت لغتهم

شرح أساليبها وأرجه اجمال فيها . وأول محاولة لهم في ذلك كانت في
نرن الثاني قبل الميلاد .

وهذه الظاهرة الخاصة بنشأة عالم النجوم ليست في الواقع سوى جزئية من
أهرة عامة تسود الشرق بجملة ، وظاهرة عامة أخرى تسود الغرب بجملة ،
في القدم والشرق يحده في تفكيره وفي أنظلمته الاجتماعية وفي فلسفته وفي
ومه معنى روحى يتنوع دائماً إلى السماء ، إلى الله ، إلى حياة أخرى لا خطر
مادية فيها ، وكل ما شاهدناه من آثار حضارات الشرق ومن إنتاج عقل
الشرقيين إنما هو ناتج عن هذا المعنى الروحى ، سواء أكان ذلك عن طريق
إشراق عن طريق غير مباشر . فكان الملوك عندهم يمثلون الآلهة على الأرض وأنظمة
الول وقوانين المجتمع مستمدة من الآلهة أو من ممثليهم . وهكذا في
ثر النواحي مما يدل على تغلغل هذا المعنى في البيئات الشرقية وتمكنه في
وس الشرقيين ، حتى لقد أصبح في كثير من الأحيان مظهر التقدم
الشرق والطابع الغالب في الثقافات الشرقية ، ولهذا فليس عن طريق الصدفة
، كان الشرق مهد الأديان (سواء في ذلك الأديان الوثنية أم الأديان
مماوية) . والمجال هنا واسع لدرس هذه النظرية وتحليلها ثم إثباتها
بأية للعصور التاريخية مدعمة بالأدلة ، ولكن ليس هنا مكان ذلك
صل العكبر والبحث التحليلى العميق ، غير أننا نكتفى بالإشارة فقط
، أن الشرق بوجه عام قد مر بمرحلتين واضحتين وهو في كثيرها كان متأثراً

إلى حد بعيد بذلك المعنى الروحي ولا نكاد نحس بأثر السلطان المادي في هاتين المرحلتين الطويلتين :

المرحلة الأولى

هي مرحلة الديانات الوثنية على اختلافها من عبادة الكواكب ، والنار ، والملوك ، والحيوانات ، والنباتات وغير ذلك من القوى الطبيعية مثلة في أوثنان . وكانت الزعامة لهذه الديانات تكاد تكون محصورة في بيئتين اثنتين ، إحداهما وادي النيل ، والثانية وادي دجلة والفرات . وحضارات هاتين البيئتين قديماً تفيض بذلك المعنى الروحي الذي أشرنا إليه ولا تترك مجالاً للشك في تغليب السلطان الروحي ، وفي استلزام الروح لوضع أنظمة المجتمع .

المرحلة الثانية

هي مرحلة الأديان السماوية على اختلافها أيضاً من يهودية ومسيحية وإسلامية . وكانت الزعامة لهذه الأديان محصورة بدورها أيضاً في بيئتين اثنتين ، إحداهما بيئة الشام ، والثانية أرض الحجاز في شبه الجزيرة العربية ، والطابع الغالب في هذه الأديان أيضاً هو طابع روحي ، إذ أنها تتجه بنظر الإنسان وتفكيره أولاً إلى القوة الخالقة والمهيمنة على هذا الكون ، ثم أنها تهدف أول ما تهدف إلى إصلاح الروح عند الإنسان ،

مقتنعة بأن إصلاح المجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا على أساس الإصلاح
الروحي . وعلى العكس من ذلك كله نجد المعنى المادى الواقعى سائداً عند
الغريبيين وأساساً لحضاراتهم ولإنتاجهم الثقلى حتى فيما من شأنه أن يكون
خاصاً بالمعنى الروحى كالأديان ، فإنهم صوروها فى كثير من الأحيان
تصويراً مادياً وجعلوا منها أداة لرقى المجتمع المادى قبل أن تكون
أداة للإصلاح الروحى .



نعود الآن الى موضوعنا الاصلى وهو نشأة النحو العربى ، ومن هذا
العرض الذى بسطناه آنفاً عن الظاهرة الروحية العامة عند الشرقيين
يتضح لنا أن الحافظ الاول الذى دفع العرب الى التفكير فى وضع علم
النحو هو الخوف على نصوص القرآن من أن تمتد اليها يد التحريف .
وهذا هو الرأى الذى نظمته الى وتأييده الوقائع ، وسنحاول إثباته بما
توفر لنا من اطلاع وبما استطعنا أن نهتدى اليه من استنتاج ، وفى توضيح
هذه المسألة والاهتداء الى رأى فيها توضيح لمسألة أخرى شائكة ، قد كثر
فيها الكلام ، وطال الجدل ، ولم يفته العلماء فيها الى رأى قاطع . تلك هى
مسألة تاريخ نشأة النحو العربى .

وهنا قبل أن نبدأ الكلام على سبب نشأة النحو العربى ، وتاريخ تلك
النشأة نحب أن نقضى على روح التشاؤم التى تسيطر على أفكار بعض

العلماء المحدثين . تلك الروح التي لا يقرها العلم في مختلف صوره ، ولا تعترف بها مناهج البحث الحديث ؛ وأن نبعد من حسابنا تلك الفكرة القائلة باستحالة الاضداد . إلى تاريخ وضع النحو العربي ، وتعدد معرفة واضعه . فما هو ذا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يذكر في جرأة وصراحة هذا النص : « أما تاريخ وضع النحو فلا سبيل إلى تحقيقه ألينة »^(١)

ثم يذكر الأستاذ ابراهيم مصطفى نصاً آخر في هذا المعنى مستنداً فيه على نفس المؤلف المتقدم ، إن معرفة واضع النحو في العريضة يكاد يكون معضلة^(٢)

هذه الأفكار وأمثالها ، عندنا معشر الشرقيين ، مشبطة للهمم مدعاة إلى التواكل والاستسلام . وليس أخطر على الشرق من أن تنتشر فيه هذه الروح ، وأن تعرف عنه تلك العقيدة ، لأنها تجعل الشرقيين يفقدون الثقة في أنفسهم ، وحينئذ لا مناص لهم من الاعتماد على الغير يأخذ بيدهم ، ويمدحهم بأبحاثه ، ثم لا يكون لهم من الجرأة الفكرية ما يستطيعون

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب. ص ٢٦٦

(٢) انظر بحث الأستاذ ابراهيم مصطفى عن - أول من وضع النحو - في مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد في المجلد العاشر ، الجزء الثاني ديسمبر سنة ١٩٤٨

براستها تحليل هذه الابحاث ولا نقدها كما صنع ، ويصنع الغرب حتى الآن ؛ وليس أدل على ذلك من تلهف الشرقيين على أبحاث المستشرقين وعلى آرائهم يأخذونها في كثير من الأحيان حجة مساهمة دون مناقشة ؛ بل ربما تمدحوا بذكرها والاطلاع عليها .

بعد هذه الملاحظة الخاصة بالروح العامة عند الشرقيين ، وبعد الدراسات الطويلة لتاريخ العلوم عند العرب ، وإدراكنا مبلغ حرصهم على الآثار الدينية ، نستطيع أن نؤكد بأن السبب المباشر في وضع النحو هو فزع العرب وخوفهم من أن يتسرب الخطأ واللهن إلى نصوص القرآن . وإذا كان هناك ما يفهم منه حرصهم على اللغة نفسها ، فليس ذلك إلا لأن اللغة أداة لقراءة النصوص القرآنية

ولو نظرنا نظرة إجمالية إلى العلوم العربية في العصور الإسلامية الأولى ، وجدنا أنها نشأت لخدمة القرآن أو تفرعت عن نصوصه ، إذ أن القرآن كان بمثابة المركز الرئيسي : كل المعارف العربية مجندة له ، وكل العلوم عربية الخالصة محيطه به . ولم يكن النحو في الواقع سوى حلقة هامة ن سلسلة تلك العلوم التي تخدم القرآن ، وتحافظ على نصوصه .

والذين يقولون غير ذلك تعوزهم الفكرة العامة ؛ والنظرة الشاملة لنسبة للعلوم الإسلامية كإمام . ثم إنهم -- في اعتقادنا -- لا يستندون بما يقولون على رأى ناضج ، ولا على منطق سليم . ولعل أهم وأكثر

الأخطاء التي تقع فيها إنما مصدره النظرة الجزئية التي تنصب على ناحية خاصة دون اعتبار للمكليات .

ولو كان مجرد اللحن في ثلاثة مدائح لوضع النحر لوجدنا على الأقل محاولات فيه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو أيام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ إذ أن اللحن موجود في البيئة العربية منذ ذلك التاريخ بل نعتقد أنه أقدم من ذلك عهداً ، فالبيئة العربية منذ مئات السنين قبل الإسلام كانت تعتبر مأوى للمهاجرين وطلاب الكسب من الأمم الأخرى مثل اليهود والفرس والأحباش والروم .

ولانريد أن نذهب بعيداً فنذكر هجرة الآشوريين والبابليين منذ ألفي سنة تقريباً قبل ميلاد المسيح . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يتكلمون العربية حتى يتنزه لسانهم عن اللسنة الأجنبية ويسلم منطقهم من اللحن والأخطاء . ومن يدرس الحالة الاجتماعية للقبائل العربية قبل الإسلام ، ويبحث على الخصوص في الحالة التجارية التي تسيطر على كل نشاط آخر في شبه الجزيرة العربية ، أو يلاحظ حركة الأسواق السنوية ^(١) التي تقام

^(١) اختلف العلماء في عدد أسواق العرب ، فبعضها القلقشندي في صبح الأعشى ٨ ، وبعضها البعوني في تاريخه والبغدادى في خزانته ١٠ ، وبعضها المرزوقي في الأزمعة والأمكنة ١٧ ، وبعضها الأتوسى في بلوغ الأرب ١٤ ، =

في أكثر من عشرين مدينة تحيط بشبه الجزيرة من كل نواحيها — من شواطئ البحر الأحمر إلى شواطئ المحيط الهندي ، إلى شواطئ الخليج الفارسي إلى البادية الشمالية الواسعة الممتدة من ريف العراق إلى بلاد الشام — ويعرف مبلغ ما كان يحدث في هذه الأسواق من اختلاط العرب بغيرهم من اليهود والفرس والروم ، وما يتبع ذلك من استيطان بعض هؤلاء



== ويعدها الهمداني في صفة جزيرة العرب ٥٠ ، ويعدها الأستاذ الأفغاني في أسواق العرب ٢٠ .

وسنذكر بعضاً من هذه الأسواق تاركين الخلافات الكثيرة بين المؤلفين القديما :

١ دومة الجندل : وهي في منتصف الطريق بين البصرة والعقبة ، وكانت تقام في أول ربيع الأول حتى منتصفه وأحياناً حتى آخره .

٢ المشقر : بالبحرين قريباً من هجر على شواطئ الخليج الفارسي ، وتبدأ السوق من أول جمادى الآخرة وتستمر حتى نهايته .

٣ هجر : وهي بالبحرين أيضاً على شاطئ الخليج الفارسي ، وتبدأ حيث تنتهي سوق دومة الجندل ، فكانوا ينتقلون إليها مباشرة في أول ربيع الثاني

٤ عمان : في جنوب الخليج الفارسي وتمتد على ساحل بحر اليمن ، وتبدأ حيث تنتهي سوق هجر ، وتستمر حتى آخر جمادى الأولى وزوايدها فرس وهنود وأحباش ويمينيون وحجازيون وشآميون .

الأجانب في المدن التي تنام فيها الأسواق قياماً بالتجارة أو طلباً للكسب عن
أى طريق آخر ، تقول أن من يدرس هذه الحياة الاجتماعية ويلاحظ ما
كان فيها من ذلك لا يخافه أدنى شك في أن المجتمع العربى القديم كان
يجرى فيه المدح على السنة هؤلاء الأجانب ، وربما على السنة بعض العرب
أنفسهم الذين يكثر من مخالطة هؤلاء الأجانب ، والذين لم يكونوا من
السادة ، ولا من الماترفين في المحافظة على اللسان العربى ، وفي استقامة

٥ حباشة : في تهامة فيما بين الحجاز واليمن وكانت تقام في رجب
٦ صحار : في أرض عمان وهي واقعة على شاطئ خليج عمان ، وتقوم
السوق من ١٠ رجب الى ١٥ منه أى بعد انفضاض سوق حباشة .

٧ دبا أودى : في أرض عمان أيضاً وتقوم سوقها بعد انفضاض سوق
صحار وتستمر حتى منتصف شعبان ، وهي تقع أيضاً على الساحل شمال
صحار .

٨ الشحر : على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بين عدن وعمان
وتقوم سوقها في منتصف شعبان .

٩ عدن أبين : تقع على بحر الهند جنوب مضيق باب المندب نحو الشرق
وتقوم سوقها بعد الشحر في مدة العشر الاول من رمضان .

١٠ صنعاء : في بلاد اليمن ، وهي العاصمة وسوقها تقام من رمضان
حتى آخره .

التركيب الصحيح . وينبغي أن نطمئن تماماً إلى أن ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تشيلاً صحيحاً كاملاً ، فإن لغة الشعر غير لغة الخطاب ، والعبارات التي تروى وتؤثر غير العبارات التي يتم بها التفاهم وأحاديث السادة غير أحاديث السوقة ، وينبغي أن نطمئن أيضاً إلى أن بعض العرب كان يستنكف وجود اللحن في اللغة ويتبرم من سماعه ، فلم تكن غيرة الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين من بعده على سلامة النطق وليدة أيامهم

١١ حضر موت : وهي منطقة واسعة في جنوب شبه الجزيرة بين عدن وعمان ، وسوقها تقام على رابية بها ، فتعرف أيضاً بسوق الرابية من ١٥ ذى القعدة حتى آخره . وربما لها الواسعة تعرف بالاحتفاف .

١٢ عكاظ : بين مكة والطائف وهي السوق العامة للعرب في الجاهلية وهي تقوم في ذى القعدة ، ويرى أكثر الرواة أنها تبدأ أول القعدة إلى ٢٠ منه .

١٣ بجنة : شمال عكاظ قرب مكة وتقوم السوق في العشر الأخير من ذى القعدة بعد انتهاء سوق عكاظ .

١٤ ذى الحجاز : شمال غرب بجنة وتقوم سوقها في أول ذى الحجة بعد انتهاء سوق بجنة مباشرة .

١٥ نطاقة خيبر : وخیبر قرية شمال المدينة ؛ بينها وبين تبوك . ونطاقة اسم حصن بها ، واسم عين أيضاً . وفي القرية حصون كثيرة لليهود ، وأهلها يهود جاءوا إلى الحجاز قديماً واشتغلوا بالزراعة والتجارة .

كما لم يكن التحريف في عهدهم بأدلة جديدة لم يسبق لها مثيل ، ويذنب أيضاً
ألا لسائر اللغتين بعمامة العربي من الآن ؛ وبعد اللغة في العصر الجاهلي عن
أى تحريف ؛ فهناك من أمرار اللغة ودقائق التعبير ما لا يمكن أن يدرك
بتأمل ، ونهاية ، ومران . وأماننا من ذلك صور حية في اللغات الحديثة
التي يعرف أهلها بلا استثناء القراءة والكتابة ومع ذلك لا يسلم لسانهم من
الخطأ ، ولا يتفقهون جميعاً على النطق الصحيح ، فما بال العرب إذن وهم قوم
أغلبهم أميون ؛ وكانوا يعيشون قبائل متفرقة ؟

ولكى نرى إلى أى حد كانت بلاد العرب معرضة لنجى الأجانب يمكن
أن نعرف ما كان يوجد في مكة نفسها من بيوت تجارية للروم الذين كانوا
يستخدمونها في أغراض أخرى كالتجسس على العرب ، وكذلك ما كان فيها
من أحباش أيضاً يقومون مقام السفراء في الشؤون التجارية بين العرب وأهل

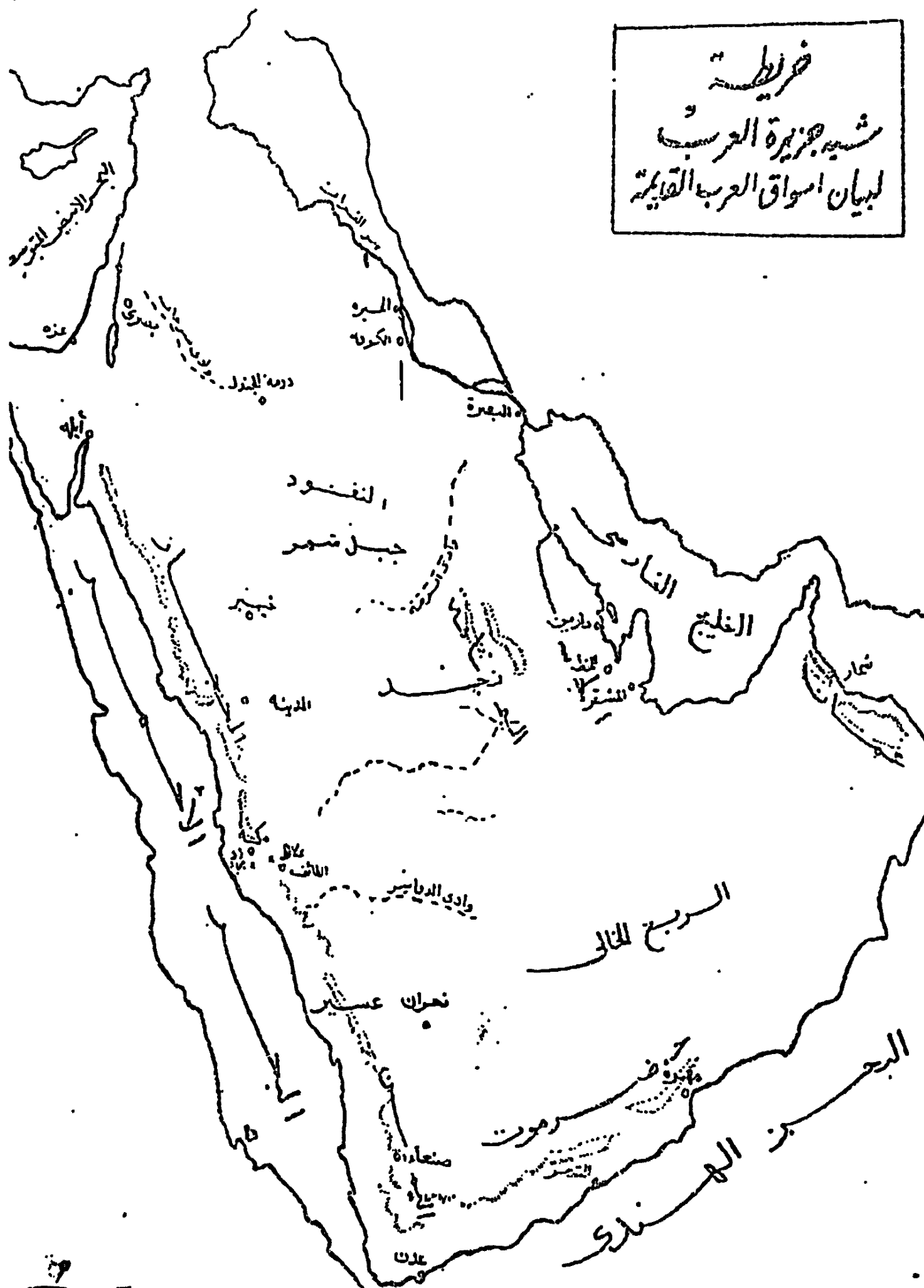
وكانت من أغنى بلاد العرب ، بل هي مصرف الجزيرة المالي . وسوقها
تقام بعد ذى الحجاز أى بعد أشهر الحج .

١٦ حجر : في بلاد اليمامة وهي غربي البحرين وجنوب العراق ،
وكانت تقوم بين عاشوراء وآخر المحرم ،
١٧ بصرى : في مشارف الشام ، وهي عاصمة صوران .

2.

3.

فريضة
مشيه جزيرة العرب
لبیان امواق العرب القايمه



إن من يلاحظ كل هذه الاعتبارات ، ويدرك مداها ، يستطيع في سهولة أن يتصور مبلغ ما كان فاشياً من اللحن في البيئة العربية قبل الإسلام . فهو بلا شك أكثر مما تحدث عنه الرواة ، ووصل إلينا صدهاء .

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى عند العرب جديرة بالاعتبار فيما نحن بصدد الحديث عنه ، إذ أنها ترينا بصورة واضحة مقدار تعرض المدن العربية إلى استيطان الأجانب ، ومبلغ ما يكون لهؤلاء الأجانب من أثر على اللغة ، تلك هي ظاهرة الفتيات الاجنبيات ، من روميات إلى فارسيات إلى حبشيّات ، اللاتي كن يقمن في البيئات العربية ، إما في صورة إماء ، إما لاحتراف مهنة البغاء . وكان ذلك فاشياً عند العرب في الجاهلية أكثر . نستطيع أن نتصوره . ونعتقد أن سادة العرب ، ورؤساء القبائل كانت نرثاؤلك الفتيات هذه المهنة ، إذ أننا نجد البغيات يقمن في أسواق العرب ، على الخصوص في سوق دومة الجندل ، أخبية خاصة لمباشرة هذا العمل .

(١) انظر فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٥

وقد عرف كذلك أن أول غزوة لبلاد العرب قام بها الروم في عهد إمبراطور أغسطس كانت قائمة على صلاتهم ببلاد العرب وأعوانهم فيها . ند تحدثت كتب التاريخ اللاتينية عن هذه الحملة الحربية ، وعزت سبب لها إلى عدم إخلاص أعوانهم وجواسيسهم في بلاد العرب .

ونعرف أن بعض العرب كان يتخذ من هذه الإلماـ مورداً للحكـب : ولم يكن ذلك قليلاً أو نادراً ، بلين اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المسألة ونهى القرآن عنها ، ولا تكرر دوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتنوا عرض الحياة الدنيا ؛ ومن يتكردهن فإن الله من بعد إكراهن غفور رحيم ^(١)

وحسبنا في هذا أن نعلم أن أم عنتره بن شداد كانت حبشية اسمها زبيبة ، وأن أباء لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن ظهرت مواهبه في ميدان الرجولة ؛ وفي ميدان الأدب ، وقد توفي عنتره هذا في سنة ٦١٥ م . ثم في أيام ظهور الاسلام نجد صهيياً الرومي ، وبلالاً الحبشي ، و سلمان الفارسي ، وغير هؤلاء وأولئك كثير ممن أبلوا في المحنة الإسلامية الأولى بلاء حسناً ، وكان السادة من قريش يسمونهم أراذل الناس . وينبغي ألا يغيب عنا كذلك ما كان في شمال بلاد الحجاز من جالية يهودية كبيرة ، وما كان لها من صلات تجارية وثقافية متبادلة مع من جاورها من العرب .

لكل هذه الاعتبارات لا نستطيع أن ننفي وجود اللحن في البيئات العربية قبل الإسلام ، ولا في عهد الرسول ؛ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده . ولا نستطيع كذلك أن نقلل من كمية ما كان موجوداً في تلك العهود من لحن في اللغة العربية . وإذا كان الرواة قد حدثونا عن حوادث فردية وقع

(١) أنظر أسواق العرب للأفغاني ص ٤٥ : ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

أما لحن أمام الرسول وأمام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ فثاروا له ونهبوا ، إصلاحه فلنشق بأن أمثال هذا اللحن كان كثيراً . غير أن هذا اللحن لم يكثره لم يكن ذا خطر ، ولم يكن هناك ما يخشى عليه من هذا اللحن . القرآن كان محفوظاً في ذاكرة الصحابة من العرب الخالص . ولم ينتشر نظمه بين الكثير من الطبقات إلا بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية ، تمتد نفوذ الإسلام . وحينئذ يأتي دور اللحن الخطير ، ويخشى منه على صوص القرآنية فيفزع العرب كما فزع الهنود والريان من قبلهم ؛ ويهبون بمسئون الوسائل لوضع ضوابط تحفظ القرآن من هذه الاخطار .

والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها من وراء هذا العرض هو أن السبب اشر في وضع النحو العربي ليس اللحن نفسه ، وإنما هو الخوف على آيات القرآنية من أن تمتد إليها يد التحريف ، أن ذلك لم يكن بطبيعة الحال م كان العرب مستقرين في بيئاتهم الأولى ، ودولتهم تكاد تكون محصورة بيئة الحجاز ؛ بل كان ذلك حينما انتقل سلطان الدولة الإسلامية إلى مات غير عربية ، وخضع لهذه الدولة أفواج عديدة من الأجانب فرس ، وريان ، وعبرانيين .

زيج اللحن في العربية :

ليس من السهل أن تؤرخ انظاهرة اللحن متى وجدت ، كما أنه ليس من بل أن تؤرخ لأفراده ، أي ، أية لحن وجدت أولاً ، ولكن من اليسير

أن تؤرخ لأنواعه ، بمعنى أى نوع من أنواع اللحن يمكن أن يكون قد وجد أولاً - وقبل أن نعرف اللحن وتؤرخ لمعرفةنا به نحب أن نحدد لذلك بالكلام عن أنواع اللحن : وهذه الأنواع يمكن أن توضع في أربع طوائف : الطائفة الأولى : لحن يخص علامات الإعراب مثل : متعلين ^(١) ،

ومنتنين ^(٢)

الطائفة الثانية : لحن يخص طريقة النطق كأن ينطق بالحاء هاء ، أو بالقاف كافاً كنطق صبيب وبلال .

الطائفة الثالثة : لحن يخص بنية الكلمة مثل توضيت بدل توضأت ^(٣) . ومعاش بدش معاش .

^(١) إشارة إلى ما روى من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يرمون ، فاستمع رميم ، فقال : ما أسوأ رميمكم !! فقالوا : نحن قوم متعلين (بدل متعلمون) فقال عمر : لحنكم أشد على من فساد رميمكم .

^(٢) إشارته إلى لحن وقع من أبي حنيفة في هذه الكلمة ، حيث يذكر أبو هلال العسكري في كتابه - المعجم في بنية الأشياء - ص ٢٨ ، ٢٩ ، خبراً مسنداً ينتهى فيه السند إلى أبي عثمان المازني وسنعرض لهذا الخبر بالتفصيل بعد قليل .

^(٣) هذه الحنة منسوبة إلى الحسن البصري : ونسبنا الكلام عليها

بعد قليل .

الطائفة الرابعة : لحن يخصص وزن الكلمة مثل : رعد وبرق بدل أرعد وأبرق . . وما شاكل ذلك .

وسيتبين لنا بعد قليل أن هذه الأنواع الأربعة من اللحن يمكن أن تؤول إلى نوعين اثنين ؛ إذ أن نوع اللحن الخاص بنطق الأجانب ، والذي هو وليد التكوين الطبيعي للقفوات الصوتية ولخارج الحروف فيها يمكن أن يصرف عنه النظر ، ولا يعد لحناً مستقلاً بذاته ، ولهذا فقد أهمله رجال اللغة ، ولم يلقوا إليه بالاً ؛ وكذلك لم يكن له من الحظر على اللغة ما يخشى منه ، فلم يقابل من العرب المخلص قبل الإسلام وبعده بمثل ما كان يقابل به أى نوع آخر من أنواع اللحن .

وأما الطائفة الثالثة والرابعة فيمكن اعتبارهما نوعاً واحداً من اللحن إذ أن اللحن في بنية الكلمة لا يكاد يفرق عن اللحن في وزنها ، وسيظهر بعد قليل أن خطرهما واحد ، وأنه في درجة أقل من اللحن في الإعراب . وإذن فنحن أمام نوعين من اللحن هما : اللحن في علامات الإعراب ، واللحن في بنية الكلمة أو في صياغتها ؛ ومع ذلك فأننا نستطيع أن نقول ، على ضوء ما تقدم ، إن لسكنة النطق هي التي يمكن أن تكون قد سبقت كل الأنواع الأخرى ، ولم تكن فيما نظن عظمة الخطر ، بل كان لا بد للعرب المخلص أن يتجاوزوا عن سماعها ما داموا قد أجازوا للأجانب أن يقيموا فيها بينهم .

ثم يأتي اللحن في علامات الإعراب بنوعها : حروف وحركات وكان هذا النوع أشد الأنواع على أذن العربي الخالص وأخطرها على اللغة الفصحى . وأخيراً يجيء النوعان الآخران ، ويعتبر خطرهما في المرتبة الثانية .

والذي أفرغ العرب وجعلهم يفكرون في وضع ضوابط هو النوع الثاني من الأنواع الأربعة . وذلك لأن نصوص القرآن كانت مدونة ، ولا مبدل للخوف عليها من ناحية بنية الكلمات . وإنما الخوف كان من ناحية الشكل الذي لم يكن قد ثبت بعد . وبعد ضوابط الشكل فكروا في ضوابط البنية . وليس من شك في أن طبيعة صنيع العرب في الضبط تدل على أخطر الأنواع ، فالاهتمام الأول كان منصباً على الشكل أى على علامات الإعراب . ثم يجيء الاهتمام ببنية الكلمة فيوضع نقط الإعجام . وليس من شك كذلك في أن الخلط في علامات الإعراب أسرع على اللسان . وأسهل في الارتكاب من الخلط في بنية الكلمة . فليس من السهل على العربي المقلد أن يخلط بين ما أحسن وما أحسن مثلاً ؛ ولكن من السهل عليه أن يخلط بين ما أحسن بفتح النون وما أحسن بضمها .

ويدخل تحت النوع الرابع من صور اللحن ما تستعمل فيه الكلمة أو التركيب في غير ما وضع له . مثال ذلك استعمال كلمة (محبطين) التي معناها المنتفخ البطن ، في معنى من تورمت أنفه غضباً . والذي ارتكب

اللحن وعيب عليه هو شبيب بن شبة المتوفى سنة ١٦٤ هـ^(١)
وقد نسب إليه اللحن أيضاً حينما استعمل هذا التركيب (ما بين لابتها)
دأ بذلك البصرة . بينما هذا التركيب كان يستعمل خاصة في المدينة^(٢)
ولعل هذه الصورة وأنشائها أبسط أنواع اللحن ، ويمكن أن يلتمس
نّها سبيل التجوز ، ولا ضير في هذا ، ولكن ذلك لم يمنع نسبة اللحن
قائلها ، مما يدل على مبلغ تشدد القدماء في الاستعمال المأثور ، وهو
ما يسمى عند الفرنسيين بالمعنى الخاطيء . *fanse song*

والآن بعد الكلام عن أنواع اللحن ، وذكر بعض الأمثلة لكل نوع
لبحثنا موضوع اللحن نفسه : ما هو ؟ ما مظاهره ؟ ما تاريخ
ده في اللغة العربية ؟ وأخيراً ما هو خطره ؟

يعرف اللغويون اللحن بجملة معان وبذهبون في فهمه إلى مذاهب شتى
رون من معانيه التجريد في القول والغناء فيه كما يذكرون أيضاً بأن
الخطأ في القراءة ، ثم ينتقلون إلى واد آخر فيقولون إن معناه اللغة
ا ، كما يقولون كذلك إن معناه الفطنة والفهم ، وحسب هذه المعاني
أكثر آراء اللغويين في القاموس ولسان العرب عند شرح هذه المادة .

^(١) انظر ياقوت : إرشاد > ٢ ص ٣٧٢ ، ومعجم البلدان له

> ٤ : ٣٣٥

^(٢) انظر البخاري : فضائل المدينة ، وانظر كنز العمال > ٧ ص ١٥٣

ويظهر أن الأصل فيها هو الميل بمعناه العام وعن هذا الأصل تفرعت
المعاني الأخرى فحين يلحن المعنى يكون قد مال عن الطريقة المتبعة في الكلام
إلى طريقة أخرى يتأرب بها السامعين ، وحين يخبئ المتحدث في حديثه
يكون قد مال عن طريق الصواب في قوله ، وحين يتحدث المرء بلفظة
قوم آخرين أو ب لهجة قبيلة أخرى يكون قد مال عن لغته هو إلى لغة هؤلاء
أو أولئك ليشرح بها أفكاره ومعانيه ، وحين يحاول المتكلم أن يشرح
معنى عنده ويفهمه الآخرين يكون قد مال إلى هذا النحو من القول ؛
وكذلك حين يريد أن يعرض بمعنى في نفسه بحيث لا يفهمه كل السامعين
وإنما يدركه بعضهم فقط يكون كذلك قد مال عن طريقة القول الواضح
للجميع إلى طريقة أخرى فيها تعمية وغموض مقصودان .

وينقل صاحب اللسان عن ابن بري كما ينقل عن غيره أن اللحن يشتمل
على المعاني الستة الآتية وهي : أولاً - الخطأ في الإعراب ، ثانياً : اللغة ،
ثالثاً : الغناء ، رابعاً : الفطنة ، خامساً : التعريض ، سادساً : المعنى .
ثم يذكر لكل واحد من هذه المعاني مثلاً أو أكثر كشاهد على
ما يقول . فمن المعنى الأول وهو الخطأ في الإعراب قول مالك بن أسماء
بن خارجة الفزاري :

منطق هائب وتلحن أحيا . نأ وخير الحديث ما كان لحنا .
ومن المعنى الثاني ، وهو اللغة ، قول عمر : (تعلموا الفرائض والسنة
واللحن .) بالتحريك أي اللغة .

ومن المعنى الثالث ، وهو الغناء والتجريد وترجيع الصوت ، قول يزيد
ابن النعمان :

لقد تركت فؤادك مستجنا ٥ مطبوعة على فنين تغنى

يميل بها وتركبه بلحن ٥ إذا ما عنى للمحزون أنا

فلا يحزنك أيام تولى ٥ تذكرها ولا طير أرنا

ومن المعنى الرابع وهو اللحن بمعنى الفطنة قول الرسول صلى الله عليه
وسلم : إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض -
أى أفطن لها وأجدل - فن قضيت له بشىء من حق أخيه فإنما أقطع له
قطعة من النار .

ومن المعنى الخامس وهو اللحن بمعنى التفريض والإيماء ، قول القتال
الكلابي :

ولقد لُحنتُ لَكُمْ لكيما تفهموا ٥ وَوَحِيتُ وَحياً ليس بالمرتاب

ومن المعنى السادس وهو المعنى ، قوله تعالى : ولتعرفنهم فى لحن
القول . ، أى خفواه ومعناه .

والذى يهمنى من كل هذه التفاصيل هو اللحن بمعنى الخطأ ؛ واللغويون
بالرغم من هذا البيان وذلك الشرح لا يقدمون لنا مثالا نستطيع أن نفهم
منه معنى الخطأ المقصود ؛ وكل ما نذكر عليه من توضيح فى هذا عندهم هو
قولهم : الخطأ فى الإعراب ، غير أن ذلك أيضاً لا يزال فى شىء من

الغموض ، وفي حاجة إلى البيان ، لأننا سنرى بعد قليل أن الرواة في الأدب ورجال البحر كانوا يعمدون معنى اللحن فلا يخصونه فقط بلحن الإعراب .

وما هي ذى أمثلة من رواياتهم توضح لنا وجهة نظرهم ومبلغ فهمهم لمعنى اللحن : يروى ابن الأنباري في كتابه « الأضداد » : أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يمارسون الرماية فساء منهم سوء رميهم فقال : ما أسوأ رميكم . فقالوا : نحن قوم متعلمين . فقال عمر : لحنكم أشد على من فساد رميكم .

وروى أيضاً أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب عن لسان أبي موسى يقول : « من أبو موسى » وحينما وقف عمر على هذا الخطاب ساء ما رآه فيه من لحن ، فكتب إلى أبي موسى يطلب منه أن يضرب كاتبه سوطاً على هذا اللحن .

ويروى لنا أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه « المعجم في بقية الأشياء » (١) ما يأتي : سمعت سعيداً بن أوُس يقول : لقيت أبا حنيفة الخدثي بحديث فيه : « يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنن قد محشتهم النار » فقلت له : قوم منتنن قد محشتهم النار ؛ فقال لي : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ؛ قال : كل أصحابك مثلك ؟ قلت : فإني من أدونهم ؛ فقال :

(١) انظر ص ٢٩ .

طوبى لقوم أنت أدونهم ١ (١)

ويروى أيضاً أن أبا عمرو بن العلاء المقرئ النحوى كان يتتبع لحرف
أبي حنيفة ، صاحب المذهب الفقهي المشهور ، ويستقبحه ثم لا يتخرج من
إبداء نصحه إلى هذا الإمام بأن يتعلم العربية ويحيد النحو (٢)

من ذلك ما يروى أنه سأل أبا حنيفة مرة عن القتل بالمثل وهو القتل
بغير آلة حادة - هل يوجب القود أم لا ؟ فقال أبو حنيفة : لا ؛ فقال
له أبو عمرو : ولو قتله بحجر المذنب ؟ فقال : ولو قتله بأبا قبيس -
أي الجبل المائل على مكة .

ويروى أبو هلال العسكري أيضاً (٣) : وحدثنا عن الصولي عن أبي
حنيفة محمد بن الحباب قال : دخل أبو عمرو بن العلاء دار الزبير ، وهي
دار الدقيق بالبصرة ، فقرأ على أعداد الدقيق - أي غراراته : د كتاباً

(١) يلاحظ أن أبا هلال قد تحامل على أبي حنيفة بسبب ضعفه
في العربية ، ولكن العجيب أنه نفسه في نفس الكتاب يستشهد برأى
أبي حنيفة في اللغة حيث يقول ص ٢٧ : د (الخصاصه) ما يبقى في الكرم
بعد قطافه : العنقيد الصغير ما هنا وآخر ما هنا ، والجمع الخصاص بضم الخاء .
وقال أبو حنيفة : هي الخصاصة ، والجمع خصاص ، وكلاهما بالفتح ،

(٢) أنظر : المعجم في بقية الأشياء لأبي هلال العسكري ص ٣٩ - ٤٠

د البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢ س ١٧

لأبو فلان . ، فقال : السبب ، يلحنون فيرمجون .

وعما نحن بسبيله ايضاً ما روى عن الوليد بن عبد الملك بن مروان ،
وكان معروفاً بكثرة اللحن ، من أنه خُتِبَ الناس في يوم عيد فقرأ في خطبته
هذه الآية القرآنية : يا ليتها كانت الناضية ، بضم الناء في ليتها بدل فتحها ؛
وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً فقال : عليك وأراحنا منك .^(١)

ويروى كذلك ان الفرزدق كان ينأى بلغته ويجناب طريقها المعروف
فيلحن ؛ وكان عبد الله بن يزيد الحضرمي البصري مهتماً باعتراضه ونسبته
إلى اللحن : ولما عرف ذلك الفرزدق عنه هجاه بهذا البيت :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ه ولكن عبد الله مولى موالياً

فقال له الحضرمي : لحننت ... ينبغي أن تقول : مولى موال .

وقد نسب ايضاً هذا البيت إلى الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ه من المال إلا مسحتاً أو مجلف

الشاهد في رفع مجلف

وبهذه المناسبة يقول ابن قتيبة : وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة ،
فقالوا وأكثروا ولم يأتوا بشيء يرتضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر
أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه ، وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه

^(١) انظر : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦ للأستاذ مصطفى
صادق الرافعي .

هذا البيت فسمعته وقال : على أن أقول وعليكم أن تحتجروا . . . ! ^(١)

وها هو ذا نص كتاب ينقله لنا ابن رشيق عن بيتي كتاب التسيروان وقد بعث به إلى صاحبه . ومن هذا الكتاب يتبين لنا نوع اللحن ، وهو الذي يهمننا بصفة أساسية فيه : « يا أخى ومن ذا عدمت فتدده . . . » أهملنى أبو سعيد كلاً ما أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتى . . . وعاقنا اليوم فلم يتعباً لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من امر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً وكتابتى إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله .

وبعيننا ملاحظة القمل ، تأتى ، بعد « الذين » ، « حرفاً واحداً » بعد « ليس من هذا » ^(٢)

^(١) إن هذه الصورة التى ينقلها إلينا ابن قتيبة عن موقف النحاة من بيت الفرزدق ومحاولتهم إيجاد علة لهذا الرفع فى كلمة « مجلف » والتماس حيلة لتسويته يذكرنا تماماً بالصورة التى نأخذها عنهم حينما يجدون نصاً عربياً قديماً يخالف قواعدهم النحوية فيتأسسون له التعليل غير مقدرين أن يكون ذلك لحناً أو أنه من آثار اللغة قديماً أو متمشياً مع لهجة قبيلة من قبائل العرب التى لم تنفق مع قريش فى لهجتها . وقد رأينا موقف المبرد منهم فيما مضى ، ص ٩٠ من هذا الكتاب

^(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٢٧٠

ويذكر التوزير جندب الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي في كتابه
« إنباء الرواة على أنباء النحاة » أمثلة عدة من اللحن نقبس هنا بعضها .

يقول القفطي (١) : ثم إن زياداً .. وكان والياً على العراق — سمع
بشيء مما عند أبي الأسود — يريد بذلك ما وضعه من النحو — ورأى
اللحن قد فشا ، فقال لأبي الأسود : أظهر ما عندك ليكون للناس إماماً :
فامتنع من ذلك ، وسأله الإغناء ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ :

« إن الله برىء من المشركين ورسوله . » بكسر اللام ، فقال :

ما ظننت أمر الناس آن إلى هذا .

ثم يقول القفطي بعد ذلك (٢) : وقد قيل : « إن الذي رآه أبو الأسود
ونكره ، أنه مر به سعد — وكان رجلاً فارسياً من أهل نوبخت —
كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فادعوا لقدامة بن مظعون أنهم أسلموا
على يديه ، فأمنهم بذلك من مواليه .

ولما مر سعد بأبي الأسود — وكان يتود فرساً له — قال له أبو الأسود :

مالك لا تركبه يا سعد ؟ قال : « إن فرسي ظالماً ، وأراد أن

يقول « ظالع » ،

(١) إنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي ج ١ ص ٦

(٢) إنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي ج ١ ص ١٥٠

ويروى التقطلي كذلك أن قوماً جاؤا إلى زياد ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وترك بنون . فقال زياد : توفي أبانا وترك بنون ! ادع لي أبا الأسود . فقال : ضع للناس العريية .^(١) ونضيف إلى ماتقدم هذه الأمثلة الأخرى من اللحن ، وسيتبين لنا منها أنها من نوع آخر منه . من ذلك ما وجد في بعض رقاع مكتوبة قد وجدت في عدد من قرى مصر منها ما يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ١٢٧ هـ . ومنها ما يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٢ هـ ، سنة ٢٥٠ هـ ، سنة ٢٧٩ هـ ، سنة ٢٩٥ هـ وقد تكلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عن هذه الرسائل ، وحاول أن يبين ما تشتمل عليه من لحن ، ثم نقل نص رسالة منها .^(٢) وبيننا من كل ما كتبه الأستاذ خاصاً بهذه الرقاع هو نوع اللحن الذي استخرجه من بعضها ، وأشار إليه ، وهو استعمال كلمة (دنير) بدل (دنانير) . ومن هذا النوع أيضاً ما ذكره الجاحظ من أن أول لحن سمع بالبادية هو د هذه عصاتي ، بدل د هذه عصاي د .

ومن ذلك أيضاً ما يروى من أن الحسن البصري قال لبعض جلسائه يوماً توضيت ، فقبل له أتلحن يا أبا سعيد فقال إنها لغة هذيل . ويراد من هذا أنه قال (توضيت) بدل (توضأت) . وبهنا من ذلك اعتبارهم

(١) - أنباء الرواة على أنباء النحاة للتقطلي ج ١ ص ١٥

(٢) - تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(توضيت) لحناً على فرض أن هذيلاً لا تنطق بها كذلك .

وربما يلاحظ القارىء أننا أطننا في هذا الموضوع واستطردنا فيه ثم أكثرنا من ذكر الأمثلة ، والواقع أننا قصدنا إلى هذا الاستطراد قصداً وأردنا من الإكثار في هذه الأمثلة أن نقدم صورة واضحة عن اللحن في أزمته المختلفة وعن وجهة نظر الرواة ورجال النحو بالنسبة لهذا اللحن وكيف كانوا يفهمونه في الكلام .

واستعراضنا لهذه الأمثلة يهديننا إلى ملاحظة نوعين مهمين من اللحن ^(١) النوع الأول : هو ما كان خاصاً بعلامات الاعراب ، وهو ما يشمل القسم الأكبر من هذه الأمثلة « كمتعلمين ، بدل « متعلمون ، « متنين ، بدل « متنون ، و « أبو موسى ، بدل « أبي موسى ، ... الخ .

النوع الثانى : هو ما كان خاصاً ببنية الكلمة ولا يمس علامة الاعراب في شيء : وهو القسم الأخير من هذه الأمثلة ، وذلك مثل « دتير ، بدل « دنائير ، و « توضيت ، بدل « توضأت ، و « عصاتي بدل « عصاى ، . أما اللكنة الطبيعية في النطق فلا نرى وجهاً لاعتبارها لحناً يخشى منه على اللغة حتى تكون نتيجة التفكير في وضع ضوابط تحفظ اللغة ، وتقى الناطقين بها من الوقوع في أمثالها ؛ وأما اللحن الخاص ببنية الكلمة ،

(١) - انظر صفحة ١٦٥ من هذا الكتاب

فذلك اللحن الخاص بوزنها فتد رأينا جميعها في نوع واحد ، وذلك من
بث الخطورة في كل منها .

أختار أنواع اللحن : إن في اطلاعنا على كتب الرواة المختلفة وفي بحثنا
، هذه الأمثلة لم نجد واحداً من أصحاب هذه الكتب ولا واحداً من
صاحب هذه الروايات قد حاول إن يتأس فرقاً بين دذين النوعين من
حن أو يبين خطورة أحدهما على الآخر ، وكان اللحن كله في نظرهم
بعاً سواء .

فالمبرد حين يورد أمثلة من اللحن لا يحاول التفرقة فيما بينها سواء
كان اللحن خاصاً بعلامات الإعراب ، أم ببنية الكلمة وإنما يكتفي
مية الكل لحناً في اللغة ، وكذلك أبو هلال العسكري ، الذي ذكرنا له
س الأمثلة من اللحن ، لا يفرق بين نوع ونوع آخر منه ، ولا يكتفي
ن ننتقل إلى ميدان آخر من ميادين العلماء ، ونخني به ميدان القراء الذين
يصون على قراءة القرآن ووضع ضوابط لها ، ودراسة هذه القواعد ثم
ام القرآن للآخرين ، نقول إننا لو انتقلنا إلى ميدان هذه الطائفة من
ام لوجدنا معنى اللحن يتضح قليلاً ؛ إذ أنه يتجه أولاً إلى التغيير الذي
بب علامات الإعراب ، كما أن كلمة خطأ أو غلطة تأخذ لها وجهة أخرى
لق على تغيير كلمة بكلمة أخرى أو تقديم كلمة من الجملة كان محلها التأخير
تأخير كلمة كان محلها التقديم ، فمثلاً لو قرئت الآية : إن الله يرى من

من المشركين ورسوله ، بالجور في الرسول بدل الرفع ، لا يعتبر ذلك لحناً ، وكذلك لو قرئ ، أحب ، في قوله تعالى ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، بارتفاع بدل النصب لكان ذلك لحناً . وكذلك لو قرئت الآية ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، برفع الله ونصب العلماء لكان ذلك لحناً عند من لا يميز هذه القراءة ، وكذلك التفسير الذي يحدث في حركات الإعراب في قوله تعالى ، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ، .

أما الخطأ أو الغلط فهو ما يمكن أن نلاحظ إذا قرأ قارئ (يلبسون الباطل بالحق ، بدل يلبسون الحق بالباطل ، أو ، فخر عليهم السقف من تحتهم ، بدل ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، ، وهكذا كل تغيير في الكلمة أو في الجملة لا يترتب عليه تغيير أو فساد في علامات الإعراب .

وقد ترتب على هذا الاختلاف في النوع عند هؤلاء العلماء اختلاف في تقدير المسؤولية فكان اللحن عندهم أشد من الغلط ، ولازلنا حتى اليوم نلصق هذا الفرق عند من يحفظون القرآن في الكتابات ، أو يشرفون على تجويده في المعاهد الدينية والمساجد ، ويبدو أن هذا النوع من الفهم ومن تقدير الخطورة في بعض اللحن دون بعضه الآخر هو ما يتمشى مع طبيعة اللغة العربية ويتفق وعقلية أصحاب هذه اللغة حينما يعتمدها شيء من التعريف ،

إن اللحن الذي فزع له عمر بن الخطاب، واستشار منه كان لحناً في علامات الإعراب ، واللحن نذري لثقت نظير التولاف من العرب والمشرقيين على اللغة العربية وأيقظ أبا الأسود السكيتي يبدأ في وضع ضوابط تحفظ بها نصوص القرآن كانت كذلك لحناً في علامات الإعراب كما تجمع على ذلك غالبية الروايات . وبالرغم من أن الرواة لم يبينوا لنا نوع اللحن الذي حدث في مضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فغضب له وأمر أصحابه بإرشاد صاحبه ، قول بالرغم من أننا لم نتف على نوع هذا اللحن فإننا نظن بل نرجح أنه أن لحناً في علامات الإعراب لا في شيء آخر .

ويشبه هذا تماماً ما لمناه أثناء دراساتنا للغات القديمة المعربة من نينية ويونانية ، فالمشرفون على تدريس هاتين اللغتين قد فرقوا بين أنواع الأخطاء ووضعوا لكل نوع اصطلاحاً خاصاً وقدروا مكاتبه من الخباورة ، أشد هذه الأنواع عديم ما كانت متناولاً لعلامات الإعراب ، ولذا ند سموه *contre sens* ، ونستطيع أن نقابله في العربية بكلمة اللحن ، فق ما بيناه منذ قليل ، ثم يأتي عديم في الدرجة التالية من الخطر ما سطلحوا على تسميته *faux sens* ومعناه المعنى الخاطئ ، ويشمل هذا النوع وضع كلمة مكان كلمة أخرى أو حذف حرف من بنية الكلمة أو زيادة حرف ليها أو ما شاكل ذلك ، مما لا يترتب عليه تغيير في علامات الإعراب . ولقد بالغ المشرفون على هاتين اللغتين فأدخلوا المسألة في تقديرات بساية فقدروا اللحن بثلاثة أخطاء . وما لمناه في دراسة هاتين اللغتين ن حيث الأخطاء وتقديرها أعاد إلى ذاكرتنا صورة ما رأيناه يوم كنا

نحفظ القرآن عند التلقيه أو د الريحه ، إذا كان يحاسبنا على الغلظة بمعنى
وعلى اللعنة بثلاث .

ما تقدم يتضح أن الرواة وعلماء اللغة ورجال النحو لم يكونوا يفرقون
بين لفظ لحن ، وغلط ، وخطأ . وقد تبين لنا من استعمالهم ومن أمثلتهم
أنهم كانوا يستعملون الواحد من هذه الأسماء مكان الآخرين ، ولم تكن
لديهم الدقة التي لاحظناها عند القراء في دائرتهم الضيقة ، وحتى النحاة حينما
كانوا يتحدثون القراء ويناقشونهم في قراءاتهم وآرائهم كانوا يطلقون عليهم هذه
الألفاظ الثلاثة ، وكأنها مترادفة ، دون تمييز في المعنى ، ولا علاحظة في
الفرقة بين أنواع الأخطاء .

وما علينا إلا أن نطلع على كتاب سيبويه أو على خطوط القراء - معاني
القرآن - لنرى تبرير ما ذهبنا إليه ، وفرق ذلك فقد جمع لنا الأستاذ
عبد الوهاب حموده في كتابه - القراءات واللهجات - أمثلة عدة من هذه
الأخطاء التي نسبها النحاة إلى القراء ومع ذلك لم يتجروا فيها الدقة من
ناحية التسمية أو الفرقة بين الخطأ والغلط واللحن . ومع ذلك فقد حاولنا
أنلأ هذا العرض أن نفرق بين هذه الأنواع ، ونحدد على وجه التقريب
ميدان استعمال هذه الألفاظ ، ثم خاتورة بعضها على البعض الآخر ، معتمدين
في ذلك أولاً على الاستقراء والفهم ، ثم على الاستنتاج .

ونعود بعد هذا إلى الكلام عن تاريخ اللحن ، وقد وضع فيه رأينا بما
ذكرناه قبلاً ، وهو أنه لا سبيل إلى تأريخ هذه الظاهرة في اللغة تأريخاً
علياً وإذن فليس من السهل أن نقبل ما قاله بعض القدماء في هذا وتبهم

بعض المحدثين من أن أول لحن ظهر في البادية هو « عصاى » ، بدل
« عصاى » ، وأول لحن سمع بالعراق هو « حى على الفلاح » ، بالكسر بدل « حى » ،
لفتح .

أنت هذا رأى يحمل فساداً في طباقه . ونظن أن أبسط العقول لا
منطّيع أن يتصور صحته .

وربما يلاحظ القارئ تناقضاً بين موقفنا هنا وموقفنا عند ما أشرنا إلى
أمة النحو العلمى في اللغة العربية ، والواقع أن الموقفين متغايران تماماً ،
أرى النحو غير تأريخ اللحن ، إذ النحو ظاهرة اجتماعية لا تنشأ إلا إذا
فرت لها أسباب وبذل في سبيلها بجهود كبير وتعاون عليها في أغلب
أحيان عدد من المفكرين ، وهذا هو ما تلاحظه في نشأة العلوم أيّاً كان
غيا وفي أى زمان أو مكان كان نشوؤها .

أما اللحن فهو ظاهرة فردية تحدث طوعاً دون يقظة من صاحبها ولا
اية من المجتمع ؛ وإذن فلا سبيل إلى تأريخ نشأتها ولا إلى معرفة أوليتها في
نوع بله عند الشخص نفسه . وهنا نوضح ما أشرنا إليه أكثر من مرة
مضى وهو أنه في غير ما يمس عقائدنا ينبغي أن نتردد بعض الشيء في
الآراء الحاسمة التى نطالعها في كتب القدماء ؛ كما ينبغي أن لا ننسى أمامها
سنا أو نهمل عقولنا ؛ فلم تكن العممة من مستلزماتكم كما لم تكتب علينا
مية لحن دائماً في كل ما رآه ، وإلا لما تقدمت الإنسانية ولا رقى العقل

اللعن كما ذكرنا ظاهرة فردية في نشأته غير أنه حين يتفشى نسبياً ويجرى على بعض الألسنة في التلبيته المثقفة من الأمة أو أمام هذه الطبقة يمكن أن يستلفت النظر ، وحينئذ يلاحظه المجتمع ويستطيع أن يصدى رأيه فيه ، وصدى ذلك في هذه المرحلة فقط هو الذى يمكن أن يصل إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الكتابة أو عن طريق الرواية ، وعلى هذا الاعتبار يمكننا أن نتصور حالة اللحن في اللغة العربية وتاريخ معرفتنا به لا تاريخ نشأته في البيئة العربية . وإذن فستطيع أن نفترض ونحن متلمثون إلى هذا الافتراض أن اللحن وجد في اللغة العربية قبل الإسلام ، ليس فقط في مدن الثغور أو في القبائل التي كانت تعيش في أطراف شبه الجزيرة وفي جوار الأخلاط من الأمم الأخرى ، ولكن في بيئة الحجاز أيضاً وهي أتق البيئات وأصفها لغة وأسلوباً ، وهناك أسباب عدة تحملنا على صحة هذا الافتراض قد أشرنا إلى بعضها فيما مضى حينما كنا نتكلم على أثر التجارة المتبادلة بين الأجانب والعرب وما استلزمة ذلك من إقامة الأسواق لهذا التبادل ، ثم من بقاء بعض الأجانب في جوار العرب إما للكسب وإما لخدمة السادة من العرب الذين اشتروهم بالمال واتخذوهم عبيداً وإماء ، وفي الحق أن هؤلاء الأجانب من الفرس ومن الروم ومن الزنوج بوجه خاص ، كانوا يـُـكونون ما يشبه الطبقة الدنيا في المجتمع العربى ، وهم وإن كانوا

القلة بحيث لا يؤثرون في طابع اللغة بوجه عام إلا أننا لا نستطيع أن
نور وجودهم في هذه البيئة العربية دون أن يصدر عنهم الحن . وإذا
أقياً مضى قد ضربنا لذلك بعض الأمثلة كأُم عترة بن شداد ، وسليمان
ربي وصيب الرومي ، وبلال الحبشي فإن هؤلاء أمثالاً ومثيلات ،
محب النقائص ^(١) بين جرير والفرزدق يحدثنا عن أفراد في الجاهلية
هم من العرب وأمهاتهم من زنوج إفريقية ويطلق عليهم أغربة العرب .

ومن تلك الأساليب أيضاً التي تقوى لدينا صحة هذا الافتراض ما نجده
من الحظ من شواهد مبعثرة هنا وهناك في كتب القدماء تصور لنا
يقنة النطق عند هؤلاء الأجانب الدخلاء على العرب .

من ذلك ما يرويه الجاحظ في البيان والتبيين ^(٢) من أن صهيباً الرومي
يستعمل لكنة واضحة في لسانه ، فكان يقول : « إنك لهائن » ،
و يريد « إنك الحائن » ، وهذا ما يلاحظ في النطق الرومي من تعذر
الاقبال بالخاء . ومن ذلك أيضاً ما يرويه الجاحظ عن شخصية أخرى عاصرت
رسول الله عليه وسلم ، ونعني بذلك الشخصية «سحيم» المعروف بعبد
الحساس ، يروي الجاحظ أن سحيمًا هذا كان يقول : (سمعت)

(١) نقائص جرير والفرزدق ص ٢٧٢

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣٢

بدلاً من (شعرت) ^(١)

ويرى صاحب الأغانى ^(٢) أنه كان يستبدل في نقله الخاء بالطاء ، فيقول :

مثلاً : (أحسنت) بدل (أحسنت) . ويقول ابن قتيبة عن سحيم أيضاً

أنه كان ينطق بالكاف بدل تاء الخطاب فيقول مثلاً : (أحسنتك) بدل

(أحسنت) . وهذه هي طريقة النطق في اللغة الحبشية بالنسبة للضمير

المتصل المفرد كما حققها الأستاذ د. يوهان 'فك' ^(٣)

وإذا كان هذا هو بعض ما عرف عن لكنة صهيب وسحيم وشهرتهما

في المجتمع العربي أيام الإسلام الأولى لم تكن بسيطة ، فما بال أمثالهما الذين

عاشوا مغموطين لا يكاد يحس بهم ولا يعرف عنهم شيء ، إنه من العسير

أن نتصور ، كما تصور بعض المؤلفين ، سلامة لسان هؤلاء الأجناب طول

حياتهم في البيئات العربية ، وبالتالي أن تتصور خلو اللغة من اللحن

قبل الإسلام .

ثم إن القرآن نفسه ينقل إلينا في أسلوبه البليغ صورة لما كان بين

الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل مكة من جدل بشأن الرسالة والوحى ومن

^(١) البيان والتبيان للجاحظ ج ١ ص ٢٢

^(٢) الأغانى ج ٢ ص ٢٠

^(٣) العربية — دراسات في اللغة واللهجات والأساليب — ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار ص ١٣

هذه الصورة يتبين لنا ضمناً أن مكة كانت بها أعاجم لا يتكلمون العربية بإفصاح أو على الأقل كما يتكلم بها أهل مكة من العرب المخلص ، وأن هؤلاء الأعاجم المثقفين كانوا يتحدثون بها مع الرسول فكان أهل الشرك من المسكين يدعون أن الرسول يأخذ عنهم من الأخبار ما يأتيه به الوحي من عند الله ، من ذلك آية النحل ^(١) وقد نزلت في تطور المسكي الثالث لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين . ولكي تفهم هذه الآية حقيقة ، ويفهم منها الرد المنجم على هؤلاء المشركين ينبغي أن يقابل اللسان العربي المبين بالضرورة لساناً أعجمياً أو لساناً عربياً غير واضح وماذا بقي إذن بعد هذا لإثبات اللحن في مكة قبل أن تستقر دعائم الإسلام ؟

اللحن إذن وجد في اللغة العربية قبل الإسلام وإن لم يكن من طبيعة العرب المخلص أن يرتكبه فإنه بقي محصوراً فيما بين هذه الطبقة الضعيفة من المجتمع ، ولكن حينما تأخذ الدعوة الإسلامية في الامتداد ، ويصل صديها إلى غير العرب من الشعوب الأخرى فيدخل في الأسرة العربية أفراد آخرون ويقبل على التحدث بالعربية أصحاب السنة أخرى يدخل اللحن في مرحلة جديدة فيسمع في مجالس الرسول ويقال أمام الخلفاء الراشدين من بعده ، ولكن يصاحبه في هذه المرحلة اهتمام بالغ من الناحية الأخرى بشأن اللغة الفصحى والحرص على صفائها ونقاؤها . فنجد الرسول يفض

(١) آية ١٠٣ سورة النحل

وعمر بن الخطاب يشور حينما يسمعان هذا اللحن : «غير أن هذا الغضب
وتلك الثورة لا يمنعان ظاهرة اللحن من الانتشار ، فتسمع رقعة
الدولة الإسلامية وينتظم في سلك الجندية شباب القبائل العربية على اختلاف
لهجاتها وتنوع بيئاتها ، وتقام لهم المعسكرات في مواطن فارسية ورومية ،
ويتخذ هؤلاء وأولئك لأنفسهم عبيداً وإماء لا يحصى لهم عدد ولا يستقيم
لهم في العربية لسان . ولم ينف أمر اللحن على هؤلاء الأجانب الذين
اضطرتهم ظروف الحياة وضرورات الفتح أن يندمجوا في الدولة العربية ،
ولكنه تعدادهم بحكم العدوى إلى العرب أنفسهم بل وإلى من ينبغي لهم أن
يشرفوا على أمر اللغة العربية ، فنجد عبيد الله بن زياد ابن أبيه الذي تولى
الأمور في العراق يعرف باللحن . ويصل الخبر في ذلك إلى معارية فيرسل إلى
إلى زياد يأمره بأن يصلح لسان ابنه ، ولحن عبيد الله (١) هذا وإن لم

(١) يعزى لحن عبيد الله بن زياد إلى أنه نشأ في خجر أمه الفارسية
ولهذا فقد كان لحنه في العربية من جنس اللحن الذي عرف عن الأجانب
أمثال صهيب ، وبلال ؛ فكان ينطق بالهاء بدل الحاء وبالحمز بدل العين
كما يقرر ذلك الجاحظ في كتابه - البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢ - ؛ ونجد
لديه أيضاً نوعاً من الاستعمال اللغوي لا يوجد إلا عند من يلم بلغة أجنبية
ومنشأ ذلك هو الترجمة بمعنى في نفس المتكلم لا تسعفه اللغة التي ينطق بها
على التعبير به ؛ وذلك مثل ما روى عنه أنه أمر الجنود في يوم من الأيام =

يكن عظيم الخطر إلا أنه يدلنا على مبلغ تسرب هذه الأخطاء اللغوية إلى
الأوساط العربية العليا .

ونجد الوليد بن عبد الملك ^(١) يرتكب من اللحن أنواعاً عدة وتروى

فقال لهم : (افتحوا سيوفكم) وهو يريد من ذلك قول العرب (سلوا
سيوفكم) وقد لمسنا هذه المسألة بأنفسنا حينما كنا مبتدئين في تعليم
اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية ، واللاتينية أيضاً ؛ فكثيراً ما كنا
نلجأ إلى ترجمة ما يدور في خواطرنا من المعاني بألفاظ أجنبية لا تستعمل
في ذلك المعنى وكثيراً ما كان هذا يثير الضحك بمن يسمعوننا . . ولعل
هذا هو السبب الذي من أجله كان معاوية بن أبي سفيان يستظرف لحن
عبد الله ويمجد فيه تورية لطيفة كما يحدثنا بذلك القالي في كتابه الأمالى
ج ١ ص ٥٥

(١) ويعزى لحن الوليد بن عبد الملك إلى إهمال والده تربيته تربية
عربية ؛ فقد روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال : « أضر بالوليد
حبنا له فلم نوجهه إلى البادية ، ؛ وينقل لنا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
في كتابه — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦ — أنه قيل للوليد يوماً :
« إن العرب لا تحب أن يتولى عليها إلا من يحسن كلامها ، فجمع أهل
النحر ودخل بيتاً ليتعلم فيه فأقام ستة أشهر ثم خرج أجهل من يوم دخل ،
وقد أكثر الرواة من ذكر أخطائه في العربية ؛ من ذلك قدامه في كتابه
— نقد النثر ص ١٢٣ والمبرد في كتابه — الكامل ص ١٩٠ — .

عنه في ذلك الروايات، اللاذعة وحتى بعد توليه الخلافة يترك لسانه الحرية
فيزلق إلى الأخطاء، في القرآن على مسمع من جمهور المسلمين .

ثم إذا انتقلنا إلى ميدان الطبقة المثقفة التي أخذت على نفسها التبهر في
الابحاث العلمية والتدوين في النواحي الثقافية الإسلامية وجدنا نفس هذه
الاعطاء أو قريباً منها ، وقد رأينا صورة من ذلك عند أبي حنيفة ، ثم
هاجرونا ذا الفقيه العالم الإمام مالك بن أنس لا يتخرج من ارتكاب بعض
الاعطاء العربية حتى إن الأصمعي ليدش من صدور هذه الاعطاء عنه
ومكانته في العلم لا تكاد تجارى ، فقد روى عنه أنه قال : « أى مطراً ،
بدن ، أى مطر ، وحينما عيب عليه ذلك أخذ ينلس لنفسه الأعذار فطوراً
يهون من شأن اللحن مقتدياً في ذلك بأستاذه ربيعه بن عبد الرحمن ، فقيه
أهل المدينة ، المشهور بربيعة الرأي الذي كان يلحن في الإعراب أيضاً ،
إذ كان يقول : « بخيراً ، بدل « بخير ، وطوراً يظهر بمظهر العالم الزاهد
الذي يرغب عن هذه العلوم الدنيوية ويولي وجهه شطر الحقيقة التي يبحث
عنها المتصوف .

• • • • •

وهناك ميدان على آخر هو أولى الميادين الثقافية بالمحافظة على الفصحى ،
ورعاية سلامة الإعراب ؛ ذلك هو ميدان القراءات . ومع هذا فلم يسلم أيضاً
هذا الميدان من اللحن .

وحا نحن أولاء نورد بعض الأمثلة من لحن القراء جبرياً على طريقتنا
في هذا الموضوع دون مناقشة . إذ أن غرضنا في هذه النقطة فقط هو ترسيم
اللحن في انتشاره وفي موضوعات البحث العلمية ، سواء أكان ذلك باللحن
معتبراً من الأخطاء اللغوية في نظر العلماء جميعاً ، أم هو خطأ في نظر
البعض دون البعض الآخر .

أما مناقشتنا لهذه الآراء وبخصوصاً ما ادعاه النحاة من لحن القراء
فسيكون لها مكان آخر ، وذلك عندما نتكلم عن النحاة ومنهجهم في
البحث وموقفهم من القواعد النحوية التي وضعوها عن طريق القياس
أو الاستنباط . ومن لحن القراء في نظر النحاة ما صنعه حمزة في قراءته
للآية الأولى من سورة النساء . . . واتقوا الله الذي تساءلون به
والأرحام ، إذ قرأ بجر الأرحام على أنه معطوف على الضمير المجرور
قبله ، لا بالنصب عتقاً على الله . .

وإليكم ما يذكره بهذه المناسبة أبو شامة في شرح الشاطبية (١) قرأ
حمزة د والأرحام ، بالجر . قال الزجاج : القراءة الجيدة نصب د الأرحام ،
فأما الخفض خطأ في العربية ؛ فإن إجماع النحويين أنه يقبح أن يعطف
باسم ظاهر على اسم مضمّر في حال الخفض إلا بإظهار الخافض . وكذلك
نجد الزجاج في موقف آخر يتهم القراء باللحن في كتاب الله ، وذلك في الآية

(١) د إبراز المعاني ص ٢٨٣ (حموده ص ١٣٠) ،

« ومن أدبل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك » (١) .

وهنا نجد القراء قد اختلفوا في النطق بالهاء من قوله تعالى : « يؤده » ، فالجمهور يقرؤها بالهمزة مع وصاها بياء : وقالون يقرؤها باختلاس الحركة ، وأما أبو عمرو وأبو بكر وحزوه والأعمش فإنهم يسكنون الهاء . فيقول أبو إسحق الزجاج في هذا ما نصه (٢) : « وهذا الإسكان الذي روى عن هؤلاء غلط ، لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم ؛ وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن في الوصل » .

وكذلك نجد خلافاً بين القراء في قراءة (معاش) في قوله تعالى (٣) « ولقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معاش » ، فالجمهور يقرؤها (معاش) بالياء ؛ والأعرج ، وزيد بن علي ، والأعمش ، وخارجة عن نافع ، وابن عامر في رواية يقرءونها بالهمزة .

والنحاة وفق مقاييسهم النحوية يقررون أن القراءة بالياء قياسية ، وبالهمزة غير قياسية . ثم يقول الزجاج (٤) ما نصه : (جميع نحاة البصرة

(١) سورة آل عمران : ٧٥

(٢) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٩٩

(٣) سورة الأعراف : ١٠

(٤) البحر المحيط ج ٤ ص ٢٧١

نزعم أن همزها خطأ ، ولا أعلم لها رجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ،
ولا ينبغي التمريل على هذه القراءة) . وصدى هذا النقاش في نفس الآية
يوجد في حاشية الشهاب على البيضاوى . ولكن الذى يتولى مهمة تخطئة
القراء هو نحوى آخر : أبو عثمان المازنى ، وإليكم ما يقوله الشهاب :
(وروى عن نافع د معاش ، بالهمز ، فتمال النحويون : إنه غلط ، لأنه
لا يهمز عندهم . بعد ألف الجمع إلا الياء الزائدة كصحيفة وصحائف ، وأما
معايش : فبأوه أصلية ، هي عين الكلمة ، لأنها من العيش ؛ حتى قال أبو
عثمان المازنى : إن نافماً رحمه الله تعالى لم يكن يدرى العربية ^(١) .)
ويرى سيديوه أيضاً أن قراءة الهمزة في هذه الآية غلط . ^(٢)
ونكتفى بهذا التمدد من الأمثلة لنثبت وجود اللحن في وسط القراء
سواء صحت دعوة النحاة في هذا أم ردت .

• • • • •

بقى علينا أن ننظر في وسط الشعراء ورجال الأدب . وهؤلاء لم
يدلوا أيضاً من تعثر اللسان ، ومن تعرضهم للنقد اللاذع بسبب اللحن ،
سواء من كان منهم عربياً خالصاً ، أم من دخل في الأمرة العربية من
الأجانب وجارى أصحاب اللغة في الشعر والأدب .

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى ج٤ ص١٥٢

(٢) القراءات والتمجيات للاستاذ عبد الوهاب حموده ص١٤٣

من الفريق الأول نجد الفرزدق يهجو عبدالله بن أبي إسحق الضرمي ،
وهو من الموالى بهذا البيت .

فلو كان عبد الله مولى هجوته « ولكن عبد الله مولى موالياً
وكان هذا الهجاء بسبب تخلفه ابن أبي إسحاق للفرزدق نفسه في بيت
آخر هو :

على عمائنا تلقى وأرحلنا « على زواحف تزجي نخها رير
حيث يزعم عبدالله أن الفرزدق هنا قد خاف قواعد العربية . ويهمنى
بيت الهجاء في ابن أبي إسحق إذ يقول الفرزدق (موالياً) وصواب اللغة
أن يقول (موال) (١)

ومن الفريق الثاني نجد زياد الأعجم المتوفى سنة ١٠٠ هـ ، وكان فارسى
الأصل ولمسكته استطاع أن يتبجح في اللغة العربية نبوغاً يجعله يجازى فيها
أهل البدو وشعراء العرب المخلص : ولذا فقد اتخذوه المهاب بن أبي صفرة
شاعراً في سدته . وبالرغم من تمكن زياد في اللغة والشعر فقد روى له
هذا البيت (٢)

إذا قلت قد أقبلت أديرت « كمن ليس غاد ولا رانح ، وكان يجب أن
يقول : (كمن ليس غادياً ولا رانحاً)

(١) طبقات الشعر لابن سلام ص ٧ ، سيبويه ص ٢ ص ٢٥٩

(٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٥٩ . . .

ثم استعرضنا ما ذكرناه بصدد الكلام عن اللحن وبلغ انتشاره لرأينا
 أنه تسرب إلى أغلب الأوساط العربية . فقد لمسنا آثاره فيما بين الطبقة
 الحاكمة ، وضربنا لذلك مثلاً عبيد الله بن زياد ، والوليد بن عبد الملك
 وفيما بين طبقة الفقهاء وضربنا لذلك مثلاً أبا حنيفة ومالكاً وأستاذة ربيعة
 الرأي ، وفيما بين طبقة القراء وضربنا لذلك مثلاً حمزة ، وأبا عمر ، وأبا بكر
 الأشعث ، والأعرج ، وزيد بن علي ، ونافعا ، وابن عامر ، ثم فيما بين
 طبقة الشعراء : وضربنا لذلك مثلاً الفرزدق ، وزيد الأعجم . وكنا نستطيع
 أن نمضي أبعد من ذلك ، ولكننا حرصنا على أن نأخذ نموذجاً في أبسط
 صورة لهذا اللحن في مختلف البيئات العربية مع البعد عن الاستطراد . وقد
 بين لنا أن ظاهرة اللحن خاضعة في انتشاره إلى عوامل اجتماعية أشرنا إليها
 بما مضى مع شيء من التفصيل .

وعلى حسب هذه العوامل قد افترضنا وجود اللحن في زمن الجاهلية قبل
 لإسلام ، وإن لم نعث على أدلة مادية تثبت وجوده في صورته المختلفة فيما
 بدا هذه اللكنة البسيطة التي أثرت عن صيب وسحيم ، وهي ليست
 الواقع سوى نتيجة لضعف طبيعي عند هذين الأجنبيين بالنسبة لمخارج
 الحروف ، وعجزهما عن النطق العربي الصحيح .

وإذا ما جئنا إلى صدر الإسلام وجدنا آثاره المادية ولمسنا صوراً منه :
 تكن كل الظروف تدل على أن هذا اللحن كان في دائرة محدودة ؛ ولم

يصل بعد إلى درجة يخشى منها على الآثار العريضة . أما في عصر الدولة
الأموية فيدخل اللحن في مرحلة جديدة ؛ وتظهر آثاره في أهم الأوساط
بل ويتسرب كما رأينا إلى الطبقة العليا من العرب .

وليس من السهل أن نتبع اللحن في عصر الدولة العباسية ؛ فصوره
عديدة ؛ وأمثله لا تحصى . بل إن أمر اللحن في أيام هذه الدولة يطفى
مع مرور الزمن حتى يصل إلى تهديد العربية الفصحى ؛ ثم يتمكن في النهاية
من خلق اللغة المدارجة التي لا تهتم بقواعد النحو ولا تقيم لعلامات
الإعراب وزناً .

ومن هذا يتبين كيف نشأ اللحن في العربية ، وكيف تعددت صورته
والأسباب التي دعت إلى ذلك ؛ والمراحل التي مر بها ؛ والذي يهمنا
ملاحظته هو أن ظاهرة اللحن في العربية استتبعت ظاهرة أخرى يمكن أن
نعتبرها رد فعل للظاهرة الأولى ، ويمكن أن نسمي هذه الظاهرة بحركة
تنقية اللغة والمحافظة على سلامتها . وأصحاب هذه الظاهرة العكسية موجودون
كذلك منذ وجود اللحن ؛ إذ أن ذلك يكاد يكون طبيعياً عند أصحاب
كل لغة يمتزجون بها ويحرصون على سلامتها ؛ غير أننا بالنسبة للعصر الجاهلي
نلجأ إلى طريق الافتراض الذي تؤيده ملائمة كثيرة وأسباب عدة ،
وما ذلك إلا لأن الدليل المادي يعوزنا هنا أيضاً كما أعوزنا بالنسبة لإثبات
اللحن . ولكن إذا جئنا إلى صدر الإسلام رأينا الرسول صلى الله عليه

وسلم على رأس أصحاب هذه الحركة : ثم يأتي من بعده عمر صاحب الذوق الرفيع والمملكة العظيمة في فهم اللغة وإدراك دقائقها وأسرارها البلاغية .
قد رأينا له في ذلك موقفين : موقفه مع كاتب أبي موسى الأشعري ، ثم موقفه مع أولئك الذين كانوا يتعلمون الرماية . ولقد ورث ابن عمر من أبيه هذه النزعة فكان شديد الحرص على سلامة اللغة عند أبنائه وكان أخذهم بالعنف والشدة حينما يبدو له خطأ منهم .

ثم إننا رأينا فيما بعد كيف كان حرص الخلفاء والولاة على أولادهم كيف كان ذلك الحرص يدفعهم إلى إرسال أولادهم إلى البادية يعيشون مع العرب الخالص حتى تهت أشواقهم ، ويستقيم منطقتهم فلا يرتكبوا ما تكبه سكان المدن من الأخطاء .

وإذا ما وصلنا إلى عصر الدولة الأموية وجدنا حركة التنقية في اللغة قد بقدر امتداد أمر اللحن فيها ، ولم يكن ذلك سوى جزء من سياستها العامة التي نهجتها أيام حكمها ، وتمثل هذه السياسة بوجه عام في التمسك بالما هو عربي والنفور من كل ما هو غريب عن العرب ، وكانت اللغة بيعة الحال أهم مظهر يتناوله ذلك الحرص ، ولهذا فإننا نرى أصحاب حركة التنقية في عدد غير يسير ، ويتناول هذا العدد بعض الخلفاء والولاة العلماء ، فمن الخلفاء نجد عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ومن الولاة الحجاج بن يوسف ، وزيد بن أبيه ، ومن رجال العلم نجد أبا الأنبار .
ولي الذي خطا في النحو العربي أول خطوة عملية

وفي خلال هذا العصر أيضاً ينشأ جيل أغلبية من غير العرب فيأخذ

نفسه بدراسة اللغة العربية ، ثم يتحمل عبء حركة التنقية فيسير بها إلى غاية بعيدة ؛ وربما دفعه ذلك إلى ارتكاب الشطط من الأمر في بعض الأحيان ونعني بهذا الجيل رجال النحر الذين أسسوا هذا العلم ونهضوا به ، وكان لهم في العناية باللغة العربية والمحرص على سلامتها شأن كبير .

وليس لنا أن نفيض الآن في مجرود هؤلاء النحاة ، ولا في مدى تمسكهم بقواعدهم النحوية ، فإننا سنفصل ذلك بعد قليل حينما نتكلم عن النحر بمعناه العلمي . وحسبنا أن نعرف فقط أن هؤلاء النحاة قد بدأوا دورهم في حركة التنقية أيام الدولة الأموية . بجانب الخلفاء والولاة ، ثم استمروا كذلك حتى عهد الدولة العباسية حيث ألقى عليهم وخدمهم تقريباً عبء تلك الحركة فكانوا بمثابة الرقباء الحريصين عليها بالرغم مما كانوا يتسمون به من تزمت وتعسف .

ولقد كان اعتماد هؤلاء النحاة بتلك المهمة التي أخذوا أنفسهم بها يتسع بقدر اتساع دائرة اللحن وتفشييه في الأوساط الإدارية والثقافية ولكنه بالرغم من ذلك ظل سلبياً ، فلم يوقف اللحن عند حد ولم يمنع الفصحى من أن تتضاءل وتتلاوى على نفسها في أوساط ضيقة وتترك بذلك الميدان للغة دارجة ؛ لا تحترم ضوابط النحر ولا تقيم لعلامات الأعراب وزناً ، بل تنشأ وتنمو على حسابها .

وبعد فيستطيع القارئ أن يلاحظ مما قدمناه من الكلام عن اللحن

ونشأته وخطره أن هذا الداء الذى أصاب اللغة العربية لم يكن خاصاً بها وإنما هو داء تعرض له كل اللغات على الإطلاق وخصوصاً ما كان منها معرباً ، ويستطيع أن يلاحظ كذلك أن أصحاب هذه اللغات المعربة لم يقفوا مكتوفى الأيدي أمام هذا الداء ، بل اتخذوا من العدة ما يكفل سلامة اللغة ويبعد عنها ذلك الخطر الذى يهددها ما بين حين وآخر . وإذن فلم تكن اللغة العربية من هذه الناحية أيضاً إلا خاضعة لنفس القوانين العامة التى تخضع لها كل اللغات المعربة .

وقد كان هذا البحث بمثابة تمهيد ضرورى للكلام عن النحو العربى ونشأته ، وقد استلزم هذا منا أن نتعرض لكثير من مسائل اللحن ، وأن نلجأ إلى المقارنة بين الأخطاء اللغوية فى العربية وفى غيرها من اللغات الأخرى ، وأن نحدد وجهة نظرنا بالضبط فيما يختص باللحن الخطير غير ماقين بالألآراء القدماء وترددهم فى مسميات هذه الأخطاء اللغوية المختلفة ، ونظن أننا قد استطعنا الوصول فى كل ذلك الى نتائج ملموسة ، سيتبين القارىء بعد قليل أثرها ومدادها .

نشأة النحو العربي

والأسباب التي دعت إليه

لا يزال الباحث في حيرة من أمر النحو العربي ، ومن الظروف التي لا بدت نشأته ، فلا القدماء أماطوا اللثام بطريقة معقولة عن هذا الغموض الذي لا تزال نحس به ونتعثر في دياجيته ؛ ولا المحدثون استطاعوا أن يتناولوا هذه المسألة بطريقة جدية فيتعمقوا فيها بعد أن يمهّدوا لها بالدراسة الواسعة والتفكير الحر والمنطق السليم . وما نحن أولاء نتساءل لماذا لم يصاحب هذا الغموض غير النحو من سائر العلوم الإسلامية الأخرى كعلم القراءة والفقه والتفسير ؟

وربما أجيب عن هذا السؤال بأن هذه العلوم لا سبيل إلى تطرق الشك في أوليتها ونشأتها بعد الإسلام ، إذ أنها تستمد أسسها من القرآن والسنة ، وهما أم أصلين من الأصول الإسلامية . أما النحو فصلته باللغة وثيقة ، فاللغة قد وجدت وكملت قبل أن يوجد الإسلام . ولكن ينبغي أن نضيف إلى هذا اعتباراً آخر ، ذلك أنه فيما يختص بالنحو قد تدخلت عوامل جديدة أهمها : صفة القداسة التي تمنح للغة العربية حرصاً من القدماء على الرفع من

لأنها ما دامت قد أصبحت لغة التنزيل والإسلام . هذه القداسة قد جعلتهم
يفترضون أنها توقيفية ، وأنها أشرف اللغات على الإطلاق ؛ وأنها كانت
بيحة الإعراب لا يأتيها الذبح ولا الخطأ من بين يديها ولا؛ خلفها بل إن
هذه الرغبة نفسها قد دفعتهم إلى تقرير ما هو أشد من ذلك كله ، فقد قالوا
إن اللغة العربية كانت لغة آدم عليه السلام في الجنة ، واستمر يتحدث بها
يفهم بواسطتها حتى كانت منه الخطيئة التي ارتكبها بعصيان أمر ربه وعلى
لذلك قد انتزعت منه اللغة العربية انتزاعاً ، وهكذا بين لحظة وأخرى
في اللغة التي كان يعبر بها عن رغباته ويشرح بها ضرورياته ؛ وبقي كذلك
حتى تاب إلى ربه وحينئذ عادت إليه اللغة العربية وتقمصته من جديد فأخذ
يحدث بها كأن لم يكن منه نسيان فيما مضى ، أمر عجيب ، وتصوير
عجيب !!! .

وعلى هذا فقد تسرب إلى بعض العلماء قديماً أن نحو هذه اللغة لا بد وأن
ون كذلك توقيفياً . فيزعم ابن فارس أن علم النحو في اللغة العربية قديم
دمها ومنزل كتزيلها ، وأنه كان معروفاً ومدرّساً من أيام جرهم ، ثم
وسيت قواعده مع استمرار العمل به حتى جاء أبو الأسود الدؤلي وشعر
لحاجة إليه فأحيا ما اندثر منه وعمل على تعليمه الناس من جديد ^(١) .

(١) - انظر تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٤١

وأضمتنا في غير حاجة إلى أن نقف أمام هذه الرواية وأمثالها لنقدها ،
أو لتفنيدها ، وخصوصاً وأن بعض القدماء أنفسهم قد عز عليهم تصورهما ،
ورفضوا قبولها . وقد كان هذا الرفض في أغلب الأحيان سلبياً ، إذ
أنهم لم يرجعوا في أولية الوضع في النحو إلى ما قبل الإمام علي بن
أبي طالب .

ويضاف إلى هذا عامل آخر وهو إن كان يعتبر في الدرجة الثانية بالنسبة
لمعنى القداسة إلا أنه جدير بالملاحظة ، ذلك هو الرغبة البينة في إسناد هذا
العلم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رأس الشيعة . ولا يبعد أن يكون
هذا نوعاً من الدعاية السياسية والدينية في وقت واحد .

هذه الأمور مجتمعة قد كست المسألة غموضاً ؛ وزادت الأمر اضطراباً
وجعلتنا نقف من نشأة النحو العربي موقف المتردد في قبول هذه الروايات
العديدة في نشأة النحو ، ومن أسس قواعده ، ورسم ضوابطه
الأولى ، بالرغم مما نلاحظه من شبه إجماع للرواة في إسناد هذا العلم إلى علي
ابن أبي طالب ، وعنه أخذه أبو الأسود الدؤلي . فإن الإجماع أو شبهه في
هذه المسألة ينبغي أن لا يكون له من الأهمية مثل الإجماع في بعض المسائل
الدينية ، إذ يجوز أن يكون مصدر هذا الإجماع رواية فردية ، ثم تناقلها
الخلف عن السلف حتى وصلت إلينا في شبه إجماع .

كل هذه الاعتبارات ينبغي أن تدخل في حسابنا ، وأن تكون موضع
ملاحظتنا حينما نبعث نشأة النحو العربي . وما دام رائدنا الأول في الدرس

هو العقل ، به تتفهم الروايات ، وبه نحكم عليها ولا ندعها تفرض نفسها علينا ، وعليه نعتد في التحليل والاستنتاج . نقول ما دام رائدنا الأول هو العقل فقد تكون رواية فردية في زاوية مهجورة من زوايا الكتب أولى بالعناية ؛ وأجدر بالاهتمام من شبه الإجماع الذي يطالعا في أغلب الكتب ، وفي المكان البارز منها .

إن الأسباب التي يمكن أن تكون قد دعت إلى وضع النحو العربي هي في مجلتها نفس الأسباب التي دعت إلى نشأة العلوم الإسلامية الأخرى في عصر الدولة الأموية ؛ حافز ديني أولاً ؛ ثم ظروف اجتماعية ثانياً ، وسنفصل الكلام عن هذين السببين بعد قليل .

وهكذا لو نظرنا في نشأة علم القراءات أو الفقه أو الرواية أو التفسير لما رأينا واحداً منها يخرج عن هذه الاعتبارات فليس معقولاً إذن أن يشذ وضع النحو اللهم إلا في جزئيات لا تتناول جوهر المسألة وإنما تمس العرض كالاستعانة في ذلك ببعض ما عرف عند الأجانب ، وكاتخاذ خطوة عملية فيها قبل أن يخطو العلماء المسلمون الآخرون في ميادين علمهم .

وقبل أن نأتي على ذلك بالتفصيل نحب أن نستعرض في صورة عاجلة نشأة العلوم الإسلامية الأولى ليكون ذلك بمثابة التمهيد لكلامنا عن النحو الذي لا ينبغي أن ينظر إليه كحلقة مفردة ، الشيء الذي يفسد علينا فهم كثير من مسائله ؛ نتيجة الأفق الضيق الذي نحصر فيه أنفسنا ؛ ولا

لستطيع أن نخرج عنه إما جهلاً ؛ وللجهل عذره ؛ وإما تهيأ ؛ وفي ذلك
الخطر الكبير .

علم القراءات :

بعد أن جمع الخليفة عثمان أمر المسابين على نص واحد من المصحف
مدفوعاً في ذلك بما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءة القرآن نسخ منه
أربع نسخ فبعث بواحدة إلى العراق وبأخرى إلى الشام وبثالثة إلى مصر
وأبقى الرابعة في المدينة ، ولم يمضِ زمن طويل على هذا الصنيع حتى أصبح لأهل
كل مصر من هذه الأمصار قراءة خاصة يتبعون فيها واحداً من القراء
توفرت فيه الثقة ، وهكذا تعددت القراءات بتعدد القراء وأصبحت لكل
قارئ طريقة في الأداء ، والتواتر من هذه القراءات سبع ، تنسب إلى من
اشتهر بروايتها ^(١) والذي يهمنا من ذلك أن هذه القراءات تنقلت بالرواية

^(١) - هذا هو الرأي المجمع عليه وقد يعدها بعضهم عشراً ، وهام القراء
السبعة كما يدهم صاحب الفهرست ص ٤٣ طبعة مصطفى محمد .
والذي نستطيع الآن أن نلاحظه بوجه عام على هؤلاء القراء هو أن
أغليبتهم من الموالى الذين وضعوا أنفسهم وما يملكون من معارف ، وما
يتصفون به من علم وذكاء في خدمة الدين الإسلامي فكان لهم من أجل ذلك
أثر عظيم .

أولاً :- أبو عمرو بن العلاء وهو عربي من تميم وقد توفي بالكوفة

ولم تأخذ شكلها العلمى المنظم إلا فى القرن الرابع الهجرى حيث نجمت
أول كتاب دون فى هذا العلم ، وهو كتاب الإيضاح فى الوقف والابتداء
لمحمد بن قاسم الأنبارى المتوفى سنة ٢٢٨ هـ : ومن هذا الكتاب توجد نسخة

سنة ١٥٥ هـ ، ولم تكن شهرته فى اللغة العربية بأقل من شهرته فى القراءة
للقرآن ، وقد أخذ عنه يونس بن حبيب كما أخذ عنه كثير من مشايخ البصريين
فى الطبقة الرابعة منهم .

ثانياً :- نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى المتوفى سنة ١٦٩ هـ
بالمدينة ، ويروى الأصمعى عن نافع هذا أنه قال : « أصلى من أصفهان ،
وكان مولى جموعة بن شعوب الشجعى ، وقد عرف عنه أنه كان شديد
السواد ، وأشهر من روى عن نافع محمد بن إسحق المسيبى .

ثالثاً :- عبد الله بن كثير ويكنى أبا سعيد ويقال أبا بكر ؛ وهو من
قراء مكة فى الطبقة الثانية ، وهو مولى عمرو بن علقمة الكنانى ، وكان من
أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى بالسفن إلى اليمن لطرد الأحباش منها .
وقد توفى عبد الله بن كثير سنة ١٢٠ هـ بمكة ودفن فيها بعد أن صارت له
شهرة عظيمة بأرض الحجاز . ويذكر ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٠ ، أن ابن كثير
كان أسمر اللون طويل القامة جسيماً أشبه العينين ، أبيض الرأس واللحية ،
وكان يغير شيبته بالحناء . وأشهر من روى عنه إسماعيل بن عبد الله ابن
قطبطين مولى ميسرة مولى العاص بن هشام .

رابعاً :- عاصم بن بهدلة ويكنى أبا بكر بن أبى النجود . توفى بالكوفة
سنة ١٢٨ هـ ، وهو مولى بنى جذيمة ، وقد أخذ القراءة عن أبى عبد الرحمن

خطبة في دار الكتب المصرية وثانية في المتحف البريطاني وثالثة في مكتبة
كوبريللي في الآستانة ، ومعنى هذا أن علم القراءة بدأ في خلافة عثمان
واستمر يمارس مشافهة دون تدوين حتى القرن الرابع الهجرى .

السلى : وزر بن حبيش . وقد روى عن عاصم بن بهدله أبو بكر بن عياش
مولى واصل بن حيان الاحدب .

خامساً : - عبد الله بن عامر اليحمي وكنيته أبو عمران ؛ ويقال إنه
أخذ القرآن عن عثمان بن عفان وقرأ عليه ، ويعتبر في الدرجة الاولى من
التابعين ؛ وهو من أهل دمشق وقد توفي بها سنة ١١٨ هـ . وقد روى عن ابن
عامر كثير ، منهم يحيى بن الحارث الذماري ، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر
وسعيد بن عبد العزيز .

سادساً : - حمزة بن حبيب الزيات ، وهو مولى آل عكرمة بن ربيع
التيمنى ، وكان يشتغل بالتجارة ما بين الكوفة وحلوان العراق ، فكان يجلب
الزيت من الكوفة إلى حلوان ، ويحمل من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة
وهو في الطبقة الرابعة من الكوفيين . وتوفي بحلوان العراق سنة ١٥٦ هـ .

سابعاً : - الكسائي النحوى ، على بن عبد الله بن بهمن بن فيروز وهو
من أصل أعجمي ، قد نشأ بالكوفة وكان كثير الانتقال في البلدان . قرأ
على عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن حبيب . وكان يقرئ الناس أولاً
بقراءة حمزة ؛ وأخيراً في خلافة هارون الرشيد اختار لنفسه قراءة أقرأ بها
الناس وقد توفي بقرية من قرى الرى سنة ١٧٩ هـ .

اما التفسير فقد نشأ كذلك بسيطاً ينتصر على بعض الآيات التي غمض معناها أو تحتمل أوجهاً من التأويل ؛ وأول من تجمع الروايات على تفسيره القرآن هو ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ ؛ ولكن هذا العلم أيضاً قد استمر مشافهة حتى أواخر القرن الأول الهجري ؛ ولم يعرف كتاب دون في التفسير قبل الذي دونه مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ

وحتى ما دونه هذا العالم لم يوقف له على أثر حتى الآن ؛ ولكن يظن أن تدوينه في التفسير ليس إلا تفسير ابن عباس قد وصل إليه بطريق الرواية ، ويؤيد هذا ما وجد في دار الكتب المصرية من نسخ في التفسير منسوبة إلى ابن عباس بينا مقدمة هذه النسخ تشير إلى أن هذا التفسير لم يدون في أيام صاحبه وإنما نقل بالرواية ودون في عهد متأخر ، وقد اطلع على هذه النسخ وناقش هذه المسألة الأستاذ جورجى زيدان ^(١) وقد انتهى فيها إلى هذا الرأى الذى ذكرناه .

^(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٠٥ . ولمن يريد التوسع في هذه المسألة ، والتأكد منها يرجع كذلك إلى ما كتبه صاحب الفهرست ص ٥٠٥ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ، تحت عنوان (تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن) .

واقعد ختمًا بجهود العلماء في خدمة القرآن ودراساته خطرات واسعة ،
حتى أصبحنا في عصر ابن النديم نجد أن عدد الكتب التي ألفت في
تفسير القرآن فقط قد بلغت خمسة وأربعين كتاباً ؛ وهذا عدا ما ألف
في معاني القرآن ومؤلفه وبجازه ، ثم في غريبه ، وقراءاته ، ونقطه وشككه
ونزوله ، وناسخه ومنسوخه وأحكامه ، و تنزيله الخ (١)

علم الحديث :

وأما الحديث فكان أول أمره مقصوراً في روايته على الصحابة
الذين سمعوا نض من الرسول ولم يكن هناك مجال لتحريفه أو للإضافة
إليه ، ولكن بعد الفتنة الكبرى التي أصابت المسلمين بمقتل عثمان نشط
الحديث نشاطاً غير معروف إذ استغلته أحزاب الأمة العربية لأغراض
سياسية ، فبدأ دعاة كل حزب يضعون من الأحاديث ما يبرر مذهبهم ،
وتكاثر ذلك مع الزمن حتى أصبح من غير اليسير تمييز الصحيح من الباطل
وهنا اضطر علماء الإسلام إلى التفكير الجدي في وضع أسس هذا العلم
وضوابط الرواية لكي يمكن التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة
والمختلفة ، ومع هذا فقد ظل هذا المجهود العلى في هذا الميدان يتناقل
مشاقفه طول عصر الدولة الأموية ، ولم يعرف من دون فيه قبل الإمام

(١) انظر است لابن النديم ص ٥٠ إلى ٥٨ ، حيث يوجد ثبت لكل

الكتب المؤلفة في هذه الموضوعات

مالك بن أنس التيمي القرشي المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكتاب هذا المحدث
الفقيه هو الموطأ الذي جمعه ورتب أبوابه على حسب ترتيب أبواب الفقه ،
ويعتبر الموطأ الثمرة الأولى لجمع هذا العلم وتطبيق عتبات الرواية ، ومن
بعده نضج هذا العلم نضوجاً سريعاً وجمعت فيه الكتب على أيدي الأئمة
من المحدثين .

علم الفقه : إ

وأما الفقه فكانت أول مسأله تدور حول تعرف بعض الأحكام الدينية
وتفهمها ، وكان الرسول بطبيعة مركزه أول من يستفتى في ذلك ،
وحينما انتقل إلى جوار ربه قام الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة بهذه
المهمة : وتلك هي النواة الأولى للفقه في الإسلام ، غير أن طبيعة المجتمع
الإسلامي في أول الأمر لم تكن في حاجة كبيرة إلى غير ما تصرح به
نصوص الكتاب والسنة . ولكن حينما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية
وتشعبت أمور المجتمع وتعقدت المسائل الدينية اشتدت الحاجة إلى الفقه
والفقهاء ليرجع إليهم في شئون التولية ، والعزل ، والقتل ، والعفو ، وغير
ذلك مما يمس الدين ويهم المسلمين ؛ ومع هذا فقد استمر الفقه كغيره من
العلوم الإسلامية يدرس ويفهم عن طريق المشافهة والرواية طول العصر
الأموي ؛ ولم يعرف فيه نظام التدوين والتأليف إلا بعد أن تخصص له
العلماء ونبع فيه الأئمة الأربعة في عهد الخلفاء العباسيين ؛ الإمام مالك
٩٥ هـ - ١٧٩ هـ ؛ والإمام أبو حنيفة ٨٠ هـ - ١٥٠ هـ ، والإمام الشافعي

١٥٠ - ٢٠٤ هـ : والإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ - ٢٤١ هـ .

ولئن من يدرس مبادئ الفقه الإسلامى ، ويلاحظ ما طرأ عليه من تطور فى الأحكام بالنسبة لتطور الدولة والمجتمع لا يخامرهُ شك فى أن جهود الفقهاء فى الدولة الإسلامية لا يقل عن جهود المشرعين ورجال القانون فى الدول الأخرى .

من هذا العرض السريع تبين لنا ظروف نشأة العلوم الإسلامية الأولى وطريقة نموها وتطورها ولم يكن الحافظ لتأسيسها وتدوينها رغبة مجردة للعلم من حيث هو ، وإنما هى ضرورة اجتماعية يحدوها حافز دينى . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتصور علم النحو ، غير أنه من المرجح أن تكون الضرورة فى التفكير فى وضع أسسه كانت أشد إلحاحاً من الضرورة فى وضع العلوم الأخرى ، إذ أن موضوع هذه العلوم كان إما تفهم نصوص الدين على حقيقتها وإما استنباط أحكامه كى يتمشى مع اتساع الدولة وورق المجتمع ، ولم يكن هناك نوع من الفساد قد تسرب إلى طبيعة الإسلام وحالة المسلمين فى الزمن المبكر .

أما موضوع علم النحو فكان اللغة التى هى بمثابة الأداة للتعبير عن تلك الأحكام ، وقد رأينا كيف تعرضت هذه اللغة إلى الفساد منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولإذن يمكننا على ضوء ما تقدم من الكلام على اللحن ونشأته أن نقول .

السبب المباشر في وضع النحو هو تسرب الفساد إلى لسان العرب سواء ان ذلك على يد الأجانب الذين دخلوا في الإسلام أم على يد العرب ن امتزجوا بهؤلاء الأجانب وخالفوهم ثم سلكوا في الحياة الاجتماعية بلا لم يكن معهوداً لهم من قبل ، وهناك سبب آخر يمكن إضافته إلى وهو الرغبة في تعليم اللغة العربية وتيسير طرق الأداء بها بعد تفهمها راءك دقائقها وأسرارها بالنسبة للأجانب الذين انضوا تحت راية الدولة لامية وعقولهم ناضجة وثقافتهم واسعة وتفكيرهم منطقي سليم إلى حد ، وما كان ينتص هؤلاء سوى الإجابة في أداة التعبير التي أصبحت وية في المجتمع الإسلامي بأسره لكي يستغلوا مواهبهم في تأسيس رارة الإسلامية ؛ وينالوا حظهم من الحياة في ذلك المجتمع العربي الجديد .

ولهذه الحالة أمثالها عند اليونانيين حينما اتسعت رقعة الدولة وبدأت الرغبة في تعليم الشعوب المفتوحة لغتهم وفهم وأدبهم ؛ فقد رأينا ، السيادة فيهم يعتمدون إلى حد كبير على رجال اللغة اليونانية ؛ ما هؤلاء اللغويين بدورهم ينجون في النحو نهجاً جديداً لا يقوم فقط إدراك ما في اللغة اليونانية من أسرار بلاغية ودقائق فنية ، كمنهم يضعون بجانب هذا الضوابط والأبس التي تمهد السبيل لتعليم اليونانية بالنسبة للأجانب الذين كانوا يجدون من الحوافز العديدة .

لهم إلى معرفة تلك اللغة .

وكذلك الشأن أيضاً عند الروم ؛ بل إننا لا نزال نجد نفس الطريقة ونفس الهدف ملاحظين عند أصحاب الثقافات الحديثة الذين يتعلمون في نشر ثقافتهم وإعلاء شأن معارفهم ؛ وليس ذلك في الواقع سوى امتداد للقديم .

هذان ، فيما نعتقد ، هما البيتان الرئيسيان في نشأة النحو ، وإن كنا نعتز بأن هناك أسباباً أخرى ثانوية قد لبّطت هذا البحث وحفزت المهتمين بشأنه إلى أن يخطوا فيه خطوات واسعة سريعة ، من ذلك ما كان يوجد بين الدارسين للعربية من تنافس على تلك المسكاته الأدبية التي يتمتع بها كل من يبرز في معرفته للعربية الصحيحة وخصوصاً في زمن كان المشرفون فيه على أمور الدولة من أشد الناس حرصاً على اللغة السليمة وتمسكاً بكل ما هو عربي ، ومن ذلك أيضاً ما كان من منافسة بين مدرستي البصرة والكوفة على جمع اللغة والدراية بها ووضع الضوابط لفهمها والإجادة فيها ، ونحن نعرف مبلغ تشجيع الخلفاء الأمويين لهاتين المدينتين رغبة منهم في أن يحلا محل مكة والمدينة في بيئة الحجاز وما كان لذلك من أثر في تحمذ العلم ، والنهوض بالعلم والبحث وخصوصاً ما تناول النحو . والذي ينبغي أن نلاحظه هنا قبل أن تنتقل إلى الكلام عن نقطة أخرى هو أن السببين الرئيسيين لنشأة النحو كانا يتمشيان ضرورة مع طبيعة تطور النحو نفسه ، ومبلغ حاجة المجتمع إليه مثل ما حدث بالنسبة للعلوم الإسلامية

الأخرى التي تقدمت الإشارة إليها ، بمعنى أن الخطوة الأولى في وضع النحو ينبغي أن تكون بمثابة رد الفعل المباشر لتسرب اللحن إلى اللغة والقرآن على الخصوص ، فلا بد إذن أن يكون الغرض منها هو إبعاد هذا الخطر عن نصوص القرآن وهو جماع أمر الدين ، ولن يتأتى ذلك إلا بوضع ضوابط عملية تحفظ عليه نصوصه ، وتسهل على من لم يكن متمسكاً من العربية قراءته . ثم تعدد الأسباب الأخرى ويفتح أمام الباحثين ميدان جديد ، فيتوسعون في الدرس بقدر ما تسمح لهم ظروف البحث نفسه ، أخيراً ينتهون إلى الفكرة المجردة عن العلم من حيث هو لا من حيث كونه مقيداً باعتبارات أخرى .

وهنا نلص عنصراً أجنبياً يدخل على العقلية العربية ، والتفكير عند علماء الإسلام ، فيكيف تلك العقلية تكييفاً جديداً وينظم هذا التفكير نظماً يخضع لمبادئ علمية ، لم تكن معروفة عند المسلمين من قبل ؛ ونعني لك العنصر هو أثر الفلاسفة اليونانية بصفة خاصة ؛ وليس لنا أن نفيض أن في هذا الأثر ، وفيما كان من نتائجه المباشرة على التفكير والعلم ؛ أننا سنتحدث عنه في شيء من التفصيل عندما نتعرض للكلام على الأثر الأجنبي في النحو العربي .

وبعد فإننا نظن أن لهذا التمهيد أثره فيما سنتحدث عنه بعد قليل بالنسبة لتاريخ وضع النحو وتتبع المراحل التي مر بها حتى أصبح مهيباً لأن ين غالباً ناضجاً .

من هو الواضع الأول

للنحو العربي ؟

إن الكلام على الواضع الأول للنحو العربي يستلزم منا كلمة يسيرة عن لفظ «النحو» وكيف أطلق هذا اللفظ على مجموعة القواعد التي تضبط اللغة وتنظم النطق بها . وهذا بطبيعة الحال يحتاج منا بدوره أن نرجع بعقولنا إلى الماضي لنعيش بها فترة في حياة العرب بعد أن توطدت دعائم الإسلام وثبتت قواعده في البيئات المفتوحة ، ونعني بتلك الفترة المدة المحصورة بين سنة ٤٠ هـ وأواخر القرن الأول الهجري . في هذه الفترة نلاحظ اتجاهاً جديداً من جانب العرب في تنظيم دولتهم تنظيمياً داخلياً ، ولعل أهم مظهر لهذا الاتجاه هو العناية باللغة العربية ، وسواء أفهم ذلك عنهم تعصباً للغة أم لا ، فإن طبيعة موقفهم كمؤسسين لدولة إسلامية كانت تحتم عليهم ذلك الاتجاه وتلك العناية .

ولهذا يجب ألا نلقي بالاً إلى قول أولئك الذين ينسبون التعصب إلى العرب حينما أخذوا يفرضون لغتهم بطريق غير مباشر على الشعوب المفتوحة مقارنين صنيع العرب في هذا بما صنعه الرومان حينما غزوا بلاد اليونان

والشعوب الخاضعة لهم دون أن يتعرضوا إلى لغة هذه الشعوب ، بل تركوهم يمارسون تعليم ، ويديرون دفة الأمور الموكولة إليهم في الدولة بلغتهم . هم لا باللغة اللاتينية ، نقول يجب ألا نلجأ إلى رأى التباثلين بهذا كما يجب أن نلاحظ الفارق البعيد بين الدولة الرومانية ، والدولة العربية ؛ فذلك لم تكن لها رسالة دينية تريد أداؤها ، ولم يكن غرضها من الفتح سوى المطامع السياسية والاقتصادية بأوسع معانيها ، أما الدولة العربية فكان غرضها الأول هو نشر الدعوة الإسلامية وتنفيذ رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأهم أصل في الإسلام هو القرآن ؛ مصدر الأحكام والقوانين وهو باللغة العربية وإذن فلم يكن عجباً من العرب أن يوجهوا همهم إلى اللغة العربية يستعملونها في إداراتهم ، ويمهدون السبل لتعلمها ، ويشجعون على التبوع فيها ، وأهم عمل لهم في هذا هو ترجمة الدواوين إلى اللغة العربية ، وكان ذلك أيام خلافة عبد الملك بن مروان ، وأول ديوان نقل اليه هو ديوان الشام بلغة الروم وكان ذلك في سنة ٨١ هـ ، ثم تلاه بعد ذلك ديوان أهل فارس بالفارسية وديوان أهل مصر بالقبطية .

في هذه الفترة التي تحدثنا عنها منذ قليل لم يكن العرب قد استقروا من الناحية الفكرية والعلمية كما استقروا من الناحية الإدارية والسياسية ، ولهذا ليس معقولاً أن نتصور لدى العرب في خلال القرن الأول من الهجرة بلوغاً منظمًا لها قواعدهما ؛ ومنهجها ، وبمبطلجاتها .

وإذن فإنه لما ينبغي أن نلاحظه قبل كل شيء أن كلمة « النحو » التي نستعملها هنا لا نريد منها النحو بمعناه العلمي المتعارف ؛ فإن ذلك لم يكن إلا في صدد متأخرة بعد أن سار هذا العلم خملوات في سبيل التكوين والنمو . وأما في مرحلته الأولى ، أو في الفترة التي نتحدث عنه فيها ؛ أي في زمن حياة علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وبعض من جاء بعدهما فكان يطلق عليه (العربية) . ولحسننا نستعمل كلمة (النحو) استعمالاً مجازياً باعتبار ما يؤول إليه ، وذلك مثل صنيع سائر الرواة الذين استعملوا هذا الاصطلاح على ما عرف من هذا العلم أيام علي أو أيام أبي الأسود الدؤلي . وستأتي بعد قليل فرصة نتحدث فيها عن أولئك الرواة ونذكر نص عباراتهم التي استعملوها في نسبة هذا العلم إلى واضعيه .

وفي الحق أنه بعد أن هدانا البحث العلويل في كتب اللغة ، والأدب ، والرواة ، والتاريخ إلى أن كلمة « نحو » لا يمكن أن يقصد منها في عهد الدولة الأموية ؛ وصدر الدولة العباسية ذلك المعنى الاصطلاحي الذي نفهمه الآن ، نقول إنه بعد أن هدانا البحث إلى ذلك واطمأنت إليه نفسنا ، وقر به ضميرنا وجدنا في ثنايا اطلاعنا ما زعزع هذه الطمأنينة ، وأزعج ثقتنا فيما وصلنا إليه من استنتاج ، ذلك أننا رأينا في ترجمة يوحنا الإسكندراني أنه كان قد اصطلاح على تلقيبه ببجي النحوي ، وكان يوحنا هذا من النصارى اليعقوبيين ، وكان يعيش أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أيام الخلفاء

لراشدين من بعده ، وقد أدرك فتح عمرو بن العاص لمصر وكانت له في البلاد المصرية شهرة شديدة حتى أن عمراً ذهب إليه ولقيه فأكرمه واعترف بمكانته .^(١) وجود هذا الاصطلاح المبكر على تلك الشخصية النصرانية أيام أوائل رجال اللغة العربية أمثال أبي الأسود الدؤلي وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز وغيرهم جعلنا نتردد كثيراً فيما قررناه سابقاً بالرغم من أننا لم نعثر فيما اطالعنا عليه على مثل هذا الاصطلاح بالنسبة لؤلاء العلماء اللغويين من العرب . وبينما نحن في هذه الحيرة من الأمر ، وفي ذلك التردد المزعج إذ بنا نهتدى إلى تفسير لهذا الاصطلاح من قدامى رجال اللغة العربية أنفسهم بربل عنا تلك التشبه ويتشكنا من هذه الحيرة ، بل ويعيد إلى النفس حالة الطمأنينة الأولى ، ذلك أننا رأينا في لسان العرب تحت كلمة - نحأ - نصاً ينقله صاحب اللسان عن الأزهري وهذا النص يفيد أن إطلاق كلمة - نحوى - كان مساوياً بالضبط لكلمة - لنوى - ؛ وإذن فلم يكن المقصود بالنحوى حينئذ الرجل الذى يدرس النحو ويؤلف فيه بالمعنى الذى نفهمه الآن من كلمة النحو . وإليك نص عبارة الأزهري ، كما ينقلها صاحب اللسان :^(٢) (نحأ) الأزهري ثبت عن أهل بونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم أنهم يسمون علم الالفاظ

(١) - الفهرست لابن النديم ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) - لسان العرب ج ٢٠ . ص ١٨١

والعناية بالبحث عنه نحواً ؛ ويقولون كان فلان من النحويين ولذلك سمي
يوحنا الإسكندراني يحيى النحوى للذى كان حصل له من المعرفة بلفظ
اليونانيين ...)

وإذا وضع لنا الآن أن كلمة - نحو - بمعناها الاصطلاحي الذى نفهمه فى
هذا العصر لم يكن موجوداً فى أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية
يدلنا على ذلك زيادة علم ما تقدم أننا لا نجد كتاباً فى العربية حتى بعد
سيبويه يسمى صراحة كتاب النحو ، فالكتابان المنسوبان إلى عيسى بن عمر
البصرى المتوفى سنة ١٤٩هـ واللذان لم يصلنا منها أى أثر كانا يسميان المكمل
والجامع^(١) وحتى ما ألفه سيبويه نفسه فى هذا الميدان لم يكن يسمى بغير
الكتاب -

نقول إذا وضع لنا موقف لفظ - النحو - بمعناه الاصطلاحي فإنه لما يوضح
ما نحن فيه ويزيل جانباً من الغموض بالنسبة لنقطة حساسة ستحدث غنى فيما بعد
.. الأثر الأجنبي فى النحو العربى - أن نذكر شيئاً عن معنى النحو فى اللغة
مبينين أصل الاستعمال اللغوى ومصدر الكلمة ومشتقاتها .

(١) يذكر هذين الكتابين كثير من الرواة ، ومنهم ابن النديم ، وإليك
نصه فى ص ٦٣ من الفهرست : « أنشدنا القاضى أبو سعيد رحمه الله للخليل
يذكر عيسى بن عمر والكتابين :

بطل النحو جميعاً كله • غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع • فيها للنسب شمس وقر

وهنا نحن أولاء نلخص هنا ما ذكرته كتب المعاجم ورواه رجال
 اللغة متبعين ، كدأبنا في دراسة فقه اللغة ، المنهج الذي وضعناه وأشرنا
 إليه فيما مضى لمعرفة أصل الكلمة الحى ثم تطور معناها . نرجع أين
 الأصل في هذه المادة هو — الناحية — أى الجانب من الشيء ؛ ثم جاءت
 المشتقات من هذا الأصل فورد المنحاة لمسيل الماء إذا كان ملتوياً كما يقول
 ابن الأعرابي ويستشهد بهذا البيت :

وفى أيمانهم بيض رفاق هـ كباقي السيل أصبح فى المناحي ^(١)

وأطلقوا أيضاً على بطن من الأزدي لفظ — بنو نحو — وأصل ذلك كان
 منهم لاتنحاء جانب خاص يقيمون فيه أو يلتزمونه ، ومن هذا الوادى
 أيضاً ما نجده من إطلاق العرب لفظ — أهل الانحاء — على القوم البعداء
 الذين لم يكونوا بأقارب . ومن مشتقات هذه المادة نحأ ينحو بمعنى اتجه يتجه
 أو قصد يقصد ، والصلة واضحة بين الناحية ، وهذا الفعل ؛ وقالوا أيضاً
 انحأ الشيء ينحأه ، وينحوه إذا حرفه ، ويقول ابن السكيت من : هذا سمي
 النحوى لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب وقالوا أيضاً نحوت الشيء
 انحأه بمعنى أتمته ؛ ومن المشتقات أيضاً رجل ناح من قوم بنحاة
 بمعنى زجل نحوى من قوم نحويين ، والنسبة فى هذا كالنسبة فى لابن ،
 وتامر ، ولنا نريد أن نمضى فى ذكر جميع المشتقات من هذه المادة

^(١) انظر مادة — نحأ — فى لسان العرب ج ٢٠ ص ١٨١ — ١٨٥

فكلما تدور حول هذا الأساس الذي رجحنا أصالته ، ولكن لا بد من بيان كيف انتقل هذا المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي . ومن ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح في إطلاق النحو على تعلم المعروف والنحو على العالم بقواعد النحو وضوابطه ، نقول من ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح عربي خالص وليس فيه أى أثر أجنبي ؛ ونكتفي في ذلك بعبارة صاحب اللسان فهمي مختصرة واضحة ؛ يقول لسان العرب في نفس المادة التي نحن بصددنا : « والنحو إعراب الكلام العربي والنحو التصدد والطريق يكون ظرفاً ويكون اسماً ، نحوه ينحوه ، وينحاه نحواً ، وانتحاه ، ونحو العربية منه إنما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتخدير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في التفصاح فينطق بها وإن لم يكن منهم أو ان شذ بعضهم عنها رد به إليها وهو في الأصل مصدر شائع أى نحوّت نحوّاً كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أى عرفتّه ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم ، وكما أن بيت الله عز وجل خص به الكعبة وإن كانت البيوت كلها لله عز وجل ، قال ابن سيده وله نظائر في قصر ما كان شائعاً في جنسه على أحد أنواعه وقد استعملته العرب ظرفاً وأصله المصدر ،

ولنعد الآن الى الكلام عن الواضع للنحو ، وفي سبيل معرفة الواضع

الأول لهذا العلم عند العرب تعترضنا آراء عدة فيها كثير من التضارب والاختلاف ، ولذا فقد كانت فيما مضى ولا تزال حتى الآن مصدر كثير من التردد والشك عند من يريد درس هذه المسألة وتحقيقها . وسنحاول أن نسلك في ذلك منهجاً أساسه تحكيم العقل ، والتمحيص العلى ؛ ولهذا فإننا لن نرفض هذه الروايات المتضاربة التي تطالعنا في ثنايا كتب الأدب واللغة ، ولكننا سنعتمد عليها إلى حد بعيد ، إذ أنها لا تزال المصدر الوحيد الذى نستطيع أن نعثر عليه حتى الآن غير أننا سندرسها ، ونتفهمها ، ثم نحاول أن نقلبها على المقاييس العقلية الناقدة رغبة في أن نصل إلى الحقيقة التي نقشدها . هذا ومن يطلع على ما كتبه رجال الأدب واللغة ، وما ذكره أهل الرواية في هذا الصدد يفتى إلى ما انتهينا إليه وهو أن من نسب إليهم وضع النحو العربى هم أربعة : على بن أبى طالب ؛ أبو الاسود الدؤلى ، نصر بن عاصم ، عبد الرحمن بن هرمز .

والذى يهمنا أن نلاحظه هو أن هؤلاء الأربعة قد وجدوا على وجه التقريب في عصر واحد . فعلى قتل في سنة ٤٠ هـ ، وأبو الاسود الدؤلى توفى في سنة ٦٩ هـ ، ونصر بن عاصم توفى في سنة ٨٩ هـ ، وعبد الرحمن بن هرمز توفى في سنة ١١٧ هـ ، وإذن فنستطيع أن نقول إن الرواة متفقون على أن اللبنة الأولى في تأسيس النحو العربى كانت في تلك الفترة المحصورة بين على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن هرمز ، وهى

..فترة لا تكاد تتجاوز سبعين سنة . والخلاف إنما هو فيمن وضع هذا
اللبنة وقبل أن تناقش هذا الخلاف نحب أن نذكر أهم الرواة الذين أثر
فيهم القول في هذه المسألة :

نجد أولاً محمد بن سلام الجعفي فقد توفي سنة ٢٣٢ هـ . إذ يقول
ما نصه : (١)

د وكان أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع
قياسها — أبو الأسود الدؤلي — ، ثم قال د ووضع باب الفاعل
والمفعول والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم ... ، ثم قال
د ثم كان بعدهم عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، فكان أول من بعج
النحو ومد القياس والعلل ،

ثم يأتي من بعد ابن سلام أبو محمد مسلم بن قتيبة (٢) وقد توفي سنة
٢٧٦ هـ . إذ يقول : د هو (أي أبو الأسود الدؤلي) يعد في الشعراء ،
والتابعين ، والمحدثين ، والنحلاء ، والمفاليج ، لأنه أول من عمل في النحو
كتاباً .

وبعد ابن قتيبة نجد المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

(١) مقدمة كتابه طبقات الشعراء

(٢) الشعر والشعراء — ترجمة أبي الأسود ج ٢ ص ٧٠٧ (طبعة عيسى
الباني الحلبي بالقاهرة — تحقيق وشرح احمد محمد شاكر)

إذ يقول (١) : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود
وسئل عن أرشده إلى الوضع في النحو فقال : تلقيته عن علي . »

وبعد أبي العباس المبرد نجد صاحب الفهرست ، محمد بن إسحق النديم
المتوفى نحو سنة ٣٨٥ هـ ، فيتوسع في الرواية وينقل عن آخرين إذ يقول : (٢)
(زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وأن أبا الأسود
أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .)

« وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم (٣) الدؤلي . ويقال - الليثي . .
قرأت بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب أنه قال : « روى ابن لميعة عن أبي النصر
قال : كان - عبد الرحمن بن هرمز - أول من وضع العربية . »

(١) ينقل هذه العبارة أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة
٣٥٠ هـ ، ويصدرها بقوله (روى التالي عن الزجاج أن أبا العباس قال : ...)

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ٥٩

(٣) يعرف نصر بن عاصم الليثي النحوي بأنه كان من أصحاب أبي
الأسود الدؤلي ، ويزوي الأستاذ الرافعي . (تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١
هامش) أن أول كتاب وضع في النحو على التحقيق هو كتاب نصر بن
عاصم (انظر ياقوت ترجمة بن عاصم) .

ثم ينتقل لنا بعد هذا صاحب الفهرست كلاماً طويلاً عما رآه وشاهده
 بنفسه في هذا الموضوع ، ونحن نؤثر أن نرويه بنصه ؛ إذ أن ذلك يلقى
 بعض الضوء على ما نحن بهداه . إذ أنه يحدثنا عما رآه بنفسه ؛ وكل من
 قرأ الفهرست لابن النديم ؛ أو قرأ عنه ، يدرك في سهولة مكانته في دقة
 الرواية ، وحرصه على تحرى الحقيقة ، ونزوعه إلى المنايس العقلية وتحكيمها
 في كل ما يقرأه أو يسمعه . هذه الحيلة من جانبه تستحق شيئاً من الثقة
 والاطمئنان من جانبنا بالنسبة لما يرويه . يقول ابن النديم^(١) : « كان بمدينة
 الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ، يعرف بابن أبي بعره ، جماعة
 للكتب ، له خزانة لم أرُ لأحد مثلها كثرة تحتوى على قطعة من الكتب
 العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات
 فأنس بي . وكان نفوراً ضئيلاً بما عنده ، خائفاً عليهما من بني حمدان -
 فأخرج لي قطراً كبيراً ، فيه نحو ثلاثمائة رطل ، جلود وصكاك وقرطاس
 مصرى ، وورق صيني ، وورق تهمي ، وجلود آدم وورق خراساني ، فيها
 تعليلات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو
 والحكايات والأخبار والأنساب والأمهات ، وغير ذلك من علوم العرب
 وغيرهم . »

وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة - ذهب عن اسمه - كان مستهتراً
 بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت

(١) الفهرست ص ٦٠

بينها ، بأفضال من محمد بن الحسين عليه السلام ، وبجائسته بالمذهب فإنه كان شيعياً . فرأيتها وقلبها فرأيت عجبا ! إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً ، أدرسها وأحرفها . وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرجة توقيع بخطوط العلماء ، واحداً بعد واحد ، يذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع توقيع آخر ، خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض . ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج ، صاحب على رضى الله عنه ، ثم وصل هذا المصحف إلى عبد الله بن حاتم رحمه الله ، ورأيت فيها بخط الإمامين ، الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين على عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، وسيبويه ، والفراء ، والكسائي ، ومن خطوط أصحاب مثل سفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، وغيرهم ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام في التفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمه الله عليه بخط يحيى بن يعمر .

وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي ونحوه هذا خط النضر بن شميل ثم لامات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا

له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا على كثرة بحثي عنه .

ثم إننا نجد بحد ابن التميمي أبا الطيب عبد الواحد بن علي المتوفى سنة ٣٥١ هـ . يقول في ذلك : « كان أول من رسم للناس النحو أبا الأسود . أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان أعلم الناس . بكلام العرب . وأبو الأسود أول من نقط المصحف . واختلف الناس إلى أبي . الأسود يتعلمون العربية وفرع لهم . ما كان أصله ،

ويعاصر أبا الطيب هذا إمام لغوي آخر هو أبو سعيد السيرافي المتوفى . ٣٦٨ هـ . ، فنجده يروي في هذه المسألة أيضاً رأياً لا يخرج عن آراء السابقين إذ يقول : « أول من رسم النحو أبو الأسود الدؤلي ، ويعاصر السيرافي عالم لغوي آخر ؛ هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري طلحة بن نوح بن أزهري الأزهري . الهروي . المتوفى . سنة ٢٧٠ هـ ؛ فيرى رأياً لا يخالف فيه معاصره ؛ إذ يقول : « وبلغنا أن أبا الأسود الدؤلي وضع وجوه العربية . وقال للناس . انحوا نحوه فسمى نحواً . » (١)

وأصحاب هذه الروايات المتقدمة قد عاشوا كما رأينا في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري . وبعد هذا القرن نجد رواة آخرين يرددون نفس الروايات المتقدمة دون أن تكون لهم أصالة أو رأي جديد . ولعل

(١) ينقل هذه العبارة عن التهذيب للأزهري صاحب لسان العرب في

أولاهم بالذکر الحافظ بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والسيوطى المتوفى
سنة ٩١١ هـ ، والقفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

أما الحافظ فإنه ينقل عبارة المبرد التى ذكرناها فيما مضى إذ يقول :
« أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف أبو الأسود » ، وسئل عن
نهج له الطريق فقال تلقته عن غلى^(١) .

وأما السيوطى فإنه يذكر أغلب هذه الآراء المتقدمة ، وهو كذاته
لا يحاول تمحيصها ، ولا إبداء رأي فيها .^(٢)

.. وأما القفطى فإنه يبالغ مستلك السيوطى فى جمع الآراء والاكتمال
نسبتها إلى أصحابها^(٣) ولعل أهم شئ مألوف هو ما ينقله عن وجهة نظر
لبصريين فى زمنه بالنسبة لمن وضع النخوة ، ويقول : « وأهل مصر قاطبة
يؤمنون بنقل النخل والتصحيح أن أول من وضع النخوة على ابن أبى طالب
رضي الله عنه . » وأخذ عنه أبو الأسود ، وأخذ عن أبى الأسود نصر
بن عاصم البصرى ،

ثم يمضى فى ذكر السلسلة التى ألفنا قراءتها عند غيره بمن الزواة
لنسبة لطبقات النحاة .

(١) الإصابة — ترجمة أبى الأسود ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢

(٢) السيوطى - السبب فى وضع العربية

(٣) القفطى - اتباع الرواة ، الصفحات الأولى من الكتاب .

ونحن لو تجاوزنا عن الخلاف في التعبير بين هؤلاء الرواة الذي لا
يترتب عليه كبير خيل ، والذي مصدره في كثير من الأحيان التساهل
وعدم الدقة في اختيار الألفاظ الاصطلاحية في الفترات الأولى من تدوين
العلوم العربية ، حيث نجد ابن سلام يقول : « أسس العربية وفتح بابها ،
وابن قتيبة يقول : (وضع العربية) والمبرد يقول : (وضع العربية)
وأبو الطيب السرياني يقولان : (ريلم النجو) . . .

نقول لو تجاوزنا عن هذا الخلاف بين لفظ رسم ووضع ، وأشبه
المقاربة المعنى فإننا نستطيع أن نخرج من أقوال هؤلاء الرواة بما يشبه
الإجماع على أن الواضع لتلك اللغة الأولى في النجو إنما هو أبو الإسود
الدؤلي . . . وسنحاول الآن أن نتناول كل شخصية من هذه الشخصيات التي
نسبت إليها أولية الوضع في النجو العربي فتفهمها ، ونلم بظروفها ، ونجمل
الرواية التي تنسب أولية الوضع إليها ؛ وعلى ضوء ذلك نتكشفت لنا
الحقيقة التي أجملناها ، ونستطيع أن تصدر عليها حكمنا في شيء من الثقة
العلمية ، والطائفة النفسية . . .

أما فيما يختص بنسبة ذلك إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فظاهر
فيه فكرة التشيع ، وبدل على ذلك أن هذه النسبة لا توجد وتنتشر
إلا في البيئات الشيعية ، كما رأينا ذلك في مصر أيام القفطي . . .

ولقد استطعنا أن نلمس ذلك عند القدماء أنفسهم ، وأن نجد أثرها حتى

، بعض هذه الروايات التي نقلناها عن أصحابها .

ويضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن ابن سلام وهو أقدم من أثر
نهم الرواية في هذا الموضوع ، لم يشر بذلك إلى مجهود علي في تأسيس
النحو . وليس بمستبعد أن يكون أبو الاسود نفسه ، وهو من أشد التابعين
ثقة ، ومن أخلص الناس إليه ، قد عزا شيئاً من مجهوده في النحو إلى
أبي المؤمنين تواضعاً منه أو تبركاً به أو تفانياً في شخصيته أو رغبة في
قديم المذهب الشيعي واستثارة بكل فضل . وليس بمستبعد أيضاً أن
يكون قد جرت مناقشات ونباتورات بين علي وأبي الاسود فيما كان
يؤيد الاسود يعتزم التمسك به من تأسيس النحو ووضع . كل هذا جائز ، وليس
ببعيد أن يحصل وخصوصاً في بيئة تغلب فيها المعاني الروحية ، ولكيف
لمستبعد هو أن يكون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد قام بمجهود علمي
مساهم مساهمة فعلية في تلك اللبنة الأولى من عتلم النحو ، فإن ظروفه
الخاصة ، ومشغوليته الدينية والسياسية ، وإهماله بما هو أجل من ذلك ،
وأخطر يحملنا نطمئن إلى أن أبا الاسود هو الذي نهض بعبد تأسيس
النحو ، وتزعم تلك اللبنة التي اتجهت إلى دراية العزيم والإهتمام بشأنها .
ربما يزيدنا اطمئناناً إلى هذا الرأي هو أننا لم نعر فيها قرأناه من روايات
أولئك اطلعنا عليه من آثار أدبية وعلمية على أي أثر ينهض كدليل مادي على
مشاركته علي في تأسيس النحو ، بل إن هناك من يهتبه بالروايات ، التي :

تنسب وضع النحو إلى علي ، ما يؤكد نفي ذلك عنه ؛ من ذلك ما يرويه
 القفطي من أن أبا الأسود قد تلقى الأمر من علي بن أبي طالب بوضع
 حروف النصب ؛ ولما رجع إليه بعد أيام قدم إليه صحيفة كتبت فيها
 حروف النصب علي هذا النحو ؛ وإن ، أن ، كأن ، ليت ، لعل ، وحينما
 قرأها علي سألها : راين لكن ؟ فقال أبو الأسود ما كنت أدري أنها منها ؛
 فقال له علي : اثبتها فأثبتها منها .

ونظرة خاصة في هذه الرواية وفي مدى ما تتحمله من ممانئ تجعلنا
 نرفضها ؛ ونحن مطمئنون ؛ فهي لو صحت لأعطتنا ضرورة عن أن النحو
 العربي قد نضج وكل لا في نظريات العامة فحسب ولا في رؤوس مشائفة
 فقط ، وإنما في تفاصيله ودقائقه قبل سنة ٤٠ هـ ؛ ذلك الأمر الذي لا
 يتلاءم مطلقاً مع نشأة علم من العلوم وعلى يد مؤسسه الأول ؛ ثم كيف
 يعقل هذا . وقد استمر النحو في نموه الشريع حتى أيام نيبويه وهو لا يقدم
 هذا التقسيم الواضح ولا التفصيل الدقيق لنفس هذا الباب من أبواب
 النحو ؟

على أننا نجد ما يؤكد ذلك بالنسبة لأبي الأسود ؛ ونستذكره بعد قليل
 وإذا كان من علي بن أبي طالب بعض الآراء في هذا فذلك لا يعندو
 أو هو قريب الشبه بما عرفت من إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم
 لأصحابه بتصحيح خطأ من نحن أمامه . فقد روى أن الرسول سمع خطأ في

تجلسه فقال لمن كان معه من الصحابة : « أريدوا أخاكم فقد ضل . » ، أو
هو شبيه كذلك بما عرف عن عمر بن الخطاب من حرصه على العربية
الصحيحة ، وكرهيته للحن ونموره من سماعه ثم دعوته بطريق غير مباشر
إلى تعلم العربية وتجنب الاختلاف فيها . وإذن ففستطيع أن تقول إن ما
كان من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر الخلفاء الراشدين من بعده
ومهم على بن أبي طالب بشأن اللغة وتصحيحها كان طليعياً ، تستلزمه
الظروف ، وتدعو إليه طبيعة الحرص على اللغة من أصحابها وخصوصاً
بعد أن أصبحت لغة الدين الجديد وأداة معرفة أحكامه ، وكان هذا
لا يزال بعيداً عن الفحور بمعناه العلمي ووضع قواعده على أساس منظم .

وأما ما رواه ابن الأثير من أنه قرأ بخط أبي عبد الله بن مقله عن
علي بن أن الواضع للعربية هو عبد الرحمن بن هرم فلا ينبغي أن يقول
عليه ، ذلك لأنها رواية من مصدر واحد ولم يوجد ما يدعمها ولا ما يقويها
من أدلة أخرى حتى تستطيع أن تقف أمام الإجماع الذي رأيناه في جانب
أبي الأسود الدؤلي . وعلى فرض قبولها وصحتها فإننا نستطيع أن نفهمها
على الوجه الآتي :

كان عبد الرحمن بن هرم من أصحاب أبي الأسود الذين يهتمون
بالعربية وبالمحافظة عليها ، ولم يكن المجهود الذي يبذل في هذه الناحية
مثلاً في دراسة مدرسية منظمة كما نتصوره الآن ، بل كان بمثابة مشاورات
تبادل ، وآراء تعطين ، ونصائح تقدم بمناسبة خطأ أو لحن لوحظ على

لسان متكلم بالدرية أو قارىء لبعض آيات قرآنية ، ثم إن هذا المجهود
 لا يمكن أن يتصور دائما صادرا عن أولئك المتمعين بأمر العربية مجتمعين ،
 بل كان كل منهم في حل من أن يسدر رأيه على انفراد أو يصحح خطأ
 دون الرجوع في ذلك إلى رأى أستاذ أو الاعتماد على كتاب مدون ،
 فكانوا جميعا أساتذة في العربية حريصين عليها متعارفين على سلامتها وعلى
 إنقاذها من ذلك المرض الاجتماعى الذى بدأ يشرب إليها ، وأمر أولئك
 الذين يستطيع أن نسميهم أرائل النخاة في العربية يشبه ثبامات
 كان معروفا عند أوائل النخاسة في اليونانية واللاتينية والسيرانية ؛
 إذ أن كل واحد منهم كان يساهم بنصيب من ناحيته في تلك الملاحظات
 النحوية التى أصبحت فيما بعد أساسا لوضع النحو ؛ ثم إن هذا التعاون لم
 يمنع واحدا منهم أو أكثر من أن يخطو خطوة عملية في وضع اللبنة
 الأولى من هذا البناء ، ومع ذلك فقد كانت هذا المجهود الأول يعزى
 إليهم جميعا .
 وعلى ضوء هذا يمكن أن يقال إن عبد الرحمن بن هرمز قام بنصيب
 من الملاحظات النحوية الأولى في اللغة العربية ، وكانت هذه الملاحظات
 تلقى مشافهة لا تدويناً ، ولعلّه في هذا الميدان قد ساهم بنصيب كبير حتى
 إن ثعلب روى أنه الواضع للعربية .
 وهذا الذى ذكرناه بالنسبة للملاحظات النحوية الأولى عند اليونانيين
 واللاتينيين ، والسرثانيين وكذلك بالنسبة للنخاة والأوائل لهذه اللغات المختلفة

يفسر لنا أيضاً ما ذكره الرواة من أولية الوضع في النحو العربي لغير عبد الرحمن بن هرم ، إذ انفسألة في نظرنا لا تعدو أن تكون نشاطاً ملحوظاً واهتماماً أوسع في دائرة الاخطاء العربية وتصحيح اللحن فيها . ومراعاة الدقة في التعبير . ولعل نشاط عبد الرحمن بن هرم قد ازداد بعد أبي الأسود الدؤلي حتى كاد يطغى عليه مما جعل ثعلب ينسب إليه أولية الوضع لهذا العلم ، ويخيل إلينا أن كلمة الوضع عند هؤلاء الرواة كانت تطاق على من يبذل نشاطاً واسعاً في العربية كما كانت تطاق كذلك على الواضع الحقيقي لأوليات النحو .

ومن هنا نجد نسبة الوضع الأول للنحو العربي تعزى الى كثيرين ، ومن يفهم الجو العام للإنتاج النحوي الأول في البيئات العديدة لا يجد حرجاً في تفسير ذلك كما أنه لا يجد صعوبة كبيرة في استخلاص رأى يلس فيه وجه الحقيقة معتمداً على أدلة جزئية أخرى تعززه وتقويه . وإذا كان الرواة ، كما لاحظنا ، قد توسعوا في إطلاق كلمة الواضع الأول للعربية ، فاستباحوا لأنفسهم إطلاقها على من بذل جهداً في تخليص العربية مما شابهها من لحن وضعف فإنهم قد احتاطوا من ناحية أخرى فلم يطلقوها على من أشرف على هذه المهمة من ولأه الأمر فلم نر ولم نسمع بأن زياد ابن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفي قد اشتركا في وضع النحو بالرغم مما أبدياه من حرص على اللغة وقدماء من معاونه في سبيل تخليصها والمحافظة عليها ؛ أما الأول فقد مد يد المساعدة إلى أبي الأسود الدؤلي ، وفي

بعض الروايات هو الذي أمره بوضع النحو وألح عليه في ذلك ؛ وأما الثاني فهو الذي باشر الخطوة الثانية في الموازنة على اللغة وضبطها وذلك بنقط الإيجام الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي .

هذا وأمر نصر بن عاصم بالنسبة لوضع النحو يكاد يكون أدق وأشكل من أمر عبد الرحمن بن هرمز ، ذلك أن نصر بن عاصم قد قام بخطوة إيجابية في ضبط اللغة العربية وحل كثير من إشكالاتها بواسطة نقط الإيجام الذي أصبح ضرورياً بعد أن دخلت اللغة في مرحلة الكتابة واتسعت فيها دائرة التسجيل فكانت حاجتها إلى ضابط يميز الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء والذون ، والسين والشين ، والذال والذال والراء والراء ، وكالضاد والضاد وكالغلام والظاء . الخ

نقول كانت حاجتها إلى ضابط يميز هذه الحروف بعضها عن بعض لا تكاد تقل عن حاجتها إلى نقط الشكل الذي يميز أواخر الكلمات . وما يزيد الموقف دقة بالنسبة لنصر بن عاصم هو أن بعض الرواة ينسب إليه أنه وضع كتاباً في النحو . بل إن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يذهب إلى أنه من ذلك فيروي أن كتاب نصر بن عاصم يعتبر أول كتاب في النحو على التحقيق ^(١)

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

ومع هذا فإننا نستطيع في غير كبير عناء أن نفهم موقفه فيها يطمئن إليه البحث ، ونستخلص حقيقة موقفه دون تعارض مع ما نسب إلى أبي الأسود الدؤلي من وضع اللبنة الأولى في بناء النحو العربي . ذلك أن الخطوة الإيجابية التي قام بها نصر بن عاصم ولم ينسبها واحد من الرواة - فيما اطلعنا - إلى غيره ينبغي أن نخرجها عن دائرة النحو بالرغم من مساهمتها الفعالة في خدمة اللغة وتخليصها من كثير من الأخطاء التي كانت معرضة لها . وبالرغم كذلك من مشاركتها إلى أحد كبير في حركة تنقية اللغة التي امتاز بها عصر الدولة الأموية في بيئة العراق .

وأما ما نسب إليه من وضع كتاب في النحو فهناك من الملاحظات ما يجعلنا - على فرض صحته - نستسيغه ونقبله دون أن يكون ذلك مصدراً للظن في نسبة أولية الوضع في النحو لأبي الأسود الدؤلي ، ذلك أن المدة التي عاشها نصر بن عاصم بعد وفاة أبي الأسود كفيلة بجهز بعض الملاحظات النحوية والتوسع فيها ، ثم الإقدام على خطوة جديدة في ذلك الميدان . - بخطوة التأليف والتدوين - بعد أن ظلت الملاحظات النحوية مدة من الزمن تصدر عن أساتذة العربية مشافة وتنقل عن طريق الرواية والسماع . فلقد عاش نصر بن عاصم عشرين سنة بعد وفاة أبي الأسود أي من ٦٩ - إلى ٨٩ هـ ، وهذه الفترة ليست بالبسيطة ولا بالقصيرة بالنسبة لتطور علم من أهم العلوم العربية ؛ من حيث الضرورة إليه وخصوصاً في وقت بدأت

العقلية العربية تتصل بالعقليات الأجنبية وتستمد منها عناصر المعرفة الإنسانية وأوليات العلوم .

محتمل إذن أن يكون نصر بن عاصم قد ألف في النحو العربي كتاباً ، ومحتمل أيضاً أن يكون قد برز في العربية واحتل مكان الصدارة فيها بعد وفاة أبي الأسود ؛ وما يؤيد هذا الاحتمال ويزيدنا ثقة فيه وأطمئناناً إليه هو أن الحجاج بن يوسف قد وكل إلى نصر بن عاصم دون سواء مهمة وضع نطق الاعجام وإزالة اللبس الخطير الذي كانت اللغة عرضة له بعد أن انتشرت الكتابة وأصبحت أداة لتسجيل المعارف ونقل الأفكار .

وإذا لاحظنا هذه الظروف التي أحاطت بنصر بن عاصم وبمكانته في العربية ، ثم أدخلنا في حسابنا تقدير القدماء وفهمهم لمعنى العربية وتوسعهم فيها لدرجة إطلاقها على كل مجهود يتدل من أجلها في سبيل المحافظة عليها وتخليصها من الشوائب التي لحقت بها أو كانت عرضة لها ، نقول إذا لاحظنا كل ذلك أمكننا أن نفهم في يسر نسبة بعض الرواة أولية الوضع في العربية إلى نصر بن عاصم دون أن يكون في هذا تعارض مع ما نسبته لجهنمهم إلى أبي الأسود الدؤلي ، وذلك إما لتفرده بخطوة جديدة في ضبط اللغة وإما لتوسعه في المجهود الذي بذله معاصروه وعلى الخصوص مجهود أبي الأسود ، وإما بلوضعيه أول كتاب في النحو كما سوغنا احتمال ذلك . وإني

كان من العسير أن نطمئن إليه ؛ إذ أننا قد استعرضنا تراجم العلماء

وقوائم المكتب المؤلفة في فروع المعرفة العربية على اختلافها ، وذلك كله في كتاب الفهرست وهو أهم مرجع في ذلك وأوفاه على الإطلاق ، ومع ذلك لم نقف على أثر لذكر كتاب ألفه نصر بن عاصم في النحو ؛ وعجيب أن يسقط هذا الكتاب - إن كان قد وجد - من قوائم ابن النديم وهو العالم المحقق المدقق الجماعة .

والآن بعد مناقشة هذه الروايات المتضاربة في نسبة أولية الوضع للنحو العربي واستبعاد ما يمكن استبعاده منها وتعليل ما يمكن احتمال صحته نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون إن واضح البينة الأولى في بناء النحو العربي إنما هو أبو الأسود الدؤلي دون سواء ، ودليلنا على ذلك بعد اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أنه الواضع الأول للعربية ما يأتي : -

أولاً - إن واحداً من هؤلاء الرواة ، حتى من بين من نسب الوضع الأول إلى غير أبي الأسود ، لم يتعرض لنفي هذه النسبة إليه لينخذ من ذلك وسيلة لإثباتها إلى غيره على انفراد ، بل اكتفى بنسبة الوضع الأول إلى من يراه وترك لمن يأتي بعده مهمة الفهم والتفسير لمغني الوضع في العربية والتأسيس لها ، وإن من يدرس الظروف الاجتماعية إذ ذاك ، ومن ينظر نظرة شاملة وفاحصة معاً في ملابسات هذا العلم وفي عدم الدقة وقلة التحري التي اتصف بها القدماء في تعبيرهم والتي كانت مثار الكثير من الشك

والخلاف بالنسبة لمن جاء بعدهم^(١) ، نقول إن من يفعل ذلك لا يجد صعوبة في تعليل هذا التضارب واستخلاص حقيقة يطمئن إليها ويعتمد عليها وعلى هذا يلم لنا تصحيح نسبة الوضع الأول لأبي الأسود ولا يطمئن في ذلك ما يرويه الآخرون من نسبة الوضع في العربية إلى غيره .

ثانياً - ما عثر عليه من آثار مادية قديمة تصور لنا ما ذكره الرواة خاضاً بمجرب أبي الأسود في العربية ، ومن هذه الآثار مصحف بخطوط قديمة عثر عليه في مسجد عمرو بن العاص في مدينة القسطنطينية ، ويعتبر هذا الأثر حتى اليوم أقدم مصحف مخطوط في العالم ، ولا يزال بحالته التي وجد عليها في المكتبة الخديوية في القاهرة ، وهذا المصحف قد جمع في نسخة العملين اللذين قام بهما أبو الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم اللبكي ، فالشكل الذي وضعه أبو الأسود قد رسم بمداد أحمر بنفس الطريقة التي نسبها الرواة إلى أبي الأسود وأما نقط: الاعجام فقد رسم بمداد أسود بنفس الطريقة التي أعرفت كذلك عن نصر بن عاصم . وهناك أثر مادي آخر ينبغي أن يضاف إلى هذا المصحف . ذلك هو عدد الصفحات التي كانت في مكتبة ابن أبي بكرة محمد بن الحسين وراثتها صاحب الفهرست بنفسه وروينا نصه في هذا منذ قليل . وهذا الأثر وإن لم يصل إلينا إلا أنه ليس من السهل أن نطمئن فيه .

^(١) قد لاحظ هذه الحقيقة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في الجزء الأول من

كتابه - تاريخ آداب العرب - ص ٢٢٧ هامش رقم ٢ .

لأن ابن النديم قد عرف بدقته في النقل والرواية ، فهو حين يرى بنفسه يقول رأيت وحين يسمع من شخص يقول حدثني فلان أو سمعت من فلان ، وحينما لا يطمئن إلى شيء أو لا يتأكد منه لا يتحرج من أن يقول - لم أرى - أو يصحب هذا القول بعبارة تدل على عدم اطمئنانه إليه ، وهكذا تفيض تعبيرا من أول الكتاب إلى آخره بما يدل على تحفظه في النقل ودقته في الرواية وصراحته في التعبير . ولو أدخلنا في حسابنا إلى جانب هذا ما هو مغزوف من قسطنطين الزمن بين أبي الأسود وابن النديم ، فالمسافة بين وفاة الأول ومولد الثاني لا تكاد تتجاوز قرنين وربع قرن من الزمن ؛ إذ إن الأول منها مات سنة ٦٩ هـ ، والثاني مات جوالى سنة ٣٨٠ هـ ، نقول لو أدخلنا في حسابنا أيضاً هذا الاعتبار الضاعف ثقتنا وإكراه علمائنا بما يذكره لنا صاحب الفهرست .

وكل ما أمكن أن يوجه من نقد - فيما اطلعنا عليه - إلى هذه الصفحات الأربع في النسخ المنسوبة إلى أبي الأسود المدوّل هو ما ذكره الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ^(١) من أن ابن أبي الأسود لم يكتب بنفسه هذه الصفحات وإنما كان أصحابه هم الذين يكتبون ذلك عنه ، ثم خلاص الأستاذ الرافعي إلى القول بأن كل ما كتبه أبو الأسود بنفسه إنما هو صحيفة في الأدب عرفت بتعليقه أبي الأسود وكانت مصدر خلاف ومثار جدل .

(١) - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

بين النحاة ، سواء أدينا أكانت الصحائف الأربع التي نسبها ابن النديم
إلى أبي الأسود من كتابة أبي الأسود نفسه أم من كتابة أصحابه عنه فإن
الذي يهمننا في هذا المقام إنما هو التأكد من أن ما تحوى عليه هذه
الصحائف من النحو أو من الكلام في الفعل والمفعول إنما هو من عمل
أبي الأسود الدؤلي ، ولا يطعن في ذلك أن تكون الصحائف قد كتبت
إيد شخص آخر ما دامت بمعرفة وتحت إشرافه ، كما لم يطعن في شكك
للقرآن بطريقة النقطة أن كان ذلك بيد كاتب لقن ينفذ طريقة أبي الأسود
وينسجل ما يمل عليه أبو الأسود
ونظن بعد هذا أن ذلك التمهيد الذي قدمناه ، وتلك الخطوات التي
سلكناها في بحث هذه النقطة ، وهذه النتائج التي وصلنا إليها ، كل ذلك
كاف للتأكد من أن أبا الأسود كان الواضع الأول للنحو العربي .
ولترك الآن - مكتفين بهذا - الكلام عن أبي الأسود ، ولنتقل إلى
الحديث عن نقطة أخرى فيها من الدقة ، ولها من الحظورة ما يجعلنا في
ضككة أخرى متعادلة لمسألة الواضع الأول للنحو العربي وتعني بتلك النقطة
اللينة الأولى في بناء النحو العربي
ما هي اللينة الأولى في بناء النحو العربي ؟

إن أمر هذه اللينة - بعد الذي قدمناه - سهل - يسير - فواضحتها
هو أبو الأسود ، وهنا نجد من الخلاف والإضطراب عند القدماء بالنسبة

لهذه المسألة ما يعادل الخلاف والاضطراب بالنسبة للواضع الأول للنحو العربي ، وهما هي ذى كتب الرواة تعرض علينا صورة مشوذة المعالم ، غير دقيقة الملامح عن أولية التوضع فى النحو ؛ تشبه تماماً نفس الصورة التى رأيناها عن الواضع الأول لهذا النحو ، مرة تطالعنا هذه الكتب بأن أول ما وضع أبو الأسود فى النحو العربى إنما هو باب التعجب ، وذلك على أثر لحنه بدرت من ابنته فى صيغة التعجب ؛ ومرة أخرى تطالعنا هذه الكتب نفسها بأن أول ما وضع أبو الأسود إنما هو باب الفاعل والمفعول ؛ وذلك على أثر لحنه بدرت من شخص فارسى ؛ ومرة ثالثة تقبّر هذه الكتب بأن أول ما وضعه أبو الأسود إنما هو بحروف النواصب ، وذلك بإرشاد من على بن أبى طالب عليه السلام ، وقد يضاف إلى ذلك خروفي الجوازم أيضاً ، ومرة رابعة تذكر هذه الكتب بأن أبا الأسود أول ما فكر فى النحو فكر فى الكلام ، ثم وضع أقسامه من اسم وفعل وحرف ، وهكذا من التحقيق ، والتفريع والخلاف ما يترك الباحث فى نفس الحيرة التى أحسبنا بها وصورناها عندما كنا نتحدث عن الواضع للنحو العربى وفى الواقع أننا لو أهملنا عمل العقل ، واستسلمنا لكل ما ذكره الرواة دون تمحيص لانتبهنا إلى أن أهم أبواب النحو ، وبرهوس مسائله ، بل وكثيراً من التفاصيل فيها قد وضعها أبو الأسود الدؤلى ، وذلك صعب فهمه ، عسير قبوله إذ أنه كيف يتصور ذلك وما رأينا فى تاريخ علم من العلوم الإنسانية أنه بدأ ، ونما ، وأشرف على الكمال فى حياة رجل واحد .

وعلى يد رجل واحد ؟

إن حياة العلوم طويلة شاقة ، وتضكوئها لكى تثبت على أقدامها يحتاج إلى مجهود جبار ، لا من شخص واحد ، ولكن من جماعات متآلفة متعارفة ، وأمامنا من الأمثلة على ذلك تاريخ النحو اليونانى وتاريخ النحو اللاتينى ، فالأول قد استفد أجيالا ولم يشرف على درجة الكمال إلا بعد قرون ؛ والثانى بالرغم من استغاثته بتمهيج الأول ، وبمجهود رجال النحو اليونانى لم يثبت على قدميه إلا بعد مئتي ما يزيد على ثلاثة قرون . (١)

١٢١٠ من الثابت أن النحو اليونانى بدأ يأخذ طريقه إلى الحياة فى خلال القرن الخامس قبل الميلاد على أيدي أساتذة الحركة السوفسطائية فى أثينا ، ثم أخذ ينمو ويستقل عن العلوم اللغوية الأخرى ، ولكنه لم يتم له ذلك إلا فى أواخر القرن الثانى بعد الميلاد ؛ وكان ذلك على يد عالم يونانى من علماء الإسكندرية اسمه *Denys de Thrace* ؛ ومعنى هذا أنه استمر نحواً من سبعة قرون من الزمن ؛ وهذا مع ما هو معروف عن اليونان من ثقافة ونشاط ، ومع ما امتازوا به من سعة المعرفة ، وطول الباع فى الإنجازات العلمية .

أما النحو اللاتينى فقد بدأ بدوره فى خلال القرن الثانى قبل الميلاد بفضل مجهود عالم لغوى لاتينى يسمى *Varro* ؛ ولكنه لم يكمل إلا فى خلال القرن الثانى بعد الميلاد على يد نفس العالم اليونانى *Denys de Thrace* ؛ أى أنه بقى أكثر من ثلاثة قرون .

ولكى تتصور المجهود العنيف فى ذلك ، والصعوبة التى يتعرض لها العلم فى تأسيسه وتكوينه نأخذ جزئية واحدة من جزئيات النحو العربى فتمثلها فى عهدى الأول ، وتنصورها على حقيقتها ، ولنكن هذه الجزئية أقسام الكلام اسم ، وفعل ، وحرف ، أو حروف النواصب ، إن ، وأن ، وكانت ؛ ولكن ، وليت ، ولعل ؛ أو نواصب المضارع - أن ولن ؛ واذن ، وكى ؛ وحتى ؛ ولام التعليل ؛ أو ... أو ... الخ .

قد يبدو لنا الآن سهولة تصور انحصار الالفاظ العريضة فى الاسم ، والفعل ، والحرف ؛ أو انحصار حروف النصب للاسماء فى إن ، وأن ، وكأن ، وليكن ، وليت ، ولعل ؛ غير أن هذه السهولة ليست فى الواقع إلا ثمرة مجهود أجيال عديدة ، وطوائف من العلماء قد أفنوا حياتهم فى الدرس ، والتحصيل ، ثم فى الشرح ، والتفصيل . ولكن جزئية من هذه الجزئيات كانت تتطلب حتماً من يعرض لها قبل وجودها ، ويريد وضع إحصاء لها قبل تأسيسها ؛ نقول إن بحث جزئية من هذه الجزئيات كان يتطلب حتماً استقراء شاملاً للغة ، ومفرداتها ، واستيعاباً عاماً لنصوصها ، وتراكيبها ، وأباليها ، حتى يمكن حصر مفردات هذه الجزئية ، ومعرفة استعمال هذه المفردات ، وعقد المقارنات بين أباليها فى الاستعمال ، ومعرفة أوجه الشبه بين هذه المفردات من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى ومن ناحية العمل ، ثم إدراك الفروق بين هذه المفردات فى كل ذلك حتى يمكن

الجمع بينها في باب واحد من حيث الوظيفة ، والعمل ، والفرقة بينها في نفس الباب من حيث النقط والمبنى ، وليس ذلك كله بالشئ الحين اليسير .

إن الباحث الناقد لمثل هذه المسألة ، لو لم يكتفر ، في إدراك خطورتها ، وتصور صعوبتها ، بما أشرنا إليه من تفرع البحث ، وامتداد جوانبه ، وتعدد أطرافه ، وبما قدمناه من الكلام في تاريخ العلوم ، وخصوصاً النحو اليوناني ، واللاتيل ؛ نقول إن الباحث الناقد ، لو لم يكتف بذلك ، ينبغي أن يطلع على النصوص الأدبية التي كانت معروفة في صدر الإسلام ، ويقرأ التاريخ ، ويلزم بسير العلماء الأوائل في الإسلام ، ويعرف الكثير عن تاريخ نشأة العلوم الإسلامية ، ثم يعود بخياله وذاكرته إلى الوراء ليعيش فترة من الزمن ، على ضوء ذلك مع أبي الأسود الدؤلي ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة القيل ، وميمون بن الأقرن ، ونصر ابن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبي عمرو بن الدلاء وعبد الله بن أبي إسحق الخضرى ، ويونس بن حبيب ؛ ليرى كيف كان هؤلاء الرجال يتدارسون العلم ، ويواجهون مسائله ، ثم يتبادلون الرأي في نواحي المعرفة ، ويسمع ما كان يدور في حلقات الدرس ، في البيوت تارة وفي المساجد أخرى ، من الكلام في اللغة ، وفي النحو ، وفي الصرف ، وفي الأدب ، وفي الدين ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، بل وفي غير ذلك من الكلام في السياسة ، وفي التاريخ ، وفستيتا يتدلق بشئون المجتمع ،

فهم كيف كان هؤلاء العلماء يستقون معارفهم وإلى أى المراجع يرجعون ،
يف كان طلابهم يعون تلك المعارف ، وأى المناهج فى تنظيمها يسلكون ،
ليعد إلينا بعد ذلك يحدثنا عما رأى ، وما سمع ، وما فهم . وما نظم
بالين حبين نقول : إنه سيحدثنا عن خليط هائل من المعرفة لا
كاد المرء يميز فيه مادة عليية من مادة عليية أخرى ،
ستطرد طويل فى القول قد يكون فيه من ادواعى الإغراء ، ووسائل
مويق ما يمسك الانتباه ، فإذا ما تابع الطلاب الأستاذ ، وانتهوا معه
آخر الكلام يكون قد غاب عنهم أوله ، وطريقة أخرى فى فهم
أور ومعالجتها ، وفى منهج التفكير وأساليب التعبير .
وإذن فكيف يمكن أن نقبل كل ما نسبته الرواة إلى أبى الأسود
، وضع فى النحر ؟

يخيل إلينا أننا لو انتبهنا كل ما عزوه إلى أبى الأسود ولم نحتكم فيه إلى
بيعة العلوم ونشأتها ، ولا إلى طبيعة البيئة التى كان يعيش فيها أبو الأسود
هر لنا من خلال أقوالهم علم فى النحو يكاد يكون واضح المعالم ،
توفى البحث ، يحدد الأهداف ، بل ربما كان نحو أبى الأسود أدق نظاماً
أكثر تفصيلاً من نحو سيبويه وبينهما نحو قرن من الزمان ؛ وليس
أم القارىء ، لكى يستوضح هذه المسألة ، سوى أن ينظر فى باب التفاعل
فى باب حروف النصب للأسماء من كتاب سيبويه ، سبرى فى الأول

خليطاً من المعارف ، واضطراباً في القواعد ، فهناك كلام في الفاعل ، وفي
النائب عن الفاعل ، وفي الفعل المتعدي ، وفي الفعل اللازم ، وفي الفعل
المبنى للمعلوم ، وفي الفعل المبني للجهول ، وفي الفعل المتعدي إلى مفعولين ،
وفي الفعل المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل ، ثم يستطرد فيذكر الأفعال الناسخة
مثل كان وأخواتها مقارناً المبتدأ والخبر بالفاعل والمفعول . (١)

وسيرى في الثاني قصوراً وعدم شمول ، فهناك الحروف النواصب خمسة ؛
بينما هي في نحو أبي الأسود ستة . (٢)

وبعد الذي قدمناه من عرض سريع للبيئة العربية ، والمجتمع العربي أيام
أبي الأسود ، ومن كلام موجز عن طبيعة العلوم الإسلامية ونشأتها
نستطيع أن نقرر في صراحة أن منهج البحث العلمي الحديث ليس على
استعداد لقبول كل الروايات التي تذهب وضع النحر إلى أبي الأسود
الدؤلي ، ولنا كذلك على استعداد - مخافة الإطالة - لمناقشة كل هذه

(١) انظر كتاب سيبويه ج ١ ص ١٠ - ٢٨ . طبعة باريس سنة ١٨٨١ م
(٢) انظر كتاب سيبويه ص ٢٤١ - ٢٥٠ من الجزء الأول طبعة باريس
سنة ١٨٨١ م . حيث ينص مرات على أن هذه الحروف خمسة ، وانظر
كذلك - إنباء الرواه على أنباء النحاة للقفطي ج ١ ص ٤ طبعة دار الكتب
المصرية سنة ١٩٥٠ م حيث يعد هذه الحروف ستة بطريقة واو العطف
إلى تنهني المغايره ؛ وهو ينسب ذلك إلى أبي الأسود وعلى بن أبي طالب .

الروايات وتفنيدها ، مكتفين - على سبيل المثال - بما أشرنا إليه من تفنيد بعضها هنا ، وبما قدمناه من مناقشة لآراء العلماء بالنسبة للواضع الأول للنحو العربي هناك .

وإذن فإن الذى نستطيع أن نطمئن إليه ، ونقرره على ضوء ما تقدم حتى الآن ، هو أن اللبنة الأولى التى أرساها أبو الأسود الدؤلى فى بناء النحو العربى كانت شكله للقرآن عن طريق النقط كما أجمع الرواة على ذلك ، ونرجح أنه بعد أن تمت له هذه الخطوة - وهى ليست باليسيرة كما نتصورها الآن - قد تلاها ، وربما يكون قد صحبها كلام وملاحظات عما هو مرفوع وعما هو منصوب ، وعما هو مجرور ؛ ومدى هذه الملاحظات وذلك الكلام ليس من السهل أن نتبينه ، ولا أن نحده ، فقد ضاعت كل الآثار المادية التى تنير أماننا الطريق فى هذا . ولعل طول المداورة ؛ وكثرة المناقشة بين أبى الأسود وطلابه قد قادتاهم إلى الكلام فى معنى التعجب ، وفى معنى الفاعلية والمفعولية ، غير أننا نشك كثيراً فى أنهم بوبوا للنحو ، وفصلوا فى قواعده ، ووضعوا له هذه المصطلحات العلمية التى تطالعنا فى روايات المتقدمين ، وفق كتب المتأخرين .

ولسنا فى هذا نتجنى على الرواة ، ولا نلقى القول على عواهنه ، ولكننا نحتكم إلى الأثر المادى الوحيد الذى حدثنا عنه وعن ضياعه عالم ثقة ليس من السهل أن نطمئن فيه ؛ ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست ، إذ

يقول عن الأوراق التي رآها عند ابن أبي بكرة أنها كانت تحتوي على كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود : ولم يقل إنها تحتوي على باب الفاعل وباب المفعول ، ^(١) ونرجح كذلك أن هذه الملاحظات النحوية التي بدأ بها أبو الأسود وتبعه فيها طلابه قد بنيت ملاحظات تتناول النصوص الأدبية من شعر ونثر حتى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، أي حتى عهد عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، وبونين بن حبيب ، والخليل بن أحمد ؛ ولم ترق هذه الملاحظات النحوية إلى أن تكون قواعد مجردة ، لا صلة لها بالنصب الأدبي نفسه ؛ وذلك كأنه يقال مثلاً إن حروف النصب في الفعل المضارع هي كذا وكذا ، أو الحروف الناجمة لحكم المبتدأ والخبر هي كذا وكذا أو الحروف التي تجر الأسماء هي كذا وكذا . . . الخ ؛ وإنما كانت النصوص الأدبية نفسها هي ميدان الملاحظات ، ومادة الدرس ، وعماد النقاش ، كأن يقال مثلاً إن هذا الفعل المضارع في هذه الجملة قد نصب هنا ولم يرفع كما نصب الفعل المضارع في بيت من الشعر لأبرم القيس ، أو للنايفة ، أو للأعشى ثم يذكر نص البيت ، وربما يورد كل ما تستحضر الذاكرة من الشواهد الأدبية في هذا ؛ وهكذا يمضي النحويون في مناقشتهم وفي ملاحظاتهم الخاصة بالمسائل النحوية كرفع الاسم إذا وقع في أول الجملة أو بعد لفظ يدل على حدث ، ونصبه إذا كان دالاً على

(١) أنظر الفهرست ص ٦٠ - ٦١

زمان ، أو مشيراً إلى مكان أو مبيناً لحال ذات من الذوات ،

وبدلنا على صحة ذلك . أمران نذكرهما باختصار :

الأمر الأول : هو ما نجده في النحو اليوناني أو النحو اللاتيني عند نشأة كل منهما على أيدي أوائل النحاة اليونانيين واللاتينيين ؛ فقد كانت مسائل النحو إذ ذاك عامة ومنصبة على نصوص الأدب من شعر ونثر ، ولم تصل إلى مرحلة القواعد المنضبطة ، ولا إلى التجريد العلمي المطلق إلا بعد أجيال . .

.. الأمر الثاني : هو ما نجده من صورة واضحة لتلك الملاحظات والمناقشات في أقدم أثر نحوي وصل إلينا ، وهو كتاب سيبويه ؛ فإننا لو نظرنا فيه بإمعان لوجدناه يظالنا في كل أبوابه بأشكال هتذه الملاحظات ، وعلى الخصوص حينما ينقل إلينا في ثانياً مسألة آراء يونس بن حبيب ، أو آراء الخليل بن أحمد .

.. وإذا أضفنا إلى هذين الأمرين تصورنا للبيئة العربية في صدر الدولة الأموية ، وما كانت تتحمله العقلية العربية إذ ذاك من مغرقة عليمية ، ومقدرة على التجريد ؛ نقول إذاً أضيف هذا إلى الأمرين السابقين ظهر لنا في وضوح نوع النحو الذي وضعه أو فكر فيه أبو الأسود الدؤلي ، وعن غلبتنا قبول الروايات التي تنسب إلى أبي الأسود وضع أبواب منظمة وضوابط مجردة في النحو العربي كالرواية القائلة بأنه وضع باب الكلام وقال إنه يشتمل على اسم، وفعل وحرف جاء لمعنى ؛ أو الرواية الأخرى القائلة بأنه وضع باب النواسخ ، وقال - بعد مشاورة علي بن أبي طالب - إنه يشتمل على إن ، وأن ،

ولكن ، وكأن ، وليت ، ولعل !!!^(١)

ولم نذهب في استدلالنا بعيداً ، ونحاول في إثبات ما نحن فيه هنا أن نتجأ إلى طريق العقل ، والمقارنة ، وذلك أشبه ما يكون بطريق التجريد الذي نحاول أن نهدمه ، أو تستبعده في هذه المسألة بالذات ؛ نقول لم نذهب في هذا بعيداً وأماننا من الأشياء المادية في ذلك العصر بالذات ما يصور طبيعة العقلية ، ويوضح نوع العمل الذي كان يشغل نخلة الغرب حتى ذلك الوقت ؟ إن طريقة نقط الشكل عند أبي الأسود ، وطريقة نقط الإجماع عند نصر بن عاصم كلتاهما تربنا عملاً آلياً ، بدائياً ، بعيداً عن معنى التجريد ، ويكاد لا يكون للعقل أى تدخل فيه ؛ فكيف يتسلم هذا العمل الآلى ، الميكانيكى ، مع التجريد المطلق ؛ الذي نلاحظه في أبواب النحو المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلى ؟

تأما طريقة الشكل ، وهى اللبنة الأولى في بناء النحو العربى ، فقد استمدتها أبناؤنا الأسود الدؤلى من النخلة السريانية ؛ ونحن نقرب مبدئياً بأنه ليس فى ذلك ما يضير النحو العربى ، ولا ما يقلل من قيمة مجهود أبى الأسود فيه .

إن موقف أبى الأسود فى هذا يشبه إلى حد كبير موقف الكثير منا

(١) انظر إنباه الرواة على أنباه النخلة للقفطى ج ١ ص ٤ - ٥ طبعة دار

الآن ؛ فنحن نحاول أن نتصل بالغرب نتعلم لغته وندرس ثقافته ، ونعرف
مناهج البحث عنده ؛ وإذا ما ألممنا بشيء من ذلك عدنا إلى معارفنا الخاصة ،
واتخذنا من فروعها المختلفة ميداناً لتطبيق تلك المناهج لكي نبحث ثقافة
الشرق بحثاً جديداً ، ومع ذلك فلم يقل ، ولا ينبغي أن يقال إن هذا
الصنيع يسئ إلى معارفنا ، أو يقلل من شأن القائمين به . هذا وإن من
يدرس تاريخ الحضارات ، أو يقف على ما فيها من تداخل ، وما بينها من
صلات يستتبع أن يدرك في سهولة سلامة مرقف أبي الأسود ، بل عظمة
صنيعه هذا في خدمة اللغة والنحو على السواء . إن الحضارة الإغريقية
التي قد أسست على صلاتها بالحضارة البابلية - الآشورية من ناحية ،
وبالحضارة المصرية القديمة من ناحية أخرى ؛ ومع هذا فلم يمنعها ذلك من
أن تسود العالم ، وتملا شعوبه بمبادئها العديدة ، ومعارفها المختلفة .

ولدينا من الأدلة ما يبين في وضوح أن أبا الأسود قد استمد طريقة
نقط الشكل من لدن النحاة السريانيين ؛ من هذه الأدلة أن أبا الأسود قد
اتخذ بيئة العراق موطناً ، وكان بها والياً إدارياً ، وفيها عالماً لغوياً ، وزعيماً
دينياً ؛ ونحن نعلم أن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربي ، وبعده مغزوة
باللغة السريانية ؛ وبالمعارف السريانية ؛ وبكائنات إلى جانب ذلك
أهلة بالعلماء السريانيين ، وميداناً لدراساتهم ، ومناقشاتهم ، وجدلهم ،
لا في الناحية الدينية ، أو الفلسفية فقط ، ولكن في مختلف العلوم الإنسانية ،

ومنها اللغة والشعر ؛ ونعلم أيضاً أن اللغة العربية قد تعرضت - بعد اتساع
الفتوح الإسلامية - إلى نفس الأزمة التي تعرضت لها اللغة السريانية في
خلال القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ؛ ظهور لغات أخرى في ميدان
الحديث والكتابة ، وانتشار اللحن بين الناطقين ، والخوف من أن يمتد
هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس .

هذه هي مظاهر الأزمة التي مرت بها اللغة السريانية في القرنين الرابع
والخامس الميلاديين ، واللغة العربية بعد اتساع الفتوح . ولقد كان من
نتائج هذه الأزمة عند السريان أن فكروا في وضع ضوابط لشكل كتابهم
المقدس ؛ ولم تكن هذه الضوابط سوى طريقة النقط التي استعمالها أبو
الأسود الدؤلي في ضبط شكل القرآن . من هذا نرى أن المقدمات متشابهة
والظروف متشابهة ، والنتائج متشابهة ، وكلا العاملين قد حدث في بيئة واحدة ؛
أليس من الغناد إذن أن نقول إن أبا الأسود الدؤلي لم يستمد طريقة نقط
الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل ؟

بقي علينا أن نوضح كيف اتصل أبو الأسود باللغة السريانية وتعلماتها ؛
والأمر في ذلك سهل ؛ إذ أن صلته بالعلماء ليس من السهل أن يشك فيها ؛
فقد كانوا الطبقة المنتشرة المثقفة في بيئة العراق ، وكانوا فوق ذلك
يمارسون نشاطاً في هذه البيئة لا يجارى من ناحية الدرس ، والتفكير ؛ ولا
ينبغي مطلقاً لعالم ديني لغوي ، وحاكم إداري كأبي الأسود أن يجهل وجود

هذه الطبقة ؛ فهو لابد وأن يكون قد اتصل بها ، وخالطها ، وتحدث إليها
وتعرف على كثير مما تهتم به من المسائل العلمية ؛ وإذا كان الأمر كذلك
فليس هناك ما يستلزم أن يكون أبو الأسود قد تعلم اللغة السريانية لكي
يأخذ منهج شكل النصوص الدينية عن أصحابها ؛ فمن الممكن جداً أن يأخذه
عن طريق الترجمة ، سواء من العرب الذين يعرفون السريانية ، أم من
السريانيين الذين يعرفون العربية . على أننا نظن بل نرجح أن أبا الأسود
كان يعرف اللغة السريانية معرفة تمكنه من التفاهم بها ، وقراءة بعض
بعضها إلى حد ما ؛ وذلك لإقامته الطويلة في بيئة العراق ، وإقامته
الشديدة بالأبحاث اللغوية والدينية أثناء إقامته في تلك البيئة ؛ وهي تكاد
تكون بيئة سريانية في أول عهد اتصال العرب بها ؛ ولما ورد في الآثار
من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه قد حثوا على تعلم اللغات
الأجنبية وأولائها في ذلك الوقت ، بالنسبة للمهتمين بالبحث ، والمعرفة ،
والتميز ، هي اللغة السريانية .

وعما يشهد بذلك ما عرف من أن علي بن أبي طالب كان ينطق في
أحاديثه أحياناً بالفاظ أجنبية ، مثل كلمة - قالون - باللغة اليونانية . (١)

(١) انظر فقه اللغة للثعالبي ص ٤٥٥ القسم الأول ؛ ويلاحظ هنا أن الثعالبي
ذكر أن هذه الكلمة رومية ، وهو من قبيل الخلط عند القدماء في تسمية ما
نأتى بالرومي .

ومثل هذا ، وإن كان قد استعمل على سبيل التبسيط أو الفسحة من الإمام على كرم الله وجهه : إلا أنه كان بمثابة الدعوة الصريحة لتعلم اللغات الأجنبية ؛ ونحن نعلم مبلغ ما تحدثه إشارة الرئيس أو كلمته من أثر في المجتمع ؛ فقد تكون كلمة تلي ، أشد تأثيراً وأسرع سرياناً في الشعب من كتاب يؤلف أو قانون يوضع .

ولعل القارئ لا يجد صعوبة في فهم الصلة بين طريقة النقط التي وضعها أبو الأسود لشكل النص القرآني ، وبين النحو العربي ؛ إذ أنها كانت بمثابة الخطوة الأولى التي يشار حولها كلام في الموضوع ، وفي المنصوب ، وفي المجرور ، وفي الساكن . وحكاية أبي الأسود مع زياد ابن أبيه ، وطلبه كاتباً لفتاً يكتب ما يملئ عليه ؛ وشرحه لطريقة الشكل الذي يريده ؛ كل ذلك مبين واضح في المصادر القديمة مثل الفهرست لابن النديم ^(١) وإنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي ^(٢) ولا يزال لدينا حتى الآن أثر قديم يشرح لنا هذه الطريقة عملياً ولا يدع مجالاً للشك في تطبيق طريقة أبي الأسود ؛ ذلك هو مصحف قد وجد في مسجد عمرو بن العاص في القاهرة ولعله أقدم مصحف مخطوط في العالم ، قد شكل بنفس الطريقة التي شرحها أبو الأسود لكاتبه ؛ ومن حسن الحظ أن عمر على هذا المصحف ولا يزال

١

(١) الفهرست ص ٦٠

(٢) إنباء الرواة على أنباء النحاة ص ١٠ طبعة دار الكتب المصرية سنة وجود

